



القراءة والتعبير /2/



السنة: الثانية

القسم: ترجم



الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
التعليم المفتوح
قسم الترجمة

القراءة والتعبير (2)

الدكتور

محمد هيثم غرة

أستاذ في قسم اللغة العربية

الدكتورة

سراب اليازجي

أستاذ في قسم اللغة العربية

١٤٤٠ - ١٤٤١ هـ
٢٠١٩ - ٢٠١٨ م

جامعة دمشق





الموضوع	الصفحة
مقدمة	7
طرق التعبير باللغة العربية	9
المناهج الأدبية	15
المقالة	19
مقالة: روح اللغة	23
إضاءة على النص	33
مساعدة إعرابية	35
القصة	37
على الأكياس	39
إضاءة على النص	67
الرواية	69
رواية قوس قزح	71
إضاءة على النص	79
الرسالة	81
الرسالة الهزلية	83
مساعدة إعرابية	123
المشغقات	124
رديارد كبلنج وقصيدة إذا	127
أبو البقاء الرندي	139
إضاءة على النص	142

143	مساعدة إعرابية
151	شعر عربي حديث
153	مساعدة إعرابية
157	المسرحية
159	نهر الجنون
171	إضاءة على النص
173	المناظرة
175	المناظرة: بين السيف والقلم
181	إضاءة على النص
183	السيرة الذاتية
185	المرأة التي أبصرت بعينيها
194	إضاءة على النص
197	الترجمة
199	ماجدولين
202	مساعدة إعرابية
205	نصان أدبيان للتدريب- أدب العلم
213	من الشعر القديم- أبو الطيب المتنبي
217	نصوص من الأجناس الأدبية روافد

مقدمة

نقدم إليك كتاب (القراءة والتعبير 2) بعد اطلاعنا على ما درسته في الفصل الأول حتى يتكامل لديك الهدف الذي توخيناه من التأليف وهو مساعدتك- وأنت طالب ترجمة- على القراءة السليمة التي تؤدي إلى الفهم السليم، وعلى الطرق المتاحة أمامك للتعبير عما تريد، نقصد الفنون البلاغية التي بها يتفاوت الأدباء والشعراء وبها يتنافس المترجمون، اخترنا لك منها ما تحتاجه دون غيره من أساليب البلاغة وطرق القول والتعبير وما ينبغي أن تعرفه، لأنه أداة من أدوات عملك في الترجمة كالاستعارة والتشبيه والكناية والطباق والجناس والتقديم والحذف.

ولم ننس أنك- وأنت تدرس هذه القضايا- تحتاج إلى الأساس الذي تقوم عليه من مسائل النحو والصرف، فقدّمنا إليك مجموعة من التطبيقات في البلاغة والنحو والصرف إضافة إلى بضع قواعد نظرية تناولت الأفعال الخمسة والأسماء الخمسة وأسلوب الشرط وأسلوب النداء وأسلوب التعجب والمشتقات والممنوع من الصرف.

وقد تعلّق التطبيق الذي حدّثناك عنه بالبحوث التي تميّزت باللغة العالية ليصحّ التمثيل بها والاعتماد عليها.

ولم يفتنا الحديث عن مناهج الأدب وأسس البحث وعرض الطريقة التي يستفيد منها الطالب في ذلك.

كلّ ذلك كان بين يدي ما اخترناه لك من أنواع الأدب وأجناسه المختلفة التي تمثّل لبّ هذا الكتاب والأساس الذي قام عليه، وهي أجناس توخّينا التعريف بها وقَدّمنا إليك نماذج منها.

فاخترنا في (المقالة) مقالة روح اللغة لأمين الريحاني، وفي (القصة) قصة على الأكياس لحنا مينة، وفي (الرواية) رواية قوس قزح لشكيب الجابري، وفي (الرسالة) الرسالة الهزليّة لابن زيدون، وفي (المسرح) نهر الجنون لتوفيق الحكيم، وفي (المناظرة) مناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وفي (السيرة الذاتية) المرأة التي أبصرت بعينها لطفه حسين.

واخترنا لك من (الشعر العربي القديم) نونية أبي البقاء الرندي، ومن (الشعر العربي الحديث) نونية لمحمود سامي البارودي، ومن (الشعر الإنكليزي) قصيدة إذا لـ رديارد كبلنج مشفوعة بثلاث تراجم.

وختمنا الكتاب بنصّ مترجم للمنفلوطي وهو (ماجدولين) العمل المشهور الذي تجلّى فيه براعة المنفلوطي وقدرته اللغوية الفنيّة العالية في التعبير.

ولم يكن اختيارنا للنصوص المختارة عبثاً، وإنما اختيرت لما في بعضها من فصاحة القول وبلاغة التعبير وشرف المعنى، ولما في بعضها الآخر من الشهرة الواسعة للمؤلف أو المؤلف، لذلك نرجو أن يهتدي الطالب بسراج ما قدّم إليه في هذا الكتاب لعلّه يحقّق ما يصبو إليه من نجاح وتفوّق في حياته الدراسية، وتميّز في حياته العملية بعددٍ. والله من وراء القصد.

دمشق 2012 /7/8

المؤلفان

طرق التعبير باللغة العربية

من أهداف القراءة تحقيق الإعراب الذي به يتم تمييز الفاعل من المفعول، والخبر من الحال، والمبتدأ من المضاف إليه وهكذا.

فالفاعل في النحو هو الذي يقوم بالفعل وهو مرفوع إذا كان معرباً وفي محل رفع إذا كان مبنياً، كأن تقول: أقبل زيد، فترفع (زيد) ثم يفهمك الرفع أنها فاعل، أو تقول: أقبل الذي أحبه، فيكون (الذي) اسماً موصولاً مبنياً في محل رفع فاعل وهذا أيضاً يفهمك أنه فاعل.

والمفعول به هو الذي يقع عليه الفعل، وهو منصوب أو في محل نصب، كأن تقول: أكرمتُ زيداً فتنصب (زيداً) ثم يفهمك هذا النصب أنه مفعول، أو تقول: أكرمتُ من أحب، فيكون (من) اسماً موصولاً مبنياً في محل نصب مفعول به ثم يفهمك هذا أيضاً أنه مفعول، وهكذا.

أما التعبير فهو الطريقة التي يؤدي بها الكلام، وهو إما أن يكون تعبيراً مباشراً يتحقق في كلام الناس الموهوبين من غير أن يكون لأحدهم كبير فضل على غيره كأكثر الكلام، تقول مثلاً: لقد علمتني الأيام وصقلنتني نوائب الدهر إذ ذقت حلوها ومرها وبؤسها ونعيمها، ووجدت أن من يكثر تعلّقه بهذه الدنيا الفانية لابد من أن تسقيه الخطوب وتغذيه المصائب.

أو تقرأ في هذا المعنى قول الشاعر:

وإنما يـوعظ الأديبُ
كذاك عيش الفتى خطوب

نوائب الدهر أدبتني
قد ذقت حلواً وذقت مرّاً

لم يَمْضِ بؤس ولا نعيم إلا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي تغذوه من دَرهما الخطوب

قرأته قبل قليل نثراً وهاهنا تقرأه شعراً، وليس بين التعبيرين اللذين وقفت عليهما فرق ولا فضل لأحدهما على الثاني سوى فضل الشعر على النثر، والعرب مولعون بالشعر.

لكن، في كثير من الأحيان لا يشبع التعبير المباشر الذي حدّثك نهم المتكلّم ورغبته في أداء المعنى الذي يريده، فيلجأ إلى أنواع أخرى من الكلام يخرج فيها عن التعبير المباشر، وهي ضروب من البلاغة تتباين حسناً وجمالاً بحسب قدرة المتكلم على امتطاء صهوتها، وقد تقع هذه الضروب تحت عنوان العدول عند العرب أو الانزياح عند غيرهم.

وهي أي تلك الضروب إنّما يلجأ إليها المتكلم إذا أراد تعميق الفكرة التي يريدها في ذهن المتلقي أو ترسيخها أو إثباتها أو المبالغة فيها أو ادّعاء مالم يكن، أو إذا أراد ضرباً من ضروب الجمال أو غير ذلك.

فهو إذا وصف ممدوحه بالكرم لجأ إلى التشبيه فقال:

هو البحر من أيّ النواحي أتيتَه فلجّته المعروف والجود ساحله

مدرّكاً أنّ البحر أكثر المخلوقات غنى وعطاء فجعله مشبّهاً به لاكتمال الصفة التي يريدها وبروزها عنده أكثر من أيّ شيء آخر.

أو لجأ إلى المجاز المرسل في مثل قوله:

له أيادٍ عليّ سابغة أعدّ منها ولا أعدّها

فذكر (أيادٍ) وهو يريد ما ينتج عنها أو ما يتسبب عنها وهو الفضل أو العطاء، أو لجأ إلى الاستعارة في مثل قوله:

تعرّض لي السحاب وقد قفلنا فقلت إليك إنّ معي السحابا

وربما لجأ إلى الكناية في مثل قول الشاعرة:

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتا

وإذا أراد أن يبين لك مدى جمال محبوبته استعار الشمس ليدل عليها فقال:

أتتني الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا

أو الطيبة فخطبها بقوله:

ياظبية البان ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

ثم رآها وهي تزيح الخمار وقد بدا وجهها المضيء وسمع كلماتها الحسان فاستعار للخمار الشفق وللوجه القمر وللکلام اللؤلؤ وللغم الخاتم فقال:

سألتها حين زارت نضو برقها الـ فاني وإيداع سمعي أطيب الخبر
فزحزحت شفقا غشى سنا قمر وساقطت لؤلؤا من خاتم عطر

وإذا أراد أن يتغنى بطول جيدها كنى فقال:

بعيدة مهوى القرط إمّا لنوفل أبوها وإمّا عبد شمس وهاشم

وقد يقلب التشبيه فيقول:

يحكي العيون إذا رأت أحبابها

ورد بدا يحكي الخدود ونرجس

وربما وجد المتكلم أن كلمة قد تكون أهم من غيرها في العبارة فقدّمها تعظيماً لشأنها أو بياناً لأهميتها إذا كان فيها من الخطورة ما فيها فقال مثلاً:
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن

أو من وجد أن كلمة قد يُستغنى عنها لقلة شأنها أو لذكرها قبل أو الإشارة إليها فحذفها من الكلام كقول الشاعر:
أخوك الذي إن سرّك الأمر سرّه وإن ساء أمر ظلّ وهو حزين

فحذف مفعول ساء اكتفاء بمفعول سرّك المذكور.

وقول الشاعر:

أتوني فقالوا يا جميل تبدلت بثينة أبدالاً فقلت لعلها

فحذف، إذ التقدير لعلها تبدلت.

ثم إنّه قد يجانس بين الكلمات فتأتي متشابهة اللفظ مختلفة المعنى كما في قول الشاعر:

أتتني بالأمس أبياتُهُ
كبرّد الشراب ويُرّد الشباب
وعهد الصّبا ونسيم الصّبا
تغلّل روعي بروح الجنان
وظلّ الأمان ونيل الأمان
وصفو الدنان ورجع القيان

أو يطابق فيقول:

وربحه غير فعل الخير خسران

زيادة المرء في دنياه نقصان

وهذه كلها نقصد ضروب البلاغة من تشبيه واستعارة وكناية وجناس وطباق وقضايا التقديم والحذف وسوى ذلك مسائل يحتاج إليها المتكلم إذا أراد أن يكون كلامه متميزاً عن كلام الآخرين، ولأمر ما يفاضل الناس بين المترجمين، ولأمر ما أيضاً ظهرت في الترجمة أسماء فلمعت وغابت أسماء فُنُسيت.

والآن نقدّم إليك بعض التعريفات التي تجعل حفظ ما سلف سهلاً.
-التشبيه: أن يشترك الطرفان (المشبه والمشبّه به) بصفة أو أكثر مثل (هند كالشمس).

-الاستعارة: تشبيه بليغ حذف منه أحد الطرفين مثل (أشرقت هند) أو (رأيت الشمس تحمل ابنتها).

-المجاز: استخدام الكلمة في غير ما وضعت له مثل (هطلت السماء) والشيء الذي هطل هو الماء (والاستعارة من المجاز).

-الكناية: إطلاق اللفظ وأنت تريد لازم معناه مثل (سعاد نؤوم الضحى).
-التقديم: تقديم كلمة على غيرها لغرض بلاغي مثل القصر في قوله تعالى: (إياك نعبد) إذ قدّم المفعول لأنّ المراد قصر العبادة عليه.

-الحذف: إسقاط كلمة قد تكون حشواً أو مفهومة أو لا داعي لذكرها مثل قوله تعالى (كلاً إذا بلغت التراقي) إذ حذف فاعل بلغت لأنّه معلوم، فالمراد الروح أو النفس.

-الجناس: تماثل الكلمتين لفظاً واختلافهما معنى كقول الشاعر:

باللّقا حتّى ضنّينا

دهرنا أمسى ضنّينا

-الطباق: الجمع بين معنيين متضادّين: كقول الشاعر:

أين التباكي والتضاحك في وقت معاً والحزن والطرب



المناهج الأدبية

إن أهم ما يميز النقد الأدبي الحديث أنه يفيد في مناهجه وفلسفته من الإطار المعرفي للعلوم الإنسانية وذلك بقصد إبراز الأهمية الأساسية القائمة على تحليل النص الأدبي. وفي خضم أشكال قراءة النص الأدبي تعددت الرؤى التي من شأنها أن تُرسي الأساس لإطار المنهج المتبع الذي يمدنا بأدوات نستخدمها في عملية التحليل والتي نميز بها الافتراضات التأويلية لمجموع الخصائص العامة التي ينتمي إليها كل نص.

والمناهج التي يستخدمها الناقد في تقويم النصوص الأدبية متنوعة، منها: المنهج الفني، المنهج النفسي، المنهج التاريخي، المنهج الاجتماعي، المنهج البنوي، المنهج التأثري الانطباعي، المنهج التكاملي.

وهذه المناهج ليست منعزلة تمام الانعزال، وعزلها لا يعود على النقد الأدبي بخير، لأن عملية النقد الكاملة قد تستدعي استخدام المناهج جميعاً في وقت واحد.

1- المنهج الفني: يحدد الناقد في ضوء هذا المنهج خصائص الأديب الفنية ويتعرف من خلال آثاره على اتجاهه الأدبي وعلى قيمه التعبيرية والشعورية. كما يستعين بقواعد اللغة في فهم الأعمال الأدبية، ويصدر أحكاماً تأثرية نابعة من جمال الألفاظ والمعاني بالإضافة إلى الاهتمام بالصور الخيالية ودورها الفني.

وهذا المنهج أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب وطبيعة الفنون على وجه العموم، ومن أنصاره الدكتور طه حسين والدكتور عبد القادر القط وأمين الخولي.

2- المنهج النفسي: يتناول العناصر الشعورية وغير الشعورية الداخلة في عملية الخلق الأدبي والعلاقة النفسية بين التجربة الشعورية والصورة اللفظية،

فالعامل الفني صورة من صور التعبير عن النفس، ومن خلاله يمكن الكشف عن عوالم النفس والاهتداء إلى السمات والطبائع والنماذج البشرية، فسوفوكليس في (أوديب) وشكسبير في (هملت) ودستوفسكي في (المقامر) أمذتهم الملاحظة النفسية والحساسية الشعورية بما لم يبلغه علماء النفس.

ومن الأدباء العرب المهتمين بالمنهج النفسي العقاد في كتابيه أبي نواس وابن الرومي، وأمين الخولي في تحليله لحياة أبي العلاء.

3- "المنهج التاريخي: وهو يقوم على عرض الموضوعات والقضايا عرضاً تحليلياً في ضوء تاريخها وأحداث عصرها، بهدف التعرف على أصولها الفنية، ويدرس مدى تأثير العمل الأدبي أو صاحبه بالوسط المحيط به، ومدى تأثيره فيه. وهذا المنهج لا يستقل بنفسه بل يأخذ بعض الشيء من المنهج الفني. ومن مخاطر (المنهج التاريخي) الاستقراء الناقص، والأحكام الجازمة، والتعميم العلمي.

4- "المنهج الاجتماعي: ظهرت في بداية القرن التاسع عشر فئة من النقاد ترى أن الأدب في خدمة المجتمع، وأن العمل الأدبي جزء من نظام الحياة العام وشجبت الأعمال الأدبية المؤيدة للنظم الاقتصادية والاجتماعية المتسلطة كالبرجوازية والإقطاع، ومن أبرز النقاد الاجتماعيين في أدبنا العربي الحديث عمر فاخوري في لبنان صاحب مدرسة التحرر الفكري، وهو يؤكد في كتاباته أن الأدب كسائر الفنون الجميلة ظاهرة اجتماعية أصلاً ووظيفته اجتماعية فعلاً.

ومن النقاد الاجتماعيين أيضاً محمد مندور الذي أثنى على المؤلفات القصصية التي تعنى بالمجتمع، ورأى أن الأدب معاناة مأسوية يصدر عن تجربة اجتماعية وجمالية معاً.

5- "المنهج البنيوي: ويركز أنصاه اهتمامهم بالأثر الأدبي عينه: بنية لغوية ومقاطع وجمالاً وتراكيب، وما تتطوي عليه من دلالات ورموز وصور

تتخطى حدود المؤلف إلى الأساليب التعبيرية المتنوعة. وظهر هذا المنهج في فرنسا، ومن أنصاره رولان بارت وميشيل سيرز.

6- "المنهج التأثري الانطباعي: ويقوم على تمثيل النص وإلقاء الأحكام وفقاً لما أوحاه ذلك الأثر للناقد وما تركه فيه من تأثير، وهو يقوم على إعادة خلق العمل بأسلوب الناقد المتذوق بعد أن يضيف عليه من أحاسيسه وآرائه، وغالباً ما نجد آراء سريعة حول النص تدخل في إطار النقد الانطباعي الذي قلّما يعنى بالتحليل والتعليل.

وقد اعتمد ميخائيل نعيمة في مجمل آرائه النقدية على ذوقه الأدبي، حيث أهّلته ثقافته العربية والأجنبية لأنّ يعرف مواطن الحسن في الكلام.

7- "المنهج التكاملي: وهو الذي يجمع هذه المناهج جميعاً، ويتناول العمل الأدبي من جميع زواياه، ويتناول صاحبه بجانب تناوله للبيئة والتاريخ، كما أنّه لا يغفل القيم الفنية الخالصة ولا يغرقها في غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية، فيجب أن تبقى للأدب صبغته الفنية دون أن ننسى أنّه أحد مظاهر النشاط النفسي وأحد مظاهر المجتمع التاريخية إلى حد ما.

ومن الذين نجحوا في تطبيق هذا المنهج في دراساتهم الدكتور أحمد كمال زكي، والدكتور شكري عياد والدكتور عبد القادر القط والدكتورة سهير القلماوي.



المقالة

يرتبط تاريخُ المقالة في أدبنا العربي الحديث بتاريخ الصحافة، لأنها استمدت منها نسمة الحياة منذ ظهورها، وخدمت أغراضها، ونقلت ما تحفل به إلى القراء من أفكار وموضوعات.

إن المقالة لم تظهر في أدبنا مستقلة بصفاتها فناً أدبياً كما كانت الحال في فرنسا وانكلترا فهي عندنا بنتُ الصحافة وربيئتها، ذلك أن الصحافة خاصة في أوائل عصر النهضة العربية كانت الوسيلة المثلى لنشر الأفكار بين الناس وإذاعة الأدب بين الجماهير.

وجدير بالذكر أن تطور الصحافة في مصر ولبنان أثر في المقالة تأثيراً كبيراً. واتسعت صفحاتها لنشر مختلف أنواع المقالة من ذاتية وموضوعية.

أما المقالة الذاتية فهي التي تعنى بإبراز مشاعر الكاتب وآرائه وانعكاسات الحياة على نفسه، كما أنها مرنة حرة في أسلوبها وطريقة عرضها، تعتمد على توارد الخواطر، وتكون حافلة بالصور والانفعالات والألفاظ الموحية الأنيقة، ومن أقسامها: المقالة التأملية، المقالة الوصفية، مقالة النقد الاجتماعي، الصورة الشخصية، السيرة ووصف الرحلات.

أما المقالة الموضوعية فإنها تتميز بتصميم واع قائم على مقدمة وعرض وخاتمة، وتحرص على التقيد بما يتطلبه الموضوع من منطق في العرض والمناقشة، وتقديم الأدلة والبراهين واستنباط النتائج، وتتسم بالبعد عن التكلف والانفعالات والصور، وتوخي الألفاظ الدقيقة المعبرة.

ومن أقسامها: المقالة النقدية، المقالة الفلسفية، المقالة التاريخية،
المقالة العلمية، ومقالة العلوم الاجتماعية.

وقد بلغت المقالة في عصرنا مستوى أدبياً رفيعاً، وخطت طريقها الأدبي
اللائق واحتلت حيزاً مهماً في أدبنا العربي الحديث.

ومن أعلام كتاب المقالة في عصرنا الحديث: مصطفى لطفي المنفلوطي،
وعباس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات، وإبراهيم عبد القادر المازني، وقاسم
أمين، وجبران خليل جبران، ويعقوب صرّوف، ومي زيادة، وميخائيل نعيمة،
وأمين الريحاني...

وقد اخترنا مقالة أمين الريحاني بعنوان (روح اللغة) لدراستها، والاطلاع من
خلالها على أسلوب الريحاني في كتاباته.

ولابدّ أولاً من التعريف بالكاتب الأديب (أمين الريحاني):

وُلِدَ أمين الريحاني في قرية الفريكة بלבّنان (1876-1940)، وقد وعى منذ
وقت مبكّر الاتصال الوثيق بين لبنان والعرب، وذلك الترابط المصيري بين
العرب أنفسهم، فكان - فكرياً - الرسولّ الوفي من لبنان إلى العرب، ومن العرب
إلى لبنان، بل كان الرسولّ الأمين من العرب إلى العرب. وانفتح على الحضارة
الغربية وثقافتها، فكان بحق رسولّ الشرق إلى الغرب ورسول الغرب إلى الشرق.
وفي كلّ موقف وقفه الريحاني خطيباً على منابر الشرق والغرب، أو جواباً
يتحدّى الملل والمشقة والخطر في رحلة دائمة من أفق إلى أفق، وفي كلّ سطر
خطه قلم الريحاني ناثراً أو شاعراً، كان أبداً ذلك الغيور على الحقيقة، ووطنه
والإنسانية، وذلك النسر من نسور البيان، فهو في الفكر مدرسة، وفي الخلق

الأدبي مدرسةً ابتكار وتجديد. وفي كلتا المدرستين تَرَبَّى من النخبة جيل لبناني وجيل عربي كبير يتعلّم العمق والشمول في التفكير، ويحاول الإبداع والتجديد. وقد عاش الريحاني في نيويورك قدر ما عاش في الفُريكة القرية الصغيرة المغمورة في لبنان. وتكاد حياة الريحاني أن تكون رحلة دائمة إذ قُدِّر له أن يقوم برحلاتٍ كثيرة إلى بعض البلدان العربية، بالإضافة إلى رحلات داخلية قام بها في وطنه لبنان.

ومن الحق أن نعتزّ أن أدب الرحلات وفن المقالة والخطابة والنقد ما كانت لتبلغ مبلغها من السعة والغنى لولا دروب شقّها الريحاني للسالكين. وأبرز مؤلفاته: (الريحانيات) مجموعة مقالات، وله في الرحلات (ملوك العرب) و(قلب العراق) و(قلب لبنان)...

بالإضافة إلى كتب أخرى، مثل: (أنتم الشعراء) و(أدب وفن) و(وجوه شرقية وغربية) و(هتاف الأودية) و(التطرف والإصلاح) و(زنبقة الغور) و(رسائل أمين الريحاني). كما كتب باللغة الإنكليزية عدداً من الكتب، منها (الرباعيات) و(اللزوميات) و(المر واللبان) و(القمة العربية والصحراء) و(حول الشواطئ العربية).



روح اللغة

-1-

اللغة جسم لا ينمو إلا بالغذاء الجديد وروح لا يعلو أدب عليه ولا يدوم أدب دونه. ولكن الأجسام عرضة للأسقام، وآراء الناس في الأرواح لا تخلو من الأوهام. فاللغة إذن تحتاج إلى رجل الطب حيناً، ورجل الدين أحياناً. أما إمامها فشاعرها وطبيبها فأديبها. وما العمل إذا مرض الأديب وعجز الشاعر؟ أقطع الغصن اليابس ولقح الغصن الطري، تسلم الشجرة فتنمو وتزهر.

كذلك فعل دنته في اللغة الإيطالية وشكسبير في اللغة الإنكليزية وفكتور هوغو في اللغة الفرنسية وما هؤلاء بلغويين ولكن اللغوي يتبع الشاعر فينقح كتب اللغة لتشمل ما جاء بها من جديد لفظاً ومعنى. ولا ريب أن في سوريا ومصر اليوم من يحاولون شعراً ونثراً - وإن عُدَّ إحسانهم قليلاً - تجديد حياة اللغة العربية وتوسيع نطاقها لفظاً وبياناً.

إنني ممن يتعشقون هذه اللغة الشريفة. وإذا كانت الإنكليزية تسابقها أحياناً إلى خيالي وتجلس مكانها في معقولي فهي لا تزال على لساني وفي قلبي وطيّ أحلامي. ليعذر منّي القارئ هذا الإفصاح. فمن العادي الفطري أن يحب المرء لغة أجداده. ولكن لحبي سبباً آخر غير الفطرة فهو ناشئ عن إعجابي بالجميل الخالد من الآداب العربية، وما هو بالقليل إذا قسناه بمثله في لغات الأجانب.

لا يلمني القارئ في تقديم العاطفة على البحث والبرهان. فهي كلمة عاشق
هزني إليها صديق لي قديم سمعت حديثه أمس، سمعته في دار الكتب
العمومية في نيويورك والرجل في بيروت.

فقد كنت ماراً في شارع هذه المدينة الكبير. فدخلت المكتبة وسرت إلى
الدائرة الشرقية فوق نظري هناك على مجلة ((الهلال)) وفيها مقال ممتع
للأستاذ جبر ضومط في اللغة العربية.

فطالعتة شيقاً إلى استماع حديث هذا الصديق في موضوع هو حجة فيه.
وقد راقني منه خصوصاً تعداد محاسن اللغة العربية والمقارنة بين آدابها وآداب
سواها من اللغات، أحسنت يا صديقي الأستاذ. ولكنك في ذكرك إياي وسؤالك
استهويت. فإنّي بين اللغتين مثلي بين معشوقتين لا أدري، أيتهما أجمل ولا إلى
أيتهما أنا أميل.

على أني قرأت صفحة في جمال الاثنتين. وألمعت بما في الهامش من شرح
الغامض. فكان حظي من بعض الأسرار يسيراً.

إلا أنّ من ذا اليسير ما يعد في عرف العارفين كثيراً. فبضدها تتبين
الأشياء! فالورد في الأخراج أجمل منه في البساتين. وآداب اللغة في الجاهلية،
على قلتها، أبهى من مثيلاتها في حضارة هذا الزمان. ذلك لأنّ دائرة نورهم
تلاّأت في الظلام. ودوائر نورنا تكاد تختفي في الكبيرة البهية من الأنوار. لا
فضل لنا أن نكون مثل من نظموا ونثروا في الجاهلية وفي صدر الإسلام. بل
نحن الملمون إذا كان نورنا اليوم لا يشع بين أنوار الأمم المتمدنة فترنو إليه
الأبصار مدهوشة مستهدية.

- 2 -

من جميل ما قلت إنّ رقي اللغة في رقي أبنائها المشتغلين بها. هذه حقيقة
كبيرة استأذنك بتقديم أخت لها صغيرة، وهي أن رقي اللغة في الخروج على
العقيم السمج من مألوفها مع المحافظة على روحها. والخارجون من الكتاب

اليوم على المؤلف وعلى الروح معاً كثيرون. فيخيل إليك، وأنت تطالع ما ينشرون، أنك تقرأ لغة أجنبية في ألفاظ عربية. ولكني أفضل هذا الإنشاء - وفيه من الغرابة والركاكة ما فيه - على إنشاء عربي لا غبار على ((سيبوياته)) وقد اخذت معانيه ومبانيه من ((الفرائد الدرية)) وغيره من ((المحنطات)) اللغوية.

وعندي أن ضرر مثل هذه الكتب أشد من ضرر لغات الأجانب في من لا يحسنون الكتابة. وإننا إذا علمنا التلميذ أن يقول ((تحركت ركابه)) بدلاً من ((سار الأمير)). و((عاد بخفي حنين)) بدلاً من ((أخفق سعيًا)). و((قلب له ظهر المجن)) بدلاً من ((نكت عهده)). وغيرها من ثمار البيان الشبيهة بثمار سدوم، فإننا نعلمه كلاماً لا يفهمه أبناء زمانه. إن في مثل هذا القديم، بل هذا التقليد عقم اللغة وموتها.

إن رقي اللغة في نموها الدائم وأن المحافظة على المؤلف تليق بمعلم الأولاد والبقال لا بالشاعر والأديب. ومن الحكمة أن نخبر المؤلف فنتجاوزه إلى سواه. من الحسن أن ألم بشيء من شوارد اللغة، وأحسن من ذلك أن أفهم، إذا استطعت، أصول الشوارد. فأنتفع بالأسباب إذا كانت شاملة. وقد أتخذ من القوالب ما ترتاح إليه أفكاري. ولعمري إن أوضاع اللغة، لا أساليب المنشئين، خير ما يتعلم التلميذ ويقتبس الكاتب المجدد. ولا بد له بعد ذاك، إذا تفرد في ذكائه، أن يتفرد في أسلوبه. فينبذ العقيم والسمج من مألوف الأوضاع. ويعود إلى لوح الوجود وإلى حاضر الأمة في حياتها الجارية فيتخذ من الاثنين مادة لبيانه.

إنه ليجد في الاثنين غذاء طيباً جديداً لأسلوبه ولأفكاره ولمجازه وخياله. مرحباً بامرئ القيس والمتبئ، مرحباً بابن خلدون والغزالي. ولكن في رأسي عيين تريانني أرضاً رحبة إلى جانبي الطريق التي سلكوها.

كان يوم وكانت ((الفرائد الدرية)) لي بستاناً و ((نهج البلاغة)) ميزاناً و ((المقامات)) ديواناً وخواناً. وإنني لأذكر أول مرة فتحت فيها القاموس فوق نظري في حرف الخاء على مادة خرج. فقلت: وسفر الخروج، نقرأه في المروج. على أنه وقع بعد ذلك حادث استقام فيه نوعاً ما أمرنا - أمر هذه اللغة وأمرى. عندما أزمعت هجر ما ألفته من ضروب البلاغة والبيان أقمت والقاموس سنة عددها من أيام أهل الجنة، فنسيت في خزعات اللغة، خزعات الحياة كلها. وأعذب الخزعات أبعداها من الأصول. القاموس مستودع قمح فيه من الزوان والحصى والتراب شيء كثير. وقد تزودت من بعد الغريلة - ((أنا على سفر لابد من زاد)) - ما قد لا يكفي في نظر علماء الأزهر. ولكن القناعة كنز لا يفنى.

لست في المفردات الشدياق، ولست في الأوضاع اليازجي ولا أنا من الطامعين بمثل هذا الغنى. ولكني أعلم أن للألفاظ - مثل ما للغة - من التاريخ ما يفيد اللغوي معرفته، وقد يستفيد من الإلمام به بعض الكتاب. وميزة الألفاظ إنما هي فيها، قائمة بنفسها، وقلما تزيدها، لدى الشاعر، صقلاً المعرفة بأصلها وشأن تطورها.

هاهي أمامك في القاموس. اضرب صفحاً عن الوحشي والمستهجن والعقيم والبذيء. وقس الألفاظ بما عندك من حسن سمع وحسن ذوق¹ فإنَّ للألفاظ ما سوى الرنة والجرس ألواناً أيضاً وروائح في ما دق وشف وتماوج وفاح من معانيها.

¹ - ما أقبح قولهم عجنجرة مثلاً في امرأة خفيفة الروح وعلطميس في جارية حسنة القوام. وما

أجمل وصفهم ما رق وشف من الثياب بالمهلهلة والمهفافة.

أجل إن من الألفاظ ما يعد من الأحياء. لها من مرونة البان، وصلابة السنديان، وسلاسة الماء الجاري، وزمزمة الرعود، وصفير البلابل، وهمس النسيم، وشذا الرياحين، وإيماء الألوان، ما يجعلها لدى الكاتب كنزاً في الإنشاء والإبداع. فعلى من يُميز حب الآس من حب البلان، أو القمح، في الأقل، من الزوان لا يتزود من القاموس دون غريلة ولا يغرف جشعاً وجزفاً من كتب اللغة. ليس الكاتب النابغة من كان يبدعياً فقط (اللفظة للأستاذ ضومط)، بل من كان أيضاً حسن الذوق في الفنون الجميلة كلها: في الغناء والموسيقى والشعر والتصوير والنحت. فيستعمل الألفاظ كما يستعمل العواد الأوتار. وينظم المعاني كما ينظم الرسام الألوان. ويبني جملة مقالاً كما يبني النحات نصباً أو تمثالاً. ويمزج أدبه وعلمه وخياله كما يمزج صانع العطور عطوره.

والعربية تمكن الكاتب الذي يتعشقها ويجهد النفس في افتهام بعض أسرارها من الكثير من هذا الجمال وفي اللغة ذاتها براهين لا تعد ولا تُرد. وقد تجسمت في من تجلت لهم روحها السامية من الشعراء والأدباء. كان أبو الطيب. فجاء الشعر منه في الأوج فإن في جديد معانيه وأنيق مبانيه وجزالة ألفاظه حقيقة ما قلت. وهو في مقدمة من أحاطوا علماً بما في الألفاظ من اسرار المعاني وأظلالها وتموجاتها. فكان في اختياره موسيقياً ورساماً ونحاتاً وعطاراً معاً.

وكان أبو العلاء. فجاءت فلسفته الشعرية، وفيها من أصالة الرأي، ودقيق النظر، ورقيق الشعور، وبعد الخيال، وحرية الفكر، ما جعل المستشرقين يقولون: إنه جاء ألف سنة قبل آوانه. وكان ابن الفارض. فقال لهذه اللغة الشريفة: أريد منك مادة ذهبية لأسرار إلهية. أريد جلباباً هفافاً لكيان خفي علي. فقالت اللغة: لبيك! فنظم تلك القصائد الفريدة في بابها المنقطعة النظير حتى في الدواوين الإنكليزية والفرنسية التي أعرفها.

إنّي، حتى في حبي هذه اللغة، طالب متصوف. فتعذرني وبعذرني المقربون منها إذا سرت حول بستانها هائماً، وقد طالما ظننت الجدار الوهاج نهجاً أو ستاراً فسقطت مرات عنده كفراشة تحاول الدخول من شباك زجاج مقفل. على أنّي تسلقت الجدار مرة لجهلي مكان الباب منه. ولشدة ابتهاجي مما شاهدت سقطت في عليقة تحتي.

وسرت زمناً بين العليق والرياحين في جادة تنتهي عند كل خطوة من خطواتي. أزرع ما قد لا يليق، إذا نور، بعرض اللغة زينة أو تقدمة. ولكني أوّل أنّ ثباتي في ما هويت وقاسيت يجعلني في الأقل من المقربين. فها يدي ولم تزل دامية وثوبي ولم يزل ممزقاً. ويشهد عليّ سيبويه أنّي آثرت يوماً ثمرة طيبة في بساتين الغرباء على زهرة - اللهم ذات أريج - في بستانه وعلى عنقود، جميل اللون والشكل، من عليق علمه. رحمه الله⁽¹⁾.

فهل أدناني هذا من روح اللغة؟ لا أنكر أنه استمالني وشوقني وعلمني فوق ذلك السلام عند اللقاء. على أنّي، والحق يقال، ما رأيت في كتب النحو والبيان غير أطلال وبعض أشعة من روحها. وفي القاموس اقتفيت أثرها ولم أظفر بها. وفي دواوين الشعر ورسائل المترسلين وقفت مرات، عند هياكل لها فارغة، وقد تبقي عليها، من الطيب ومنتثر الأزاهر الذابلة وذائب الشموع، ما يثير حتى في الوثني الشوق والنقوى.

إنّ في كتب اللغة، أدلاء فقط. وهم - وإن تعددت آراؤهم في ((حتى)) وسخافات شتى - يشيرون إجماعاً إلى الحقيقة الكبرى وهي أنّ روح اللغة في تطورها. فطريقة أبي العلاء، مثلاً، في النظم غير طريقة أصحاب ((المعلقات))

¹ - انصح الطالب أن لا يغتر بطريقتي فيسلکہا. إلا إذا كان عظمه صلباً وإرادته أصلب. أو فليدخل

البستان من البوابة عن يد أستاذ مجدد.

قبله وأصحاب ((الموشحات)) بعده. وأسلوب البهاء غير أسلوب سميّه ابن أبي سلمى. والمتنبّي في بعض الاصطلاحات والأوضاع غير ابن زيدون. وكفى بالقارئ أن يعود إلى ما هو معلوم من أطوار الشعر العربي فيبدو له عظيم الفرق بين الجاهليين والمولدين.

إنّ روح اللغة كامنّة أيضاً في حياة أبنائها - أبناء حاضرها وماضيها - وفي تقاليدهم واصطلاحاتهم العامة. والكاتب المتمكن هو من درس هذه التقاليد والاصطلاحات واتخذ منها نمطاً لإنشائه.

فيجيء وفيه من المعاني والمباني ما هو جلي حي وقريب من أفهام أبناء زمانه. ومن الخطأ الظن أن كلّ ما جاء به عرب الجزيرة إنما هو منتهى الفصاحة والبلاغة. وإنّ استعاراتهم كلها جميلة في كل زمان ومكان.

إنني من الخوارج، ولكنني أحترم من الماضي ما كان موافقاً الحاضر ومفيداً له، أو ما كان فيه في الأقل حقيقة ثابتة أو جمال لا يغيره الزمان ولا ينكره المكان، فلا فائدة في أن نضع لسان قحطان في فم الشامي، أو لسان عدنان في فم المصري، فينطقون بحروف اللغة ويعبثون بروحها، بل الفائدة في أن نقتبس من روح اللغة ونتشرب مما لدينا من نفيس آدابها وأوضاعها الجميلة ومما هو حيّ مثمّر من استعمالات أبنائها وتقاليدهم.

إن العربية حافلة بالألفاظ والأوضاع التي تمكن من الإفصاح عن أدق الأفكار وأرق العواطف وأبعد التصورات، ولكنها تقصر عند الغريب الجديد من مظاهر الحياة في هذا الزمان، لذلك هي تحتاج إلى مجمع علمي⁽¹⁾ يدخل إليها بعض الألفاظ العلمية والفنية الحديثة ويجيز بعض الاصطلاحات العامة كما فعل في الماضي العلماء في بغداد وفي قرطبة. وهذه من ضرورات الحياة لكل لغة من لغات الدنيا.

1 - كتبت هذه المقالة قبل أن يتأسس المجمع العلمي في دمشق.

قد كتبت بالإنكليزية أصف جمال الطبيعة في بلادنا كما كتبت في العربية⁽¹⁾ ولا يختلف أسلوب في اللغتين إلا في النظر إلى الموضوع من الوجهة التي نَقُهم وفي بعض الاستعارات الأدبية والآراء الاجتماعية التي تتخلل ما أكتب، فلكل لغة، كما قلت، روح يجتهد الطامع بالكتابة أن يملكها. وفي هذا الفقير إلى رحمة المعري وشكسبير روحان قُضت بهما الولادة والهجرة. فإذا كتبت بالإنكليزية أفكر وأعبر عن فكري على طريقة الإنكليز فلا أقول مثلاً: "خيم الليل على المدينة" وأهل هذه اللغة من غير أهل الخيام⁽²⁾ ولا أكتب باللغة العربية: "هزَّ يده" لأن هز اليد عندنا لا يفيد المصافحة.

إلا أنني أشير إشارة إلى الفرق الأكبر بين لغتنا ولغتهم. وهو أننا ننظر إلى الأشياء غالباً من خلال المحسوس فتتدر الحقائق المجردة في استعاراتنا. كأننا لا نفقه المعاني إلا إذا صورت أماناً فتدركها الحواس قبل أن يدركها العقل. وهم ينظرون إلى الأشياء غالباً من خلال المعقول فتتدر الاستعارات في حقائقهم المجردة⁽³⁾ والنادر دائماً عزيز، لذلك ترانا اليوم نجل الفكر فوق كل إجلال في التأليف فنبالغ أحياناً في التجريد. وهم رغم مدنيته المادية

¹ - ليطالع من يهمه الأمر مقال "وادي الفريكة" والمقاتلين "My Native Horizon"

و "My Country" في كتاب The Path of Vision .

² - يتغلب في لفظة الخيام عندهم معنى التعسكر والحرب. ويتغلب فيها عندنا معنى الإقامة والاستراحة. وهذا جميل في الاستعارة العربية ومفهوماً.

³ - نقول مثلاً حتى في الجرائد اليومية: خطفت يد المنية فلاناً، أو هصرت غصن شبايه، تعكر جو الأمن، ورى زند الضغينة، وهم يقولون: مات فلان، استتب الأمن، ويجردون الضغينة من الزند والنار. في استعاراتنا دليل على "دوراتنا" في أمور الحياة. وفي بساطة تعبيرهم دليل على منهجهم العقلي والعملية.

العملية- يرغبون في شيء من الخيال ويرتاحون بالأخص إلى الاستعارات الشرقية، أو ما استطاعوا فهمه منها برده إلى لوح الوجود العام.

أما الاستعارات المنوطة بمظاهر الأخلاق في الأمة وبعاداتها وتقاليدها فلا يفهمها غالباً غير أبنائها، ولا تروق سواهم. والترجمة الحرفية من لغة إلى أخرى مستهجنة. هذا المتنبي، مثلاً- وله بين الشعراء عندنا المقام الأول- فلو ترجمنا بعض غلوه في مدح سيف الدولة لضحكوا من ترهاتنا.

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربتهم نواح فيها الثواكل
فما كان أدناها له لو أرادها وأطفها لو أنه المتناول

بيد أن من غلوه ما هو جميل ومؤثر لأنه مبني على حقيقة في الحياة يخبرها كل من تعددت أحزانهم فلا يبالون بالجديد منها.

ولا أظن أن شكسبير أو ملتن أو هوميروس أبدع في وصف هذه الحال من حالات النفس إبداع المتنبي إذ قال:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤداي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

- 6 -

قلت إنني أتعشق هذه اللغة، ولي فيها الآن بعض الأمانى. قد ذكرت القاموس، ونهت إلى الألفاظ الفنية، وأشرت إلى أبي العلاء. فمن أمانى: أن يعاد تأسيس مجمع علمي لينظر في ما تحتاج إليه اللغة من الألفاظ الجديدة العلمية والفنية فيجيزها بعد تعريبها وينشرها.

- أن يطبع المجمع العلمي أو إحدى شركات النشر قاموساً عصرياً مجرداً من الألفاظ الوحشية والمترادفات البدوية والأمثال التي لا تنطبق على حياتنا اليوم والألفاظ البذيئة. لا أريد إسقاط ما قد يتبادر إلى الذهن من المفردات

الجنسية. بل أريد - وكل من لجأ إلى القاموس من الكتاب يعلم ما أريد... هل تخلو صفحة منها؟ وكم من مادة لا تبدأ إلا بها؟ أو ما حان لنا أن نعفي تلك "الناقة" وتلك "الجارية" المسكين من الخدمة في القاموس؟ عار علينا - وآداب لغتنا تعد من آداب العالم الخالدة - أن تظل قواميسنا حافلة بالوحشيات والبذاعات. ها إننا بدأنا تعليم البنات، والمدارس المختصة بهن تزداد يوماً فيوماً. فهل بين قواميس اللغة ما يليق أن يستعملنه في دروسهن؟ أو لا يحيط الكاتب علماً باللغة إلا إذا حفظ جميع الأمثال المضروبة بالناقة والجارية؟ إن أمنيتي الثانية أن أرى، قبل أن أموت، قاموساً عربياً عصرياً نظيفاً.

وثالث أمني أن تنتشر منتخبات من لزوميات المعري، ففرائده الشعرية ودرر فلسفته العقلية تضيق في الكثير مما تكلفه من الترهات اللغوية ومما تنحصر أهميته في أحوال زمانه. فلو اخترنا من منظومه الضخم ألف بيت، مثلاً، ونشرناه في كتاب جميل لمكنّا الكثيرين من العلم برائع شعره وبليغ حكمته وسامي فلسفته. ولا يظن أنني أريد مجرد ما تدعى منها بالكفريات بل أريد مثل هذه الأبيات:

- | | |
|--------------------------------|----------------------------|
| - فلتفعل النفس الجميل لأنه | خير وأحسن لا لأجل ثوابها |
| - والغيث أهئوه الذي | يهمي وليس له رعود |
| - أرى اللب مرآة اللبيب فمن يكن | مرائيه الإخوان يصدق ويكذب |
| - فشاور العقل واترك غيره هدرأ | فالعقل خير مشير ضمه النادي |

ومثلها كثير من الحقائق والحكم التي لم ينطق بها نوابغ الإفرنج ولا ألفها الأوربيون إلا بعد ألف سنة من زمن كانت معرة النعمان فيه كعبة الأدب والشعر والعلم وكان أبو العلاء سيدها ((الضرير)) البصير!

إضاءة على النص

يرى الريحاني أنّ اللغة جسم لا يتجدّد إلاّ بالغذاء الجديد، وروح لا يعلو أدبّ عليه، ولا يدوم أدب دونه. ويرى أيضاً أنّ التجديد في اللغة يكمن في الخروج على العقيم والسمج من مألوفها مع المحافظة على روحها، وأنّ المجدّدين الحقيقيين هم الذين يصلون الحقيقة ويعملون من أجلها، ويراعون الذوق ويعملون على إبرازه، وهم المجدّدون في طريقة التفكير وطريقة الإنشاء معاً.

وآمن الريحاني أيضاً أنّه لا يمكن تجدّد روح اللغة إلاّ بتجدّد أبنائها، وأنّ أمر التجديد منوط بالشاعر والأديب، وما اللغوي إلاّ التابع الذي يهذب اللغة. كما هاجم الريحاني الصنعة والتقليد والغريب والكذب في الأدب، ودعا إلى الصدق والبساطة وتوثيق الصلة بالحياة. ويلاحظ في هذا النص أنّ الريحاني متجدّد، لا ينكر القديم كلّ، ومجتهد لا يرفض التقليد جميعه، فهو قديم متجدّد، ومجتهد مقلّد، يعتقد أنّ العالم قديم وأنّ النفس مقلدة للطبيعة.

كما أنّه كاتب رقيق العبارة، رقيق الديباجة، ومن مزايا لغته: أنّها لغة بسيطة ومرنة وشفافة، وله أسلوب رقيق جذاب يظهر فيه عنصر السخرية وجمال الوصف والتصوير.

ويشير الريحاني في مقاله إلى أنّه أتقن اللغة الإنكليزية، وكان لها أثر كبير في تفكيره وأسلوب كتابته، فطعم بها بوعي أو من دون وعي تفكيره باللغة العربية، وأسلوب تقننه فيها، والملاحظ أنّ كثيراً من مزايا أمين الريحاني الأسلوبية، اكتسبها من هذه الثقافة عدة فنية أضافها إلى أسلوب كتاباته العربية، فالوضوح القائم على الاهتمام بالمعاني والأفكار في تركيب العبارة وعدم ترهلها صفات وسمت أسلوبه بحكم ثقافته السابقة.

ولا يعني هذا أن الريحاني لم يقف على فحوى الأسلوب العربي ودلالاته، فقد فرّق بينه وبين أسلوب الإنكليزية، فرأى أن لكل منهما روحاً على الطامع بالكتابة أن يجتهد في أن يملكها، فلا يقول بالإنكليزية (خيّم الليل على المدينة مثلاً)، ولا يقول بالعربية (هزّ يده) لأنّ هزّ اليد لا يفيد المصافحة. وحقاً فإنّ الموروث الثقافي الذي امتلكه الريحاني أعان مداركه على النفاذ إلى فهم الأساليب العربية وتقويمها في نفسه، لاتخاذ موقف محدد منها. وهكذا فقد قدّم الريحاني بين يدي النهضة الأدبية أسلوباً بكاراً، جعل منه صاحب مدرسة استمدت معطياتها من وحي مقتضيات العصر، فجاءت تسدّ فراغاً في محيط الأدب اللفظي المرصوف على غير مضمون، وجاءت ثورة على الكلام المنمّق والأحاجي والتوريات التي جعلت الإنشاد العربي عند الكثيرين ضرباً من التسلية على غير طائل.

مساعدة إعرابية:

عندما أزمعت هجر ما ألفته من ضروب البلاغة والبيان أقمت والقاموس سنة عدتها من أيام أهل الجنة.

عندما: عند: مفعول فيه ظرف مكان منصوب وما مصدرية.
أزمعت: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك، والتاء ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع فاعل، والمصدر المؤول في محل جر مضاف إليه.

هجر: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف.
ما ألفته: ما اسم موصول بمعنى الذي مبني على السكون في محل جر مضاف إليه.

ألفته: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك، والتاء ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع فاعل، والهاء ضمير متصل مبني على الضم في محل نصب مفعول به.

من ضروب: جار ومجرور متعلقان بـ (ألفته).

البلاغة: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة.

والبيان: الواو عطف، البيان معطوف على البلاغة.

أقمت: مثل (أزمعت).

والقاموس: الواو واو المعية، القاموس مفعول معه منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

سنة: مفعول فيه ظرف زمان منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة متعلق بـ (أقمت).

عددتها: عددت: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك، والتاء ضمير متصل مبني على الضم في محل رفع فاعل، والها ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب مفعول به.

من أيام: جار ومجرور متعلقان بـ (عددتها).

أهل: مضاف إليه مجرور وهو مضاف.

الجنة: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة.

جملة (ألفته) صلة الموصول لا محل لها من الإعراب.

جملة (أقمت) استئنافية لا محل لها من الإعراب.

جملة (عددتها) في محل نصب صفة لسنة.

مرّ في مقالة الريحاني العبارات التالية:

- إني ممّن يتعشّقون هذه اللغة الشريفة. - وأنت تطالع ما ينشرون.

- وهم يرغبون في شيء من الخيال.

وإذا أمعنت النظر في (يتعشّقون) و(ينشرون) و(يرغبون) وجدت أفعالاً مضارعة مرفوعة لتجرّدها عن الناصب والجازم، وعلامة الرفع فيها ثبوت النون لأنّها من الأفعال الخمسة.

والأفعال الخمسة هي كل فعل مضارع اتصلت به ألف الاثنين (يفعلان- تفعلان) أو واو الجماعة (يفعلون- تفعلون) أو ياء المؤنثة المخاطبة (تفعلن) وعلامة الرفع فيها كما رأيت ثبوت النون. قال الشاعر:

هل تسألين النجم عن داري وأين أحبابي وسَماري

أما علامة النصب والجزم فيها فحذف النون، قال تعالى:

(فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة).

جُزِمَ (تفعلوا) الأول بـ لم، ونصب (تفعلوا) الثاني بـ لن.

القصة

شهد فن القصة تطوراً ملحوظاً في القرن العشرين متأثراً بالأدب الغربي، وأصبحت هناك تيارات ومدارس بين الكتاب العرب في هذا المجال. والقصة أقل من الرواية في أحداثها وشخصياتها، وهي تتميز بالوحدة الزمنية، فالامتداد في الزمن يفقدها وحدتها ويجعلها أقرب إلى الرواية. وهي عادةً تمثل حدثاً واحداً وتحمل غرضاً واحداً. ويذهب كثير من النقاد إلى أن القصة القصيرة هي خير تعبير عن العصر، فهي الحالة الفنية لإعادة صياغة الواقع صياغة مكثفة ومركزة. ومن روادها الكبار محمود تيمور وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني ومارون عبود وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران وعبد السلام العجيلي وعلي خلقي وحنا مينه وغادة السمان وألفة الإدلبي وكوليت خوري. والقصة التي سنتناولها بالدراسة، هي قصة (على الأكياس)، وهي قصة قصيرة مكتوبة بأسلوب الذكريات ضمن مجموعة (الأبنوسة البيضاء) لحنا مينه. وقبل دراستها لابد من التعريف بكاتب القصة (حنا مينه). وُلِدَ حنا مينه في مدينة اللاذقية الساحلية سنة 1924م، وقد هاجر صغيراً مع عائلته إلى مدينة السويدية (لواء اسكندرونة الآن)، حصل على الشهادة الابتدائية، وعاش حياة صعبة في الفقر والتنقل طلباً للرزق، وعمل في مهن شتى، واكتسب تجارب غنية.

ارتبط منذ بداياته بالحركة الشعبية النضالية في سبيل التحرر الوطني والديموقراطية والتقدم الاجتماعي، وإلى جانب إنتاجه الإبداعي الأساسي (الرواية)، كتب المقالة والقصة القصيرة والدراسة الأدبية، وفصولاً عن تجربته الروائية.

وُترجم العديد من رواياته إلى كثير من اللغات العالمية كالإنكليزية والفرنسية والروسية والإسبانية والألمانية والفارسية.

وأعيد طبع رواياته وكتبه عدة مرات، ورواياته هي من الروايات الأكثر انتشاراً في البلاد العربية، وأشهرها: (المصابيح الزرق) و(الشراع والعاصفة) و(الثلج يأتي من النافذة) و(الشمس في يوم غائم) و(الياطر) و(بقايا صور) و(المستنقع) و(المرصد) و(الربيع والخريف) و(مأساة ديمتريو).

ومن كتبه (أدب الحرب) و(ناظم حكمت: السجن - المرأة - الحياة) و(ناظم حكمت ناثراً) و(هواجس في التجربة الروائية) و(كيف حملت القلم) و(حوارات وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية).

على الأكياس

إلى الصغير العزيز (و.ع)، الذي سألتني:

"كيف، ومتى، بدأت الكتابة؟" (ح ...)

لم يعد والدي ذلك المساء أيضاً، كان قد ذهب لبيع المشبك⁽¹⁾ في قرى اسكندرونة. ورأيت في الصباح، يحمل الطبق النحاسي المليء بأقراص أفغانية صهباء من الحلوى. فيركزه على رأسه، فوق الكعكة القماشية، ويرفع ((السيبة)) المتصالبة التي تُفتح وتُطوى، فيعلقها بكتفه، ويضع السلة الفارغة في مشجب زنده، ويمضي مشياً بدعاء الأم الخائفة أبداً من شيء مجهول، وبدعائنا، أخواتي الأكبر وأنا الصغير، في أن يعود وقد باع حلواه، وحمل إلينا الخبز والطعام..

وجلست والدتي في الضحى، ترقع ثيابنا وتغني غناء حزيناً وتبكي. رأيتها من النافذة، فدخلت. كانت قد فتحت الصندوق لإخراج بعض الألبسة. واغتنمت فرصة غيابي فأخرجت فستاناً صغيراً لطفلة بنت سنتين، هي أختي الصغرى التي ماتت منذ وقت قريب. وجعلت تشمه وتبوسه. كانت تتاجيها وكأنها لا تزال في الفستان الذي رأيتها فيه قبل أن تموت. وسمعتها تقول لها: "يا حبيبتي. لماذا رحلت بسرعة؟ لماذا زعلت من أمك؟ ألا تشتاقي إليها؟ ألا ترجعين؟ ولن أراك. بعد. أبداً؟ وهذا الفستان. وهذه اللعبة (وكانت قد خاطتها لها من قماش) كل ما بقي منك، إذن؟)).

انسللت. فقبعت وراءها. بكيت أنا أيضاً. كنت مثلها. بحاجة إلى ذلك. فسمعت شهقاتي والتفتت إليّ مذعورة. حاولت مسح دموعها. وابتسمت بتشنج

¹ - الزلاية المبرومة.

للتمويه علي: ((يا صغيري!-قالت- ياولدي! لماذا رجعت بسرعة؟ اذهب والعب مع رفاقك؟)) وغمرتني وقبّلتنني. حضنت رأسي بصدرها. طمرته في عنقها فشمت، آنذاك. عطر الأمومة من العنق الحار بفعل التوتر والدمع، وأحسست قطرات على صفحة خدي. وبدأ تداعب خصلات الشعر الخرنوبي الذي يكلل رأسي. ثم رفعت وجهي إليها. ونظرت في عيني.. كانتا حمراوين.. لم أكن قادراً على ضبط نفسي ولا أريد، والدمع ينثال على خدي.. فقالت وهي تخرج نصف قرش من جيبها: ((اذهب واشتر كعكة..لا تبك. الرجال لا يكون)). سألتها: ((والنساء؟)) فقالت: ((والنساء أيضاً!.. وصمت غير مقتنع. فقالت: ((النساء.. أحياناً!)).

عند الظهر جلبت لنا ((الفريفة))، وهي نخالة البرغل مع البصل، وأرسلت شقيقتي فاستعارت قليلاً من الزيت من الجيران. وسلقت بيضة ووضعتها أمامي.. كنا خمسة حول طبق القش: والدتي وشقيقتي الثلاث وأنا، أما الشقيقة الرابعة فقد غادرتنا. لم أكن أعرفها.. ومن الهمس الذي يدور عرفت أن حادثاً وقع لها. كانت خادمة في أحد البيوت ثم فرّت مع رجل وتزوجته، أحست أنها خالفت إرادة الأسرة فنفوها وتجنبوا، في البيت، ذكرها.. وكنت، قبل ذلك، قد رأيت عربية حنطور تذهب وتجيء على الطريق العام، قرب حارتنا، وتوقفت العربية ونزلت منها سيدة سألت الأولاد عن شيء.. فأشاروا إليّ، وركضت وحضنتني، وقبّلتنني. ودسّت في جيبني نقوداً، وأسرعت إلى العربية فغابت، وهرعت إلى البيت فقصصت ما جرى على والدتي، وللحال انطلقت نحو الطريق.. وانتظرت حيث أشرت لها، انتظرت طويلاً، لكن العربية لم تظهر، فعادت كسيفة.. وأحسب أنها بكّت سرّاً في تلك الليلة، وأخذت النقود فاشتريت بها شموعاً وبخوراً.. وعجبت من فعلتها، فأوضحت لي: ((هذه نقود ليست

لك!!)) فاحتجبت: ((لكنني لم أسرقها!!)) فقالت: ((هذه صدقة)) ولا أريدك أن تقبل صدقة من أحد)). وأوصتني ألا أخبر والدي حتى لا يؤنبني، ولا أقول ذلك لأحد أيضاً)).

وهكذا وعيت على شقيقتي الثلاث فقط. وقد رأيتهن ونحن حول طبق القش، ينظرن إلى البيضة أمامي برغبة وحسرة. كن قد تعلمن معاملتي كأخ ذي وضع ممتاز. وكان في وسعي أن أكل البيضة دون حرج. ولكن شقيقتي الصغرى، وقد ماتت بعد ذلك بسنوات، لم تستطع الامتناع عن لمس البيضة المقشرة بإصبعها، وعندئذ تدخلت أمي وقسمت لها جزءاً صغيراً منها.

في المساء تسمرت عيوننا على الدرب. ولم تطق الأم صبراً فخرجت من حيناً المستنقي إلى الطريق العام.. لم تعد إلا بعد هبوط الظلام.. كنت راكعاً على الخوان أرقب عودتها مع الوالد من النافذة. فلما رأيتها بمفردها جزعت، وانكملت وتكورت حيث أنا، فدخلت البيت وأضاءت فانوس الغاز الواهن. وأغلقت الباب وجلست على الحصير وشقيقتي حولها.

كان من عادة الوالد أن يسعل أو يتنحج إذا عاد. يعرف أننا في الليالي التي يتأخر فيها، أذان تصغي بكل طاقاتها ولهفتها إلى ما ينبئ بعودته سالماً. وسعلته ربما، بشير وتطمين لقلوبنا الواجفة، وإذا نتأكد منها نترأض إلى الباب، وكثيراً ما كنا نفرح بعودته ونأسى لمرآه خائباً، حاملاً طبقه النحاسي وحلواه الكاسدة. وفي هذه الحال كنت أكابد هماً صموتاً.

كان عذابه ينثال في صدري كذوب رصاص. كبكاء والدتي على أختي الضائعة والأخرى الميتة، كدخان فانوسنا الغازي حين تفرقع بلورته وليس لدينا سواها، كنظرات الأخت الصغيرة إلى الأم في الليالي التي ننام فيها بغير طعام.

وقالت والدتي تشجع نفسها: ((سيعود مهما تأخر.. في أيام الصيف يقصد القرى البعيدة، وينتظر حتى يبتعد الجو)). فسألتها شقيقتي الكبرى: ((ولماذا القرى البعيدة؟ ألا يخاف؟)). فقالت الأم: ((لكي ينْفَق المشبك يا بنتي.. القرى القريبة ليس فيها خير.. الفلاحون فقراء مثلاً، والبائعون لا يصلون إلى الجبال.. أبوك وحده يصل إلى هناك.. يعرفونه ويقبلون عليه)). فعادت الشقيقة تسأل: ويعود وحده في الليل؟ وكيف، في العتمة، يعرف الطريق؟ وأنت، في حكاياتك تقولين: الجبال مملأ بالجن والوحوش والمسلحين⁽¹⁾)).

فانتهرتها، عندئذٍ، بضيق: "اسكتي، الغائب لا يقولون⁽²⁾ عليه!". وساد صمت بلغ فيه التوتر أقصاه، خيل إلي، أنني أسمع وقع خطي، فأنصت بجماع حواسي، وضعت أذني على ضلفة النافذة، فأثارت حركتي الانتباه، لكن وقع الخطي كان وهماً، فأمسكنا شفاهنا عن الكلام، ورحلت عيوننا على دروب الجبال، نتقفى الأثر، وتتصوّر الأب الحبيب، في الوديان تارة، وفي المرتفعات تارة أخرى، يتخبط بين الشوك والحجارة ومن حوله الظلام وعواء الذئاب، حاملاً طبقه وسيبته وسلّته وحيداً، تعباً، مغبراً وخائفاً مثلاً.

اقترحت والدتي أن نصلي، معنى هذا أنها يئست من عودته الليلة. كنا نعرف مراسيم هذه الصلاة على اسم الغائب، ونقبل عليها باندفاع، وفي صف واحد وقفت مع شقيقتي أمام أيقونة العذراء، وأما وراءنا، وتلونا: "أبانا الذي في السموات" أولاً، وثالث أمي وشقيقتي الكبرى: "أؤمن بإله واحد" بقدر ما تحفظانها، وسكتنا نحن، ثم رددنا مع الأم الأدعيات: "يا رب احفظ والدنا

1 - المسلح: قاطع الطريق.

2 - التفويل: التشاؤم عند العامة، بعكس معناها اللغوي.

وأرجعه سالماً... يا رب احفظه من كل مكروه، وأبعد عنه الشر، واحمه من أولاد الحرام، ومن كل ما يطير أو يزحف أو يؤذي الناس... يا رب يسر له حتى يبيع حمله...". وكانت الأم، لسبب لا نعرفه، تقترح ترديد دعاء ما، ثلاث مرات فنفعل. وعند فروغنا مسحت على رأسي، وتناولت صورة العذراء وأدنتها من شفتي، فقبلتها من كل روعي، فيما هي تقول: "يا سيدتي العذراء! لا تكشفني رأسي أنا الأمة الفقيرة، ولا تجعلني هذا الصغير يعيش يتيماً، واحفظينا تحت جناحك، وتشفعي لنا عند ابنك الحبيب، آمين". وأدارت الأيقونات على شقيقتي، ثم لثمتها وأعادتها إلى مكانها، وركعت أمامها ففعلنا مثلاً، ونهضت فنزعت غطاءها عن رأسها إيداناً بانتهاء الصلاة، حيث لا يبقى سوى النوم.

لكنها أعلنت أنها ستحمص لنا شيئاً من الحمص الذي تحتفظ به في علبة على رف المطبخ. وقد بعث إعلانها النشاط فينا، فخرجت مع شقيقتي وأحضرت بعض الحطب، وأشعلت النار وهي توصينا ألا ننام، ولأن الحمص كان قاسياً، من النوع العجوز، فقد سكبت عليه بعد تحميصه، قليلاً من الماء في الصاج، وغطته لكي يتخمر، ووزعته علينا ملء حفتها، محتفظة بقسم منه للغد، ولكي لا نستهلك الغاز، مدت الفراش على الأرض، واقتربت أن نجلس فيها ونأكل الحمص بدون ضوء، وهكذا مدت يدها إلى الفانوس فأدنته ونفخت عليه فانطفأ، وتمت دعاء المناسبة: "الضوء انطفأ والعدو اختفى" ولم نعد نسمع في الظلمة إلا قرقرة الحمص تحت الأضراس.. وبعد ذلك تمددنا كلٌّ في موضوعة، وأقرب ما يكون إلى الأم، ونمنا ونحن على رجاء: أن تقع المعجزة ونسمع خطي الوالد أو سعلته قبل أن يدركنا النعاس.

هذه الليلة، وقبل أن أغفو، قررت أن أفعل شيئاً لأجل الأم والعائلة، وفكرت أن أعمل أجيراً في أي مكان، كنت صغيراً، نحيلاً أصفر الوجنتين، ومع أنني أكلت مما سرقه رفقتي أولاد الحي، إلا أنني لم أسرق أبداً، لقد أوصتني أمي ألا أفعل، وقالت إن العذراء تعاقبني إن فعلت، وربما كنت لا أملك الجرأة على فعل كهذا، غير أن أصدقائي الصغار، الفقراء والمشردين، القذرين والملوثين بوحل حينا وأتريته، كانوا يسرقون بعض الأشياء من الميناء والمستودعات، ويبيعونها ويشترون بها الطعام والحلوى والساكر، ويقدمون لي منها فأقبلها حين أكون جائعاً، كنا، جميعاً حفاة في الصيف، بنصف نعل في الشتاء، وكان أصدقائي منهم يحمونني، ويدفعون عني الأذى وعدوان الآخرين، وقد ارتضوا، ولا أدري لماذا، النظر إلي كولد متفوق بينهم، ولعل ذلك يعود إلى نجاحي في المدرسة، ومساعدتي إياهم في الدراسة، وكوني وحيداً وطيباً معهم.

كنت محبوباً من الأخوين فلفاط، كانا شقيين، سارقين، قوبيين وجريئين في المعارك بين أولاد الأحياء، وكان أصغرهما في صفي، ذكياً وكريماً، يعمل الآن جزاراً في بيروت، وهو الذي قاد خلال ذلك الصيف الأولاد إلى العمل على شاطئ البحر، أعلن فجأة أنه لا يريد أن يسرق بل أن يعمل، وقال إنه اتفق مع رئيس عمال في أحد المستودعات على تشغيل من يريد منا، وزعم أن الشغل بسيط أشبه باللعب! فعلى شواطئ بحر اسكندرونة، المرفأ الرئيسي لسورية آنذاك، مستودعات حبوب كثيرة وكبيرة، ولأن البحر بدون ميناء، والبواخر تقف بعيداً، فقد وجدت، ولا أحد يدري من أوجدها، جسور خشبية (صقالات) ممتدة في البحر، ترتبط بالمستودعات بخطوط حديدية، وعلى هذه الخطوط عربات حديدية صغيرة مسطحة، توضع عليها أكياس الحبوب

والبضائع، ودورنا أن ندفع هذه العربات بأعمالها من المستودعات إلى الصقالات وبالعكس.

كان العمال هم الذين يضطلعون بهذه المهمة، وها هو رجل يقبل بتشغيل الأحداث مكانهم، وذهب الصغار للعمل، وبعد ساعات هاجمهم بعض الرجال وضربوهم، فهربوا وتفرقوا، وعندئذ تجلت موهبة الشقاوة والعناد لدى صديقي، وصارت مفخرة حيناً وسبباً لزعامتة، فقد أقنعا بعض الأحداث بمحاجرة العربات وعرقلة سيرها، والحصى كثيرة على الشاطئ، وهكذا انفتحت معركة قادها بجدارة وشهادة دم على صدر أحدهما من جرح في الرأس، وقد حسم رئيس العمال الموقف بتصديه للرجال الذين ضربوا عماله الصغار، نشب صراع رهيب، فوق الرمال المحرقة، سقط إثرها رجل، فحمله "اليازلي" - وهذا اسم رئيس العمال - على كتفه إلى المستودع وألقاه مثل كيس من العدس في الزاوية، وبعد نقاش تعهد بتشغيلهم في مستودعاته فقبلوا، وسمحوا للأحداث بالشغل.

هذه القصص كان يرويها لي الذين يعملون، فاقترحت أن أذهب معهم، وقبلوا على شرط أن توافق والدتي، وهذه عارضة، خوفاً على صحتي العلية، فخابت رغبتني، وبقيت عاطلاً، متحسراً، مستوحشاً حتى عودتهم في المساء، حين يلتئم الشمل، ويقصون علي ما جرى لهم في نهارهم.

أفقت باكراً.. ومنذ فتحت عيني بحثت عن الوالد فاكتشفت أن لم يعد تلك الليلة، دخلت المطبخ، وأفرغت في جيبتي بعض الحمص، وقلت لوالدتي أنا ذاهب لأعمل، وركضت هارياً كي لا أسمع توسلاتها ولا أرى دموعها..

أدركت الصديقين في البيت، فأنبأتهما بعزمي، قلت لهما إن والدي لم يعد، وليس عندنا طعام، ورجوتهما أن يساعداني.. فقال أصغرهما، بنفس أريحته

وقد رته على الحسم: "امض معنا ولا تخف، لن أدعك تتعب. ضع يدك فقط على حديد العربة ولا تدفع.. سأكون معك"، وبخلافه كان أخوه الأكبر يشك بقبولي في العمل، بسبب صغري وهزالي، فتعهد الآخر بالسعي لدى "اليازرلي" أو بإرغامه على قبولي. كان يثق بنفسه ثقة مطلقة، وأغلب الظن أنه ازداد ثقة بعد المحاجرة، ويعتبرني من "جماعته"، التي جعل من نفسه رئيساً لها ومسؤولاً عنها. وربما في مجال الرياسة، يريد أن يكون نداً لليازرلي، حتى ولو فتح معركة محاجرة جديدة.

بلغنا المستودعات مع طلوع الشمس، العمل آنذاك، كان يبدأ مع طلوع الشمس وينتهي بغروبها، كنت خائفاً من الرفض، وفي سري، طوال الطريق، ابتهلت إلى العذراء، وكلما اقتربنا من المستودعات ازداد ارتباكى وتوجسى، فلما رأيت "اليازرلي" دق قلبي، وعمق شحوبي.

استقبلنا هذا بدفعة من الشنائم على الحساب، تهدد الذين لا يعملون أكثر بالطرد، والمشاعبين بالإلقاء في البحر، ورد على عامل تدخل في الحديث "أنت يا ابن الجرو، ابلع لسانك وإلا قطعته.. لا أحد يتدخل!"، سكنت الجميع... وصاح هو: "هيا إلى العمل... ماذا تنتظرون؟" فانصرف كل أربعة أولاد إلى عربة، والرجال سحبوا الشراشير⁽¹⁾ واتجهوا إلى أكداس الأكياس الخيشية المرتفعة حتى السقف.

كان المستودع، ويسمونه العنبر، واسعاً جداً، له باب حديدي سميك ينزاح، حين يفتح أو يغلق، على شريط حديدي في الأرض، وكانت أعماق العنبر ذات خلوات ومنعطفات، وفي جدرانها الخلفية، العرضانية نوافذ حديدية ثخين

¹ - الشرشور حديدة معقوفة ذات مقبض خشبي يغرزها الحمالون في الأكياس لرفعها.

صدىء، عشعش عليها العنكبوت، وعلقت بنسيجه كل أنواع الهوام والغبار والقش، فانسدت أو كادت، فهي لا تفتح ولا تغلق، ولعلها كذلك منذ أنشئت، والنور يرشح منها شحيحاً، والشمس لا تدخل إلا قليلاً، والمغاور الكهفية للعنبر تبدو معتمة، لأن أكداس الأكياس قد سدت أغلب النوافذ، ومن الأرض والجدران تفوح رائحة عفونة ملحية خانقة، وبتن جردان ميتة، وشيء كالصنان، في الزوايا. و"ليازرلي"، حاكم هذه المملكة المغارية والمسيطر على كل العاملين فيها، يقف مبعداً ما بين رجليه، وآلية شرواله الأسود المغبر، مكورة بين ساقيه إلى وراء، وفي خاصرته "شرشور" رغم أنه لا يحمل الأكياس كباقي الرجال.

فرغ من إصدار الأوامر والتفت إلى صديقي وإليّ، وجهه النحاسي الغامق السمرة، وطربوشه الخمري على وجهه العريض الجبهة، وعيناه الأقرب إلى الجحوظ، وشفتاه السميكتان، بلون العنب الخلاسي، وقامتة الطويلة العريضة، أخافتني للوهلة الأولى، أطرقت أمامه أنتظر الحكم، وتكلم صديقي قائلاً: "جاء ليشغل معنا!". وللفور سمعت صوته الأجش المتهمك: "لم يبق إلا هذا الدوري!". وفي اللحظة التالية، كانت يده تمسك بتيابي من عند النقرة، وترفعني في الفضاء، لم أصرخ لأن الرعب عقد لساني. توقعت أن يضرب بي الأرض، لكنه تركني معلقاً في يده، وسار باتجاه الباب فألقاني، كقط ميت، خارجاً على الرمل. ومن مكانه، صاح بصديقي: "اركض أنت إلى الشغل!".

انتهى، بالنسبة إليّ، كل شيء، سمعت والدتي، ذات مساء، تصلي وتعاتب يسوعها: "لماذا إذن، يا سيدي، تعاقبنا نحن الخطاة؟ لماذا تخليت عنا؟". وها هو يتخلى عني، برغم كل تضرعاتي، وتحت وطأة الألم والقهر والانسحاق،

عاتبته أحاسيسي الطفولية بكلمات أقسى، وثارت أحقادِي، دفعة واحدة، على السماء والكون وجسمي الناحل وضعفي ودموع أُمي وصلواتها. تولّد في ذاتي دبيب غضب جامح على الدنيا، وبرزت في خيالي، كبقعة الزيت السريعة الانتشار، أكوام الحصى، وتمثّلت لي فعلة صديقي التي سمعت بها كأحسن الأفعال وأكثرها نفعاً. وشدّدت قبضتي على وهم حصاة كبيرة أقذف بها وجه اليازلي فأدميه.

جاءني صوت صديقي جريئاً أكثر مما توقعت: "لن أشتغل إذا لم يشتغل هو أيضاً" فصاح به مزمجرأ: "إلى جهنم يا ابن.....!" وهجم عليه. لكن صديقي هرب على الرمال، واستدار إليه وشتمه بنفس طريقته. تصورت أنه سيلحق به إلى آخر الدنيا، ويدوسه برجليه أو يمزقه بأسنانه، وبدون وعي وجدت نفسي أولي هارباً، وأقف وراءه على مبعدة كافية. وعلى باب العنبر كان "اليازلي" يقف ويداه في خصره: "إذا طالتك يدي، أو دست هذه المنطقة، فسنتحاسب يا ابن...." فصاح صديقي، بلا مبالاة: "وإذا أبقيت من يشتغل عندك من الأولاد أكون ابن ... يا!".

أنا لا أذكر كل الشتائم التي تبادلناها بعد ذلك، كنت من هذه الجهة، واثقاً من تفوق صديقي، فقد حدّثني أنه تمرن عليها يوماً كاملاً. أجلس أخاه في "فاكون" معطل في محطة القطار، وجلس في أخرى، وشرعا في مباراة سباب داعر حتى المساء. وفيما بعد، حين كنا نمر بامرأتين تترادحان، أو عراك بين أشخاص، كان يتوقف ويصغي باهتمام، فإذا مضينا قال لي: "سباب لا يستحق الذكر، من العيار الخفيف...!". أو سار دون توقف، مشمئزاً، لأنها "خناقة أوادم" أو "الفحش قليل، كأن المتعاركات من بنات الراهبات!". وأشهد أنه، هو، لم يكن يقذف في كلامه، كان يستعمل يده لا لسانه، إنما له هواية في حضور خناقات

النساء، فإذا أقذعت إحداهن، وجاءت بجديد أو طريف، ناصرها فوراً، فسألتها عن السبب، وأدهشني جوابه: "من يشتم يكن ضعيفاً!" قلت: "وهذه الشتائم التي تجمعها؟" فقال: "أنا من الهواة وقد تفيدني يوماً!".

وهاهو اليوم الذي تفيد فيه الشتائم! ولقد حسدته، وأطلقت بدوري بعض الشتائم الصغيرة في سري، غير أن "اليازلي" غيّر موقفه فجأة، إذ رأى أن الأولاد قد أوقفوا العربات وتجمهروا حولنا، وترك العمال الشغل وتحلقوا حوله، ربما أدرك أن المعركة خاسرة، أو استشعر خطأ لهيبته في عراكه مع هذا الصبي، وقد يكون صديقي أعجبه، بكل بساطة، فغفا عنه، كما غفا صديقي عن ولد شتمه شتيمة لم يسبقه إليها أحد، والمهم أن الرجل صاح به: "تعال إلى العنبر وسنتفاهم"، فاشتراط عليه: "امسك شواربك فآتي"، وضحك العمال وصفقوا، فانتهرهم وهو يرتجف، لكنه أمسك طرف شاربه وقال: "يا ابن الكلب تعال قبل أن يفور غضبي من جديد"، وذهب صديقي إليه، فأمسكه من أذنيه، وهتف أحد العمال: "تذكر أنك وضعت يدك على شاربك!" وقال اليازلي: "أغفو عنه إذا قبّل يدي" ثم تساهل: "إذا سحب شتائم!"، وسحب الصديق شتائمه، وتمت المصالحة أخيراً بفتوى عامل مسن: "فاجرة الخصام ليست فاجرة!"، ومضى صديقي إلى العربة وأنا وراءه... وبوضع يدي على الحديد دخلت دنيا العمل وودعت الدراسة... كان ذلك آخر العهد بالمدرسة، وأنا في الثانية عشرة من العمر.

خالطني مسّ من الفرح، كبر صديقي في عيني، وبدون اقتراح أو طلب، رفعه الأولاد إلى مرتبة الزعامة، ولكي أكون موضع ثقته، وأظهر عرفاني لجميله، شرعت بدفع العربة بقوة، كان البحر الأزرق الجميل، سهلاً سماوياً

لا حد له أماننا، وعلى الرمال السميكية التي تغرق أقدامنا الصغيرة فيها، يمتد الخط الحديدي، مستقيماً من العنبر إلى الصقالة، والموج رغاء أبيض حيي، ينداح على العجينة الرملية للساحل الجنوبي، والشمس تتوهج في سماء كرسنالية اللمعان، وتجفف، بسرعة، نداوة الأشياء.

وعلى مدرج الصقالة، في خط صاعد قليلاً عن مستوى الرمل، كان دفع العربة المحملة يتطلب ضغطاً أقوى، وقال صديقي: "انتبه، هذا يسبب الفتاق". أما في طريق العودة إلى العنبر، والعربة فارغة، فكان الأولاد يدفعون بقوة، ويقفزون إلى العربة التي تجتاز قسماً من الرمال بفعل الاندفاع عن المنحدر. وقد راقبت لي هذه اللعبة جداً، فمنعني من الاسترسال فيها، لأن العربة تخرج عن الخط بفعل تخلخله على الرمال، وتقلب على من فيها، فتسبب لهم الرضوض والكسور، سألته: "لماذا يركبونها إذن؟" قال: "ستعلم بعد قليل!". كان أكبر مني بسنتين، وها هو، دفعة، أكبر مني بأعوام، هنا ليست المدرسة، هناك كنت أنا عريف الصف، والتلاميذ الكبار يتوددون إليّ، وعليّ الآن أن أدفع من نفس العملة، أن أتعلم، وأضع في حسابي أن قوة الجسد لا قوة الذاكرة هي المطلوبة.... ولشد ما نقت على ضعف بنيتي، وحينما صرعتني صبي أصغر مني في نزال فرض عليّ، انطويت على حسرة عميقة، لاستنتاجي أنه تغلب بسبب تغذيته الجيدة، وتعزيت بذلك وأسفت... ولم أقل لأحد. كنت أحسب في ذلك الوقت الفقر عيباً، ولكم جهدت عيباً لإخفاء هذا الفقر.

هذا الشعور بالضعف الناتج عن سوء التغذية، والنقمة عليه، عاوداني بعد ساعات من بدء العمل، لم آخذ بنصيحة صديقي، أنفت من الغش، ودفعت بكل طاقتي، وكانت ضئيلة، غير متمرس، فراحت تتضاءل مع كل نقلة.

شرعت ألّهت، وكتمت لهائي ما استطعت، وتجنبت عين "اليازلي" كيلا أفصح نفسي وأخزي صديقي، وفي الدقائق القليلة، بين تحميل العربة الحديدية أو إفراغها، مضغت حبات من الحمص، وهي زادي الوحيد، في محاولة لاستعادة قواي، ومع ذلك بوّت بفشل فاضح.

هل لاحظ صديقي ذلك؟ هل اكتشف عذابي ورأى نظرة الخوف من فضيحة ضعفي أمام اليازلي والصبية وأمامه هو نفسه؟ جائز... ولكي يخفف عني، اقترح أن أركب العربة وهي تعود إلى العنبر فارغة. رفضت، بل أصررت على الرفض مدفوعاً بالخجل الذي اعتراني، اقترح أن نركب معاً، وندفع بالعربة على المنحدر كما يفعل الآخرون، وفعلنا، لكن العربة كانت تقطع ربع المسافة على هذه الحال، ثم تقف، فننزل منها وندفعها، وتغوص أقدامنا بالرمال التي غدت حارة أكثر فأكثر مع تقدم النهار التمزوي، ثم استحالت إلى رماد حارق قرب الظهر.

من عاش في فرن المحنة قادر على فهم المعاناة. على جمر الرمال، وتحت لهب الشمس، وأمامنا عربة تحمل طناً أو أكثر، وحديدها حارق، والجو محتبس، لزج، والحلق جاف. كنا نسير وندفع العربة، وإذ تخور قواي، حتى درجة السقوط، يشرع دماغي بإصدار نداءات التوسل: "خطوة أخرى... أخرى أيضاً.. اقتلع القدم اليمنى من الرمل... اقتلع اليسرى... مرة ثانية اليمنى... ومرة ثالثة اليسرى".

حسناً! جرجرت قدمي، متشبثاً بكل إرادة الصمود، ومتعللاً بأمل الراحة في الظهر، أغمضت عيني حتى أوقف الدوار، وسمحت لنفسي بالغش قليلاً، خففت دفعي، صرت لا أدفع إلا مع صعود العربة مرتقى الصقالة، وحاولت ألا أطأ الرمال، فوجدت العوارض الحديدية أشد حرارة. خطر لي أن أتوقف

في منتصف الطريق. كان رأسي يطن، ومعدتي تفور بالغثيان الذي يسبق القيء، ونظراتي كليلة، غائمة، والرمال تتماوج بهيئة سرابية، شعرت بالاختناق، كالواقف على رأس جبل هواؤه خال من الأوكسجين، وتراءت لي الجلسة عند قدم جدار ظليل، أمنية فوق الأمنيات... ويا بيتنا المترب، والعتبة المدحولة، المرشوشة بالماء في القیظ، لو أعود إليكما، وأتمدد مستنشقا رائحة الأرض والرطوبة! يا أمي الطيبة، لو كنت قريبك، والرأس على الصدر، إذن لبكيت حتى ملأت خابية المؤونة الفارغة، فأنت يا أمي تفهمين بكائي، ولا أخجل به أمامك. وأنت يا سماء! آه ما أبعد السماء! ويسوع هناك، والعذراء، وأختي الصغيرة، وأنا محمول على السحب، أذهب إليها... الآن أرغب في الذهاب إليها. أحسنت في الذهاب هي، وربما تحت شجرة تلعب، ولو رأنتني مقبلاً ولو رأيتها جالسة، على كرسي صغير، ولعبتها الصغيرة في حضنها، كعهدي بها بيننا!.

وقطعنا المسافة إلى البحر، وعدنا إلى العنبر، فامتألت العربة وبدأ الدفع... أنا لا أدفع، منذ بعض الوقت لا أدفع... أضع يدي على الأكياس وأتجرجر.... وأعض على شفتي وأنا أتجرجر، وأقبض، خلسة على طرف الكيس، وأتعلق به... لم يعد البحر، ولا البيت، ولا وجه الأم، ولا السماء، ولا أختي الصغيرة في السماء، مبعث اهتمام أو رغبة. لم يعد الوالد، ولا الأخوات في وعاء ذكرياتي. انقطع كل شيء. انفصلت عن الوجود والزمن. تعطل معمل التصور والإحساس بما هو خارج الذات، أنا والرمال، ولا شيء آخر. تتراخي يدي الممسكة بالكيس فأتهاوى على الرمال، وأظل راقداً عليها.

قمت بخطوة، خطوة أخرى، ثلاثة... وغام الوجود... بدت السماء تدور بسرعة مرعبة، خيل إلي أنها قبة زرقاء تدور على محور غير منظور،

واشتد دورانها فتصاغر، انتهت إلى ما يشبه الصحن، ثم فوهة الطاسة، ثم الزر، وغدت، أخيراً، نقطة ضوء، وانطفأت ... وساد ظلام كامل.

حين فتحت عيني، كان صديقي أمامي، ووراءه اليازلي. لم أكرث لوجود هذا الأخير. سيان عندي. ليتركني فقط حيث أنا.. وقرص صديقي وربت على خدي. ناداني باسمي فلم أجب، وبعودتي إلى الوعي كانت بصلة مفقوشة على أنفي، وكف اليازلي تسند رأسي والماء يبيل ثيابي. أحسست بالراحة رغم الإعياء. ففي الظل أجلس، داخل العنبر أتنفس، ورغبة في النوم تداعب أجفاني. ورفعني "اليازلي" من تحت إبطي، وأجلسني على كيس فارغ وجاء "بكاوزة" وأدناه من فمي، ولما تلاقت عيوننا لم أصدق أنه هو... كان إنساناً آخر، لا يقتل الأطفال كما تصورته، والكف التي رفعتني في البدء لتلقيني خارجاً، تسند رأسي، وفي العينين الجاحظتين الصفراوين قليلاً عند المحجرين، اشفاق ومودة، ولونه الخلاسي، لم يعد غريباً ولا مخيفاً.

وغادرني صديقي عائداً إلى العمل. كان فيما يظهر، على وفاق مع اليازلي. وعلمت في القيلولة، أن هذا لم يشمت بي ولا به، لم يقل كلمة حول معركة الصباح، وحين سقطت على الرمال المحرقة، ورعف الدم من أنفي، تراكض الأولاد وصاحوا: مات! فهرع من في العنبر، يتقدمهم اليازلي، ولمني عن الرمل، واحتضنني بين ذراعيه القويتين، وجاء إلى العنبر والأولاد والرجال وراءه. توقف العمل وهو في عزه، وفي حالات كهذه؛ ولأي سبب، كان اليازلي يخور كثور، يسحب شرشوره وينجرد وفي وجهه الشر، فإذا عف عن الضرب، فش خلقه في الأرض، انهال عليها بشرشوره حتى يفتح فيها حفرة، وإذ ذاك يسود الصمت، وتعود حركة العمل إلى سابق عهدها.

وضعني اليازلي في العنبر، ودلق عليّ جرة ماء كاملة. فرك شريان اليدين، بين السبابة والإبهام، وقرب من أنفي بصلة فقشها بكفه الغليظة، وبمنديله مسح الدم، فأعادني، بإسعافاته، إلى الوعي. تمّ كل ذلك بسرعة، وبمثلها صاح بالمتحلقين: كل واحد إلى شغله! فتفرقوا، وبقي صديقي بعدهم قليلاً صامتاً وربما خجلاً متوقفاً في كل لحظة أن يعنفه، أن يسخر منه ومن "الدوري" الذي أصرّ على تشغيله، بيد أنه لم يفعل، وفي النهاية أمر صديقي بالعودة إلى عمله فأطاع، وبقيت حيث وضعني على الكيس الفارغ، منسحقاً من التعب والخجل تحت رحمة أنظار الصبية والعمال.

لا أدري كم بقيت، ثمة استعدت كامل وعيي تدريجياً، إنما لم أستعد إرادتي فيما يجب أن أعمل، وددت لو تركت على ما أنا عليه، بل لم أفكر فيما أنا عليه، ولا بشيء. كتلة لحمية صغيرة مهملة يتردد فيها نفس، وعينان سوداوان تحت شعر خرنوبي طويل، وعنق ناحل فوقه رأس مكور، مدبب عند القذال، يلتوي على الكتف، في جلسة استرخاء، ولا مبالاة ولا قدرة على الحركة. وعبر باب العنبر كانت نظراتي تطوف في الأبعاد متنتلة بونى الناقه من مرض، فيها سدور، وتحسس مفرط حزين لكل ما تقع عليه، تساقطت على الرمل، انغمست في البحر، رحلت إلى الحارة، تابعت الأم والأخوات في البيت، والوالد الغائب في طوافه المعذب في القرى، حاملاً حلواه التي جففتها الشمس وملأها الغبار وحطّ عليها الذباب، ثم ارتدّت النظرات من رحلتها على انكسار: ضاعت آمال العمل، وصارت العودة الآن إلى البيت مخزية، باعثة على المزيد من الخيبة واليأس في نفوس من فيه.

العجيب أنني لم أفكر بقتل نفسي، ولا بالموت الذي يذهب بي إلى جوار أختي الصغيرة في السماء، ولا بالعودة إلى الحارة والبكاء على صدر الأم،

لقد بلوت أحاسيس الأسى الرقيق، كغيوم الخريف، التي كثيراً ما انتابتنا عند عودة الوالد من تطوافه خائباً، كان هو نفسه يعود حزيناً، منكسراً كمن ارتكب ذنباً، وفي هذه الحالات كان الصمت يخيم، ويحترم كل منا شجون الآخر، وكنت أهرب، إن كان الوقت مساءً، وأمشي وحيداً، متجنباً اللدات ولعبهم، مفكراً، على نحو موجه، في الوضع الذي تركت عليه أهلي في البيت، وأنام دون أن أسأل عن شيء.

وهذا الصباح تحدثت طبيعة الأشياء الكثيرة والمألوفة في أسرتنا الصابرة، وخرجت لأعمل، أحييت، ربما، أملاً... بعثت في أخواتي المنتظرات شعوراً بحلول ذلك اليوم الذي أعمل فيه وأساعد الوالد واضعاً الحصة في خابية الماء كما في حكايات الوالدة، وها أنا في معاناة مذلة، أضيف بهزيمتي خيطاً جديداً إلى "الحبل" الذي فتله لنا الدهر كما يقول والدي.

قررت ألا أعود إلى البيت، وحتى لو عدت إلى الحارة فسأنتظر الظلام، وأنسل إلى المنشية وأنام عند جذع شجرة، الأفضل أن أرحل، باحثاً عن عمل ولقمة، وحين أحصل عليهما، ويمتلئ جيبي بالنقود، أرجع مدفوعاً بلهفة شوق لا تحد إلى أمي، وأفرغ ما معي، حتى آخر جزء في حضنها، وأقدم لشقيقتي الكعك والخميرة⁽¹⁾. لأنھض إذن وأمشي، أنسرق دون أن يدري أحد، وأبتعد عن هذا المكان، لا يهم إلى أين، ولا إلى متى... ربما إلى هناك، حيث تتصل السماء بالأرض، ترى ما بعد ذلك الاتصال؟ تنتهي الدنيا؟ المعلمة في المدرسة، قالت: لا، الأرض كروية، وإلى النقطة التي نطلق منها نعود، اغتممت، خيل إليّ أن بوسعي أن أقطع المسافة في يوم، وأفرغ من الدنيا،

¹ - سكاكر هشة رخيصة للقرويين.

وأنا أرغب في رحيل بعيد، لا أعود فيه إلى نقطة الانطلاق... أن أمشي، أمشي، وأخترق حاجب الاتصال، عند الأفق البعيد، وأرى ما وراءه، ذلك هو المبتغى. وربما، كما في الحكايات، أخذتني جنية، وجعلتني ابنها، وفتحت لي الكنوز، وربما وصلت بلدة أهلها ينتظرون، ليصنعوا من القادم الغريب أميراً... وقد أصادف تلك السيدة التي كانت في العربة ونزلت فقبلتني وأعطتني نقوداً... وحتى لو لم أصادفها، ولم أجد طعاماً، ولا بيتاً، فالسير هكذا، إلى حيث لا أعلم، كان عزائي ومخرجي من الورطة.

ترحزحت عن الكيس باتجاه الباب، لا أحد ينظر إليّ ولا من يهتم بأمرى، انتظرت حتى ابتعد اليازلي إلى أعماق العنبر، وتحركت للخروج، وإذ ذاك وقع حادث عطل مشروعى في القيام برحلتى الخيالية حول الأرض.

الأكياس الخيشية التي تنقل من العنبر إلى البحر تدمغ بماركات من الأحرف اللاتينية الكبيرة، وهذه الأحرف مكتوبة ومفرغة على صفائح من التلك، ويبقى أن يضع العامل صفيحة منها، يختارها اليازلي، وفق ورقة رسمت عليها الماركات في المكتب، ثم يمرغها بالحبر فيرسم الحرف أو الحروف على الكيس، ولحسن حظي، ولسوء حظ العامل أيضاً، فقدت إحدى الصفائح وتوقف الشغل، فتنش اليازلي كل الصفائح، كل الزوايا، ولم يجدها، احتاج، شتم، أوقف التحميل، والصفحة المطلوبة ضائعة، كان يمسك بالورقة ويضرب عليها: "هذه هي الماركة... الباخرة لا تقبل البضاعة بدونها!" واقتربت منه، محاذراً، ونظرت، فإذا الأحرف واضحة، وبينها حرف (O)، فقلت وصوتي لا يكاد يسمع: "أنا أكتبها!".

التفت إليّ برأسه فقط، ومن جديد رأيت في عينيه الشراسة والازدراء، لكنه سرعان ما استدار وسألني: "تكتب وتقرأ؟" قلت خائفاً: "نعم! فصاح بحكم

العادة: "أسألك تكتب وتقرأ بالفرنجي، لا بالعربي؟" قلت: "بالفرنجي أيضاً!" ولكي أثبت ذلك، أخذت الفرشاة ورسمت على الأرض الأحرف المطلوبة. وعندما رفعت رأسي، تلقيت أول رد اعتبار في دهشة الأعين من حولي، وللحال سرى نسغ الحياة في دمي، وحملت سطل الحبر والفرشاة برعدة امتزج فيها الارتباك بالفرح بالقوة، بكل المشاعر المتباينة أمام تحول عنيف ومفاجئ.

كان عليّ أن أعمل بسرعة، لتسيير العربات الواقفة بحملها، وكان اليازلي يراقبني حتى لا أخطئ وهو يقارن بين الأحرف في الورقة والأحرف على الأكياس، وقد اجتزت هذه المرة، أول امتحان عملي في حياتي بنجاح، وبين ملاحظات العمال، وتعليقات الأولاد، وكلها لصالح، كان "الدوري" يرقى أكداً الأكياس بخفة السنجاب، تاركاً وراءه الأحرف الأولى على غير دقات المدرسة.. كان يكتب، الآن، بالحبر، وعلى الأكياس، وأمام رجال لم يعرفوا طريق المدرسة، ولا أمسكوا قلماً إلا للبري، وعلى مرأى من صبية، نشؤوا في الأزقة وفغروا أفواههم وهم يتابعون يدي تنقش الحروف بالحبر الأسود اللامع.

وأقبلت عربة صديقي أخيراً، كنت قد صرت على رأس الكدس، قرب السقف، ومن موضعه على الأرض، هتف بي: "أنت! ماذا تصنع هناك؟" قلت بزهو: "أكتب، كما ترى!" وقال اليازلي: "دوريك، ابن مدرسة إذن؟!... لماذا لم تخبرني من الصباح!"، فابتسم صديقي وعاد يرنو إليّ، كان في صفّي، وقادراً أن يكتب مثلي، ولو بإتقان وخفة أقل، غير أنه رفض المباهاة، ولم يشأ أن يقلل من أهمية ما أعمل، اعتبر ذلك نصراً له، ربما، وربما كان قلبه الطفلي لا يعرف الحسد، وغادرني راضياً، سعيداً دون أن يلاحظ وأسفاً، أنني كنت أمارس شعوراً غامراً، زائداً عن الحد، بالتفوق على الأتراب، وأنني، في هذا

الزهو الخادع، أستعيد ثقتي بنفسي، وأنتقم من فشلي وضعتي حيال ما لحقني من عار.

ومن أعماق الميناء جاء صفير باخرة الشحن، الحمّالون والبحارة يعرفون شارات الصفير ويترجمونها، بل يعرفون الباخرة التي أطلقتها، وراح اليازلي يستحثنا قائلاً: "الباخرة تطلب البضاعة"! وألقى، بحركة حمّال قديم ومعتد سترته، وتناول الشرشور وشكه في كيس رفعه على ظهره وألقاه على العربة وانثنى على الذي يليه، وهو يصرخ: "أين همّكم يا شباب؟"، كان كيسه يأتي، عرضانياً، في موضعه من جسر العربة، فلا يحتاج إلى تسويته أو همزه بالشرشور، وهذه، بعد القدرة على رفع الأكياس الكبيرة، من زنة المئة كيلو فما فوق، علامة المهارة، وقال حمّال اشتهر برفع "البالات" من زنة المئتي كيلو والصعود بها على اللوح الخشبي:

- لا تتمرّج يا يازلي... نحن نعمل بأكثر من طاقتنا، عندك رجال.
- الرجال في العنابر الأخرى.. أنتم عجائز... ولا أقول نساء!
- لو كنت ابن الوالد لأنصفت!
- توقف اليازلي وحدّجه بنظرة ثم بصق:
- صدقت... أنا ابن...، لأنني أشغلّ معي ابن... مثلك؟
- فتدخل حمّال، من الطرف الآخر:
- إذا كنا لا نعجبك اصرفنا... ألف من يستجير.
- طبعاً... لأن الدنيا صيف... وفي الشتاء تتغير اللهجة، تقبلون النعل...

- تقبيل النعل - قال حمّال أعور - ليس من شيمنا... أنت تعرف رجالك لولا هم كنت شحاذاً...

فصرخ به اليازلي:

- اخرس وإلا فقأت عينك السليمة، يا أعور الدجال.

سحب الأعور شرشوره وانحدر على الأكياس:

- إذا لم تكن امرأة تفعل...

- وأكون امرأة إن لم أفعل...

ارتبكت، لشدة اضطرابي، فدلقت بعضاً من الحبر على الكيس، لم أصدق أن في الدنيا أناساً، يتشاتمون ويتضاربون بمثل هذه السهولة، ولغير ما سبب، كنت أجهل ما تتطوي عليه الكلمات من تعريض، وما في الصدور من رغبة مجردة للعراك. وفي دهش ورعب تابعت حركة الشراشير التي أشرعت كالأسنة، ولاحظت أن اليازلي جحظت عيناه أكثر، والأعور تزججت عينه السليمة فهي لا تطرف. ومن على الأكياس انحدر الرجال، واحتضنوا المتخاصمين وأبعدوهما، ورضي اليازلي بالمداخلة فصرخ: كفى! عودوا إلى الشغل وفي المساء نتحاسب...

وقفز الحمّال، رافع البالات، وتربع على الأرض، صائحاً وهو يخطب لبادته فتثير سحابة من غبار:

- أما أنا فلن أرجع ... سأسكر هذه الليلة!

- أنت حر - قال اليازلي - بعد الشغل افعل ما تشاء...

- ستعطيني إذن على الحساب...

- فشرت...

- تدينني حتى أقبض..

- فشرت أيضاً..
- وريك- أقسم- لن أنهض حتى أعرف مصيري... أنا ضيفك هذه الليلة يا يازرلي.
- هذا حباً وكرامة.. تعال مساءً إلى الخمار... واشرب حتى تنطفئ..
- لا شغل لي في الخمارات.
- وتعالت أصوات:
- يريد "تعيينه" (1) ناشفاً...
- نعم.. أريده ناشفاً..
- هذا يتوقف على الشغل...
- كلمة شرف يا يازرلي!
- هذه كلمة اليازرلي.. هيا... عوضوني ما فات... شيلوني... (2) ألا تسمعون صفير البابور؟
- نهض الذي كان يتربع تاركاً لبادته على الأرض. زگرد ودار على نفسه كالبهلوان، وأزاح اليازرلي من طريقه وباعد بين رجليه وتناول الكيس... وعلى الفور علت القهقهات...
- وفيما أنا أعمل راقبته لأعرف سبب الضحك، فإذا هو يعرّ ككلب ينهش الأكياس، فإذا بلغها رفع الكيس بين ذراعيه، مسنداً جانبه إلى صدره، وسار به فألقاه في العربة، فصاح به اليازرلي مشجعاً:

1 - الحصة من المؤونة أو الطعام.

2 - شيلني، من شال، أي ارتفع، والمعنى ارفعوني في زحمة الشغل..

- أحسنت... آه يا حطّاط للحايم عشا⁽¹⁾ .

احتج أحدهم:

- ونحن لا نقصر!

- وأنتم لا تقصرون. (اعترف لهم).

- وأنت تتشدد معنا عند الانصراف.

- لأنكم طماعون... انظروا...

التفت فرأيت حملاً أشيب، له صوت حاد وضحكة مثل قوقأة الدجاجة يعود

من الخارج، لم أفهم شيئاً، وعاد الحمّالون إلى الضحك، وقال الأعور:

- قضاها!!

- نعم... قضيت حاجة...مثل الناس.

فصرخ اليازلي:

- شيبة ضالة... أين خبأت الحنطة؟

وحلف الأشيب، فتركه اليازلي ومضى إلى الخارج، وبعد لحظة عاد وبيده

كوفية مزمومة على نصف تنكة من القمح، فكّها وأفرغ ما فيها على الكومة

المتجمعة من الأكياس التي تتمزق عند تحميل العربات.

عند الظهر كنت قد تأصلت في "وظيفتي". وبقيادة صديقي ذهبنا إلى البحر

وغطسنا. وأطعمته بعضاً من الحمص فقبله. وكذلك أكلت من زوادته، وعدت

مرحاً إلى عملي. لقد أحببت العنبر ورجاله وشتائمهم ومعاركهم والروائح النتنة.

وفيما أنا أرسم الحروف شرعت أتصور طريق العودة إلى البيت، والكلمات التي

¹ - يقصد به الزير سالم، الذي أمسك السبع وأدخله الاسطبل وربطه موضع حماره الذي أكله.

سأقصها على الوالدة والأخوات... كدر واحد نغص فرحتي: أن أرجع فلا أجد
الوالد في البيت.

في المساء، بعد العمل، أصر اليازلي على تفتيش الرجال، كانوا قد ألقوا
ستراتهم على أكتافهم استعداداً للخروج، فقال اليازلي:

- الشوب يحرق ذنب العصفور وأنتم في الجاكيتات... على "فرنكا"⁽¹⁾!
اقتربوا مني.

كانت السترات ذات جيوب كبيرة، خامية، تحت البطانات، وظهر كما حزر
اليازلي، أنها مملأى بالقمح والعدس وصنوف الحبوب، وكانت للسراويل جيوبها
أيضاً، فأمرهم:

- افرغوا ما معكم على الأرض..

فصاح الأشيب:

- شفت؟ عدت إلى التشدد... ليس معي إلا حفنة حنطة... "سليقة"⁽²⁾
للصغار، من الكناسة⁽³⁾!!

- الحفنة، والحفنتان، والثلاث، أتركها.. أما الأكثر يعود... إذا نقص
الوزن انخرب بيتي، أفرغوا جيوبكم.

وظفقوا يقلّبون جيوبهم.. ثم اقتربوا فتحراهم واحداً واحداً، ولاحظت أنه يتحرى
بعضهم بصورة شكلية، ويتسامح بالكميات الصغيرة، ولما جاء دور

1 - على فرنكا، أي على الفرنجي، والمقصود الزي الرسمي!

2 - ما يسلق من القمح في الأعياد، أو لتحويله إلى برغل.

3 - ما يتناثر من حب على أرض العنبر، ويكنس!

الأشيب انفجر الضحك، كان يمشي كمن به فتاق... ففي إلية شرواله رطل من القمح، وما إن مدّ "اليازلي" يده إليها حتى صاح الأشيب:

- آه يا فتاقي! قتلتي يا ابن الكلب!

وركض باتجاه الباب وخرج، والحمّالون وراءه، وضحكت لأول مرة، ضحكاً من القلب في ذلك اليوم، حتى إذا هممت بالمسير، استوقفني اليازلي:

- لا تذهب أنت .. لي معك شغل انتظر قليلاً.

قالها وصرف الأولاد، بمن فيهم صديقي، وغاب هو في أعماق العنبر، يتفقد الأبواب والبضائع، وأنا أعجب لسهره وأمانته وقسوته وطيبته في آن، فلما فرغ من ذلك، أخذني إلى مشارف النور، عند حافة الباب، وأخرج دفترًا صغيراً من عبه وأمرني:

- اكتب ما أقول لك: نفدة لجواد بتاريخه ... وتحتها 5 كيلو عدس. نفدة بتاريخه للأقرع ... وتحتها 10 كيلو حنطة .. نفدة...

فلما كتبت له ما طلب، أعاد الدفتر إلى عبه وأعطاني ثلاثة قروش مع هذه الملاحظة:

- هذا خارج الحساب... لا تقل شيئاً لأحد... فهمت؟ وعبس وصرفني. كانت يداي ملطختين بالحبر، وخشية ألا يكون ظاهراً عليهما، لطختهما أكثر قبل الانصراف. ودخلت الحارة وأنا مرسل الذراعين على الجانبين، مفتوح الراحتين، ليراهما الناس، وفي البيت كانت البشرية: عاد الوالد! وعانقتي الوالدة وبكت فرحاً، وبعد أن قصصت عليها كل شيء، ما عدا حكاية النفدات". أعطيتها القروش الثلاث، فركعت أمام أيقونة العذراء، ونذرت لها نذراً، وخرجت فطافت بيوت الجيران قائلة:

- سمعتم؟ ابني توظف.. كاتب، والعقبى لأولادكم.

جرى في نهاية الأسبوع الأول، دفع الحساب للرجال والأولاد من قبل
موظف أرسله التاجر صاحب العنبر واستمهلني اليازلي، كعادته كل
مساء، وأمرني بعد إيضاح الأسعار لكل صنف:

- قرّش لي النفقات.. كل اسم على حدة!

فعلت، فهزّ رأسه وشتم، قال:

- جمعاً يكون!

جمعت له النفقات وأثمانها، فعاد يهزّ رأسه ويشتم:

- كانوا يسرقونني، أولاد الكلب، أنا الذي لا أكتب ولا أقرأ... والآن بدأ
الشغل المضبوط، صار عندي كاتب والحمد لله، تعال غداً إلى المقهى سأكون
بانتظارك.

ذهبت، فنحنني بعض النقود مكافأة... وفي الأيام التالية، سألني بعد تسجيل
النفقات الجديدة:

- لماذا لا تلبس سترة مثل الآخرين؟ البس سترة، وقل لأمك أن تكبر
جيوبها... ستأتي أيام الشتاء، وقليل من "السليقة" ضروري.

ولتهوين الأمر عليّ، ودفعاً لسوء الظن به، أشار إلى كومة من القمح عند
الزاوية:

- الذي يقطف العسل يلحس أصابعه... نحن هنا لا نلحس أصابعنا...
أنا لا أسمح بذلك... أما هذه فكناسة... لا بد من تكنيس الأرض... من خيرها
... لا فضل لأحد.

لم أبه لكلامه. تارة يتمزق كيس، وطوراً يمزقونه عمداً، ونفداته لا أراها... أسجلها ولا أراها... لكنني أشك أن تكون من الكناسة... الأرجح من "العسل"، ولم تخطر لي خطيئة لحس الأصابع التي تقطف العسل، ولو خطرت وقلتها للآخرين لضحكوا عليّ، وربما ضربوني...

على أنني عثرت، وأنا أنقب في العنبر، على صناديق فيها كراريس من طباعة محمد البابلي الحلبي وأولاده في مصر، أو في حلب، كان الاسم موجوداً عليها، وكان أحدها مخلوع الغطاء، فأخرجت كراساً عليه رسوم وقرأت أول قصة من "ألف ليلة وليلة" ثم رحلت، كلما سنحت لي الفرصة، أحوم حول الصناديق لـ "ألحس أصابعي" أنا أيضاً... ورآني اليازلي فأقبل نحوي وهو يبتسم:

- خذ منها ما تشاء... هذه "الكناسة" للفيران... لا يهتم بها أحد. وتأكدت، طوال عملي معه، أن أحداً لا يهتم بهذه "الكناسة" سوى كاتب النفدات، وجرذان العنبر.

بعد ذلك، وبصورة مفاجئة دخل اليازلي السجن، حزنت لأجله جداً، وأسف الحمالون وتحديثوا عنه، كانوا حياله، فريقين، ولم أفهم ما وقع تماماً إلا من صديقي:

- اليازلي هجم على جارتة وهي عارية كما خلقها الله. على أن سجن اليازلي لم يطل، خرج بكفالة التاجر، واستأنف عمله في العنبر، واستأنفت أنا تسجيل "النفدات". عادت صيحاته ومشاجراته مع العمال وفيها، أحياناً، بعض التلميحات التي كانت تستثيره فينقلب مجنوناً لشدة الغضب.

لقد وجدت فيه "إنساناً لا يخاف" وأحبيته من أجل ذلك ويوم الأحد ذهبت إليه في البيت، فرأيت عنده "حمّال البالات" كان الحمّال جالساً أمامه يصغي ويضرب رأسه طرباً، واليازلي يغني متوعداً الذين شهدوا عليه، والذين نقّولوا بحقه زوراً، كان يضع كفيه على أذنيه، وينحني على صاحبه ويصرخ:

والسبع لما وقع النذل قال له: العمى
واللي يشهد الزور يبلّاه بكاسات العمى

ثم حدثت الهجرة من اللواء وافترقنا... عشرون عاماً لم أره، لم أسمع به... وذات أصيل، فيما أنا مع بعض الأصدقاء، في أحد شوارع دمشق، أبصرته عند بوابة إحدى المدارس، كان الهرم والفقر باديين عليه، وأمامه "طبلية" يبيع عليها السكاكر للأولاد، فاقتربت منه وحييته، وعرفته بنفسي فسلم عليّ، وقال له أحد أصدقائي، وكان يعلم بالقصة:

- هنا اليوم معروف: كاتب!

فابتسم على شيء من أسي وذكرى، وأطرق وقال:

- نعم... أعرفه... بدأ الكتابة عندي! على الأكياس!!.

1971

إضاءة على النص

بطل القصة هو الكاتب نفسه الذي يروي بصيغة المتكلم ذكرياته عن طفولته، وتحديدًا عن بداية انخراطه في عالم العمل وتركه المدرسة.

والقصة تبدأ في مساء من الأمسيات المتشابهة، حينما لم يرجع الأب بائع (المشبك) من قرى اسكندرون إلى بيته وإلى عائلته الفقيرة الجائعة التي انتظرتة طويلاً، كما كانت تفعل دائماً. وقد قامت الأم بنفخ روح الأمل في أفراد العائلة الشقيقات الثلاث والصبي الصغير - لأنها كانت ترجو عودة الأب مهما تأخر - إلا أن الصبي التلميذ الناجح في مدرسته لم يعد يطبق هذا الانتظار لعودة الأب. فقرر فعل شيء لأجل أمه وأخواته وذهب بصحبة بعض أصدقائه من أولاد الحارة الذين كانوا يعملون عند رئيس المستودع (اليازلي) على البحر.

وهناك تعرّف الصبي إلى اليازلي الذي سمع عنه أشياء كثيرة ومثيرة، ولم يكن اللقاء سهلاً إلا أن صديقه الشاطر يتشاجر مع اليازلي ويهدده بالتوقف عن العمل إذا لم يوافق على تشغيل ذلك الصبي. وهنا يصف الراوي (الصبي) جو العمل ومعاناته الأولى وهو يدفع العربة على جمر الرمال وعمره اثنتا عشرة سنة بعد أن ودّع المدرسة من دون رجعة.

ويقع حادث يتيح للصبي فرصة عمل أخرى هي الكتابة بالفرشاة والحبر على أكياس الخيش لرسم (ماركة البضاعة) بالحروف اللاتينية.

ويشهد الصبي مشادة عنيفة بين اليازلي وعماله من الحمالين، غير أن بقية الرجال في العنبر يسارعون لاحتضان المتخاصمين وإبعادهم. وتنتهي المشاجرة الخطرة بالمصالحة والضحكات. وبعد ذلك يروي لنا الكاتب أحداث تجربته بعد أن دخل عالم العمل الصعب والمثير.

بعد ذلك دخل اليازلي فجأة السجن بعد أن هجم على جارتة، ولكنه عاد بعد فترة بكفالة تاجر واستأنف عمله في العنبر، كما تابع الصبي تسجيل الحسابات والعمل عنده في العنبر.

وقد حدثت الهجرة وافترق الجميع، وبعد عشرين عاماً، وبعد أن تقدّم العمر بالراوي، عاد والتقى باليازلي في أحد شوارع دمشق وهو يبيع السكاكر عند بوابة إحدى المدارس، وعرفه بنفسه، وحينما أخبره صديق بصحبته بأن صبي الأمس أصبح كاتباً معروفاً، ابتسم الرجل المتعب على شيء من أسى وذكرى وأطرق قائلاً: بدأ الكتابة عندي على الأكياس!!

والجدير بالذكر أنّ هذه القصة أصبحت فيلماً سينمائياً من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سورية عام 1974م بعنوان (اليازلي).

ويلاحظ أنّ حنا مينه يعبر عما يريد بلغة بسيطة ويومية، خاصة في حوار الشخصيات، ولغته مطواعة إلى حد كبير لكل موقف من المواقف.

ومن سمات لغته أيضاً البعد عن التقعر في اللغة، فهو يدير الحوار باللغة الفصحى المبسطة. ولا إشكالية لدى مينه باستخدام ثنائية اللغة العربية، من حيث استخدام العربية الفصحى والعربية العامية.

إنّ أسلوب مينه يتميز بشكل عام بالبساطة والبعد عن التكلف، وهو يستخدم السرد المشوّق الذي يستحوذ على القارئ ويحمله على متابعة القراءة بشغف، إضافة إلى اعتماده على الوصف الدقيق، حيث يذكر الكثير من التفاصيل، فيغني الصور والمشاهد بالحياة والحركة.

الرواية

أصبحت الرواية في العصر الحديث الوسيلة الأولى التي عبّر بها الكتّاب عما يعتلج في صدورهم من أحلام وآمال، وما يدور في خواطرهم من أفكار، ومما ساعد على نهوضها اتصال الأدباء بالآداب الغربية، ونشاط حركة الترجمة والتعريب.

ومن الذين أسهموا في هذا الجانب، فقاموا بترجمة القصص إلى اللغة العربية طه حسين وإبراهيم عبد القادر المازني وعثمان جلال.

وقد ظهرت ترجمات متعدّدة لبعض الروائيين الإنكليز وأشهرهم شكسبير وكذلك تم نقل عدد كبير من الروايات الفرنسية لكتّاب كبار، أمثال لامارتين وموليير ودوماس. وتم نقل بعض روائع الأدب الألماني، كما نشطت الترجمة من الأدب الروسي.

وتطورت القصة العربية تطوراً سريعاً، وحاولت اللحاق بالآداب العالمية، فظهر اللون المحلي المستمد من البيئة الاجتماعية المحيطة بالكتّاب، كما هو الحال في كتابات محمد حسين هيكل ومحمود تيمور في مصر، وتوفيق عوّاد وكرم ملحم في لبنان، ومحمود السيد وذو النون أيوب في العراق. كما ظهرت الرواية العربية المستوحاة من أحداث التاريخ العربي، ومن روادها جرجي زيدان وسليم البستاني.

ومن أشهر كتّاب الرواية في مصر، توفيق الحكيم الذي عالج في قصصه قضايا سياسية واجتماعية وإنسانية على أساس رمزي وواقعي ومحمود تيمور وطه حسين، وأكثرهم شهرة ونجاحاً نجيب محفوظ ومن أشهر رواياته (أولاد حارتنا) و(اللص والكلاب) و(السراب) و(القاهرة الجديدة) و(بين القصرين). وقد حاز جائزة نوبل في الآداب لتنوع نتاجه الروائي وتميزه.

كما أسهم أدباء المهجر في دفع فن القصة إلى الأمام في بدايات القرن العشرين، وأشهرهم: جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني. أما في سورية، فبعد حنا مينه الأكثر شهرة ومكانة، إذ إن رواياته تتميز بتنوعها الشديد واتساع آفاقها وموضوعاتها ورحابتها ودلالاتها، وهو أيضاً من أغزر الروائيين العرب إنتاجاً وأكثرهم تنوعاً وقد صدرت له حتى الآن أكثر من ثلاثين رواية، منها: (المصاييح الزرق) و(الشرع والعاصفة) و(الثلج يأتي من النافذة) و(الشمس في يوم غائم) و(الياطر) و(بقايا صور) و(المستقع) و(مأساة ديمتريو) و(نهاية رجل شجاع).

كما برزت نخبة من الروائيين السوريين، أشهرهم: عبد السلام العجيلي ومطاع صفدي وفاضل السباعي وكوليت خوري وغادة السمان ووليد إخلاصي وهاني الراهب وفارس زرزور وحسيب كيالي وشكيب الجابري، الذي يعدّ ممثلاً لا يضارع للرواية الرومانسية في سورية.

وقد اخترنا رواية (قوس قزح) لدراستها، والاطلاع من خلالها على أسلوب الجابري في كتاباته.

شكيب الجابري:

وُلِدَ في حلب سنة 1912 م وهو يحمل شهادة الدكتوراه في العلوم. أصدر روايته الأولى (نهم) سنة 1937م، وتعدّ برأي النقاد أول رواية فنية في الأدب السوري الحديث، وكان لصدورها صدى بعيد في الصحافة العربية. أما روايته الثانية (قدر يلهو) فصدرت سنة 1939م، ونشر روايته الثالثة (قوس قزح) سنة 1946م كما ظهرت روايته الرابعة (وداعاً يا أفاميا) سنة 1960م. وتوفي الجابري سنة 1996م.

من روايته (قوس قزح):

الأورفيوس (القسم الثالث من الرواية)

إذا انحدر القطار السريع من كتلة الجبال النمساوية الغربية ومَرَّ بأنسبروغ، ثم أطل على السهول الخصبة الفسيحة، فأول ما يسترعي انتباه المسافر قلعة شاهقة قائمة، تبدو في ذروة ربوتها العالية كأنها قصر منيف من هاتيك القصور المعلقة التي تضعها الأساطير في موضع حريز بين الأرض والسماء، لا يبلغه الأنس ولا يرقى إليه الجن، وكلما اقترب القطار من القلعة وضحت خطوطها وبرزت معالمها، فإذا هي سلسلة متعرجة من الرى الصخرية المشجرة، كانت في يوم من أيامها الغابرة، حين كانت حياة الغزو تغطي على كل شيء في القرون الوسطى، معقلاً حصيناً يأوي إليه الإقطاعيون ومواليهم من فلاحي تلك السهول كلما دهتهم داهية من قبل الأعداء. وكلما يرى المسافر من المناظر التي يمر بها طوال رحلته ما يثير في نفسه الروعة كهذه الحصون الشاهقة.

ولكأنَّ الجدران القائمة والمنازل المتراخمة والبوابات العالية ذات الأبواب الغليظة، والطرقات الضيقة المتعرجة والبروج الصماء الشامخة قرية من قرى الجن أو حصن مكين لمارد جبار من أولئك المردة الطغاة الذين كانوا يحتفظون ببنات الملوك ويعيشون معهم في قصورهم المنعزلة المسحورة. وقد كسيت سلسلة الرى من فرعها حتى أخصص قدمها بثوب قشيب من شجر الغابات الأخضر الكثيف. فإن واثاك الحظ وصعدت في تلك الغابات الملتفة السوداء حتى تبلغ القمة، واتخذت مكاناً على مقعد من المقاعد الخشبية المنبثة بين الأشجار أحسست بسكون عميق يطوف بك ويسرق منك كل نازعة من نوازع الحركة ليغرقك في لجة عميقة من غيبوبة التأمل اللذيذة.

وقد انحدرت الحياة من المدينة المعلقة نحو السهول الواطئة برقي الإنسان من حياة النزاع والخسونة إلى حياة الحرية والترف. فبعد أن كانت سالسبورغ بلدة معلقة منيعة أصبحت مدينة ((مفتوحة)) آمنة هادئة، تكاد لا تشعر فيها لشدة ما هيمن عليها من خشوع ذلك المرتفع الأخضر المنعزل. لكن المدينة الهاجعة تستيقظ بغتة في أيام معدودة من أيام القيظ مرة في كل عام، فإذا السواح يملؤون الشوارع الضيقة والكنائس الأثرية. وتغص بهم الفنادق حتى ليبقى كثير منهم حيارى لا يعلمون أين يبيتون.

فقد اشتهرت مدينة ((موزار)) بموسم موسيقي حافل يجتمع على إحيائه نخبة مشاهير العالم من الموسيقيين والمغنين. فإذا أحب هاوٍ من هواة الموسيقى - وما أكثرهم في بلاد الغرب- أن يعبَّ من منهل الفن الصافي أم تلك المدينة قبل بدء موسمها بأيام قليلة، فحجز مكانه في مسرحها الكبير المدعو بـ ((الموزارتيوم)) نسبةً إلى المغني الخالد صاحب ((الناي المسحور)).

وإن كانت مواسم ((بايروت))، مسقط رأس ريشارد فاغنر، مواسم فاغنية بحتة، لا تعزف فيها سوى آثار طاغوت اللحن العنيف وشيطان نيتشه، وملهم النازية الأكبر، فإن سالسبورغ كانت مفتوحة لجميع ألوان الموسيقى الرفيعة، وللنخبة المصطفاة من الحناجر الغريدة والعبقريات الفريدة، لذا فاقت عاصمة الموسيقى النمساوية كعبة الموسيقى الألمانية بمواسمها التي كان يجتمع فيها الناس من كل جنس ولسان.

وقد أحسن من اختار سالسبورغ لمثل تلك الغاية. فقلَّ أن تجد مدينة تضاهيها بمثل ذلك الإلهام الموسيقي الطبيعي الذي ينبعث من رباها الملتفة، وحصونها الباذخة، وسهلها ذاك الأخضر الخصيب الذي أحاط بها كالهلال، وثرّت منابعه من كل جانب، فكان المدينة الصغيرة التي لا تزال تحمل طابع

القرون الوسطى كأروع ما يكون ذلك الطابع مسرح مسحور من المسارح الخيالية التي خلقت لتصدح بين جنبياتها ألحان ((أورفيه)) و((كارمن)) و((الفالكيري)) و((اللونغرين)) و((الناي المسحور)) وأشباهها من الأوبرا الخالدات.

وكان دأب إيلزا منذ غادرت برلين قبل سنوات حضور هذه المواسم عاماً فعاماً، فهي تقتصد من ههنا وههنا، فإذا لم يجتمع لها المال الكافي اقتصدت من طعامها وملبسها، حتى إذا حان الموسم كانت أول من حجز مكانه في المسرح لكنها ما حجزت قط مقعداً واحداً، بل مقعدين معاً.

فإذا خففت الأنوار، وخيم الصمت، وخفتت الأنفاس فلا يُسمع في القاعة حسيس، وتصاعدت من المائة والعشرين آلة نغمات الافتتاحية الأولى، عميقة رخيمة مروعة، تراخت أجفان الفتاة رويداً رويداً، ثم انسدت، حجاباً صفيقاً بين طرفها والعالم الخارجي، وإذا هي في عالم جديد، فيه نضرة وجمال، وخشوع وجلال وسمو أليم، وتتخدر حواسها خدراً ناعماً. ويغيض الدم من وجنتيها، فإذا هما ضامرتان شاحبتان، كوجنتي صنم من شمع. ويدور الزمن في خلدها دوراناً مضطرباً سريعاً، فتارةً في عهد الصبا الأول ترتع في جنة من الزهر والعطر والنور وتارةً تطارد الفراش وتلاحق العصافير وتغزو الأوكار والأعشاش، طفلة فرحة ملء أهدابها المرح وحب الحياة، وطوراً تستبق العمر فإذا هي في شتاء حالك طويل تدب فيه على عصا عقاء. وتتفرج الرؤى عن عهد الصبا والبهوى، حيث عرف من اللذائذ أمتعتها ومن الألم أقساه. وتبرق في دماغها، مع عواصف الموسيقى الثائرة، بروق من الذكريات، وينبثق في ذلك السديم المضطرب، رويداً رويداً، خيال حبيب، لا يزال يدنو ويرنو ويبتسم، حتى يملأ

كل فراغ في ناظريها. فتتوجه إليه جميعاً، وتستقبله بدمعة متواضعة، لا تزال
تتحدر وشزتها في الظلام المهلس حتى تستقر في فجوة الشجر.

إنه علاء، يطل من بعيد، سحابة غائمة، لا تزال تتكاثف وتقترب حتى تتعقد
طيفاً سوياً. ويتهادى الطيف كنغمة من النغمات الشجية التي ترف في ثنايا
السمع وتأبى أن تجوزه. ويرنو قلب المحبة الوالهة ويصيخ كأن فيه عيناً ترى
وأذنأ تسمع. ويعلو صدرها لاقترابه ويهبط. وتمسك أنفاسها، فقد أوشك الحبيب
أن يرى مكانه.. ويتخذ علاء مكانه في المقعد الخالي، وتسترسل الحبيبة في
بحرانها، وتتساب يدها نحو اليد الأثرية العزيزة لتلمسها، برفق، ما كان رفق
النسيم بخد الصبية الغافية إزاءه إلا خشونة وعنفاً.

ولتعصف الألحان بعد ذلك عصفها، ولتتُح نياط القيثارات ما طاب لها
النواح، وليرجع صدر البيان الرخيم شكواه العميقة بما شاء من حنين وشجن،
ولتصدح حناجر الأبواق بما حلا لها من مفرح الصبح وحزينه، فقد تدرع قلب
الفتاة لها، وأمن الخشية إلى حين، وتلك هي المرأة الوحيدة العزلاء، قوية
مصطحبة عن يمينها الحبيب الجميل يشاطرها ألحان العالم العلوي، فتحلو
النشوة، وتسكن الحميأ، ويعذب الألم الطويل.

وقد يقبل على الحبيبين إنساناً ناعم صغير، وينزلق بينهما بميد وخفة،
فيستقبله الأبوان المشوقان بلهفة الزنابق رواها الندى إلى قبلة الشمس الباكرة.
وإذا ما أثارت السنفونيات والترانيم والأغاريد الشجية من حول إيلزا عوالم
بهية كالفراديس، خيل إليها أنها تسير لمرحلة شائقة بين علي وعلاء.. ويا لتلك
الهناءة! ويا لذاك الحبور! فما من شيء يعبر عنهما كلحن بهيج يضعه موزار
وأمثاله من سحرة الموسيقى الخالدين.

وإن صدحت حناجر ريشارد تاوبر أو جوزيف شميت أو لوتا ليتمان بأغاني شوبرت الرقيقة عاد سمعها أدراجها، وتخطى الأزمان والأبعاد، متهادياً بين همس الليل وحفيف الشجر، حتى يطل من بين الغصون السامقة على مقعد التيركارتن القديم، وإذا بالغابة السوداء لا تزال تردد صدى الصوت الحبيب وهو يترنم بأغانيه تلك الغالية.

لكن الأغروادات المرحّة كانت أليمة الوقع في قلبها المسكين فكأن في كل نغمة من نغماتها يداً تمتد إلى فؤادها فتعتصره. ورغم ذلك فقد كان للذعة الذكرى لذة ضوّلت حيالها كل لذة أخرى.

وأحب الأغاني إليها وأشدّها إيلاًماً تلك التي تبدأ بهذا المطلع الشجي: ((في سكون الليل تطير أناشيدي خافتة إليك)). وهي التي آثرها علاء من أغاني شوبيرت، وما زال يرددّها لسانه حتى بلغ مبلغ المغنين المجيدين.

وكانت الموسيقى الوجدانية تدعو إيلزاً إلى الطبيعة، وتكشف لها عن أسرارها، وتحبب إليها مناسكها، وتزيدها صلة بها وبراً. فكأن بيتهوفن، وموزارت وباخ وبرهمس وشوبان وشوبرت ومندلسن كانوا يمرون بها مروراً لطيفاً ويهمسون: ((أجل، الطبيعة.. الطبيعة أمّ الذين لا أم لهم، وملاد الذين ليس لهم ملاد، وحمى المتشردين الذين نبذتهم المدينة، وضاق بهم المجتمع، وقست عليهم الأقدار)). وكانت تزداد بوطنها الجديد تعلقاً إثر تلك الهمسات الملهمة. وترضى به لوحيدها ملاداً وحمى ومرتّعاً خصباً. وأنّى له أن يعيش في غير هذه الأرض، وقد ألفها وألفته، حتى لئن فارقتها فكأنه خلق خلقاً آخر، وإن فقدته فكأنها أضاعت جزءاً عزيزاً من أجزائها الغالية.

أجل .. الطبيعة هي الأم الرؤوم، وستبقى الولد لتلك الأم الرؤوم.

لكن ((فاغندر)) يندفع ذات ليلة بطبولة وزموره ورعوده وبروقه فتهتز أركان ((الموزارتيوم))، وتتساب النغمات الرائعة في كيان المادة حتى أقاصيها فتكاد تميد وتتصدع، ثم تمد بأناملها إلى أفئدة القوم ووجوههم وأبصارهم، فتهتك عنها شفوف الإنسانية الحديثة شفاً شفاً. فإذا بالأفئدة قد قست واستشرت، والوجوه قد تجهمت وارتدت، وإذا بالأبصار قد شردت نظراتها واغبرت، واشربت فيها أخيلة وطيف، هي رؤى الإنسان القديم، الذي عاش في عميق المغاور، وأكل نيء اللحوم، وولغ في دماء الفريسة المضطربة وهي نصف قتيل.

إنها لعاصفة من عواصف الـ ((فالكيرى))، أوبرا فاغندر العنيفة الخالدة، تتطلق فيها الخيل المغيرة صباحاً، فتثير نقعاً، وتوري قدحاً، وتبعث من حولها الألحان وتعربد، فيغيب المرء عن حسه، ويذهل عن نفسه، وإن هي إلا ومضة أو مضتان حتى يرتد خلقاً جديداً.

في تلك الليلة كان محمد علي مع أمه، فقد حق له أن يحل محل أبيه في مقعده الخالي بعد أن قاد الرحلة المبتورة إلى ((تسل أم زيه)) على رأس عصبته الصغيرة، وكان مأخوذاً متحيراً أزاء هذه الألحان التي كانت الجوقة ترحم بها القاعة. وأمه إلى جانبه وفي نفسها أضعاف ما في نفسه من هيجان.

وما أكبر هذا الكائن الصغير عن يسارها الآن وهي تراه من خلال السحب الفاغنرية الواقعة! إنه حلمها الأكبر، إنه كيائها الحقيقي الذي سيحمل خلودها بعد أن تموت من ذرية إلى ذرية.

ما هو؟.. من هو؟.. يا للغرابة! إنه ابنها، أجل ولداها الذي حملته تسعة شهور في حشاها، وغذته بخلاصة ما في دمائها من غذاء، لكنه غريب عنها، وأشد غربة عنها من هذا الألماني الأشقر الجالس عن يسارها.. فلو كمل وعيه وشاعت هذه الموسيقى أن توحى إليه بشيء فبأي وحي تتطق؟ أ توحى إليه بما

توجيه إلى جرمانى من برلين أو همبورغ أو أية قرية من قرى وطنها الألماني الكبير؟

وتغمض عينيها وترى الطيف، طيف والده القريب، وقد مثلت خصائصه المميزة ووضحت معالمه الفارقة التي تجعل منه شرقياً محضاً، ويطيل الطيف العربي النظر وكأنه يقول: ردي لي الأمانة!

يالفاغنى ما أقواه! إنه ليعبث بالفكر، وينقر فيه نقراً عميقاً فتنبجس الخواطر المعتمدة كأنها أضغاث أحلام. وقد ألقى بنور جديد على وجدان هذه الأم القلقة الحنون، فانجابت الحجب عن الحياة أمام عينيها وبرزت حالة بمفهوم جديد، وإذا بالحياة في عرفها الحديث طريقاً وعراً، لكنه سام نبيل، لا يجوز أن يسلكه ويبلغ منه الغاية المثلى إلا الإنسان المجاهد المتفوق: البطل!

وسكون ابنها بطلاً!

بطلاً في قومه، في أولئك العربان الذين أحببت رجلاً منهم فكانوا أحبباء إليها أجمعين.

وليستعرب! فذاك حق هذه الدماء الزكية التي تجري في عروقه، وليركب المراكب الخشنة، وليقطع الفيافي المرمضة. وليغذ السير في هذه التلال الشجراء، والأودية الخضراء، والمراعي المخلضة السعيدة فقد آن لها أن تلحقه بقومه، وتلتحق به إن أمكن، فلعل في صدره رسالة سيؤديها إن فتح أمامه الطريق. وليكون إن تحقق رجاؤها، بطلاً، كما يريد فاغنى أن يكون الرجال.

ويستقر في ذهنها خاطر: لتهبطن بابنها برلين حيث يكثر الطلبة العرب، فتكل إلى أحدهم تعليم الولد لغة أبيه. فتلك أولى الوسائل لتحقيق غرضها. فإن تم لها ما أرادت يمت وجهها شطر الشرق.

عجباً للأمل في صدر إيلزا! إنه لكالجمره الهابية، علاها الرماد وفي جوفها بصيص. فلكان هاتفاً في نفسها يهتف لها من حين إلى حين، إنه لا يزال في يد الدهر فرصة، ولعلها تسنح.

وتلتفت الأم نحو ولدها بجسمها جميعاً، وادةً أن تفعل فعل الطير حين يرفّ على فراخه فيظلها بجناحيه الرقيقين. لكنها تمسك، وتحتضنه بنظرة صافية رؤوم، فيها دفء إبط الحمامة ونعومة خوافيها. وتروعها الخصائل السود المحلقة على رأسه، والبسمة الوضيئة المطمئنة على ثغره، فينوء صدرها بما فيه من حنو ورضى وزهو. وترى في حلق هذا الشعر الوحشي الجميل صوراً ناطقة لغابات سالباخ وجداولها ومراعيها، وشطآن تسل وغياضها ومغانيها، ترى الطبيعة الخشنة الطيبة التي تكلؤه وترعاه وتحنو عليه كأنها مخلوق واع محب للبشر. وترى الكوخ الصديق الذي آوتهما جدرانها، وحنّت عليهما أضلاعه، فلم تفسح خصاصاً لريح تصفر أو مطر يسح، والمدفأة المتأججة تلفهما بالحرارة وهما ثاويان يصطليان، ومن حولهما قطة تهر وكلب يتتاعب، حتى إذا سمع من وراء حساً مرق كالسهم ليحرس سيديه بكل ما في قلب الكلب الأمين من تفان وصدق وإيثار.

ويستطيل الغلام نظرة أمه، ويأنف أن يرى الناس هذا الحذب عليه فيرمقه بما يرمق به الصغار من استخفاف، وهو قد جاوز سن الطفولة منذ أمد بعيد. فيقطب ويبتعد برأسه النفور. وتذكر الأم شعور ابنها فتعود إلى الإصاخة، والإصاخة لا تجدي، فقد استبدت فكرة النزوح بخاطرها فلم تبق لما عداها مجالاً.

* * *

وتتخف الأنعام وتخفت، ويعم السكون، وتتألق المصابيح، ويثوب كل إلى رشده وهو ينتهد كمن يستقيظ من سبات عميق. وتقوم إيلزا مع القائمين مترنحةً نشوى، ثم تأخذ سمتها إلى سالباخ، متبعةً الطريق التي اعتادت اتباعها في كل عام، لكن القدر رسم أمام خطاها لهذا العام وما بعده طريقاً أخرى، ستتبعها بكل ما في فؤادها من إيمان وما في عزمها من ثبات، ومن ورائها يد فاغنر، تشير إليها، كلما أتاها أن تقف، إلى الهدف المجهول، وفي كل منعرج من منعرجات الدرب الطويل صورةً واحدة لا تتبدل: صورة الرجل الذي وهبها طفلاً...

* * *

إضاءة على النص:

تتألف رواية قوس قزح من أقسام عدة هي (مذكرات إيلزا- محمد علي- الأورفيوس- الرحيل- صهيوني يتكلم- غريب- خرقة السنديان- بعد اثني عشر عاماً).

والرواية تتحدث عن الطالب السوري (علاء) الذي يدرس الطب في برلين، وعلاقته مع الفتاة الألمانية (إيلزا) التي أنقذها من التشرد وآواها في بيته ووجد لها عملاً بعد إقامة طويلة انتهت بعلاقة حب بينهما، ثم ترك ألمانيا بعد إنهاء دراسته وعاد وحيداً إلى بلاده، وبعد اثني عشر عاماً التقى (إيلزا) مصادفة في أحد الملاهي اللبنانية حيث كانت تعمل راقصةً، وكانت قد فقدت ابنها من علاء والذي أسمته (محمد علي) وهو في الحادية عشرة من عمره بسبب إصابته بمرض السل الذي أودى بحياتها أيضاً وهي بصحبة علاء الذي حاول جاهداً أن ينقذها من هذا المرض لكن من دون جدوى.

ويلاحظُ أن الطابع الرومانسي الطاغي على العلاقة العاطفية لم يمنع الجابري من أن يدفع الطابع الرومانسي باتجاه فكري يعبر عن الاعتزاز بالقومية العربية، ويشير إلى صدمة الحداثة.

وتحدّث الكاتب عن القيم العربية والإسلامية، وأبدى إعجابه بالشرق عامة، والحضارة العربية الإسلامية بشكل خاص، ودعا إلى المزج بين روحانية الشرق وحضارة الغرب ومدنيته.

ويعدّ الجابري روائياً رومانسياً بالدرجة الأولى، وقد كانت السيرة الذاتية للمؤلف هي الخلفية الأساسية التي استند إليها في كتابة روايته. فتجربته الذاتية وحياته الشخصية ورؤيته الخاصة للحياة كانت المنبع الذي استقى منه أحداث روايته.

أمّا بالنسبة لأسلوبه في الرواية، فيقوم على تنويع السرد وتطعيمه بالجديد، حيث يمزج مثلاً أسلوب المذكرات بأسلوب الرسائل مع بعض العرض السردى التقليدي. وقد اهتم الكاتب بأسلوبه ووشاه بمختلف أساليب البلاغة العربية، فاتسم أسلوبه بالتأنق اللفظي والإنشائية وقوة التراكيب وجزالة الألفاظ، والإكثار من الترادف والسجع، وحشد أسماء الأعلام العربية والأجنبية.

الرسالة

الرسالة جنس من أجناس الأدب ربّما حلّ يوماً من الأيام محل الخطابة، وهي فن قديم عند العرب، عُرف به أساطين البلاغة وأساتذة البيان، كان منهم الجاحظ وابن العميد وابن زيدون.

وقد اخترنا لك منها الرسالة الهزلية لابن زيدون حتّى نضيه ما فيها من قضايا نحويّة وبلاغيّة بعدما تبين لك أنّ حسن التعبير أساسه معرفة النحو والبلاغة⁽¹⁾.

ابن زيدون

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المولود في قرطبة 394 هـ وكان وزيراً لأبي الحزم بن جهور آخر ملوك الطوائف بالأندلس فاشتهر أمره وارتفع قدره، ثم وزيراً للمعتمد، ابتلي وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي وكانت شاعرة جميلة، فبادلته هذا الحب ممّا أشعل نيران الحسد في قلوب منافسيه فسعوا في إفساد ذات بينهما ومنهم الوزير ابن عبدوس الذي تزوّف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون - فظفر بشيء من الرضا ثم رجعت إلى ابن زيدون، فكتب إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقيعاً وسخرية وضمّنها كثيراً من الملح في الأدب والفقه والتاريخ.

وابن زيدون هذا هو صاحب القصيدة المشهورة:

¹ - الرسالة في ديوان ابن زيدون - تحقيق علي عبد العظيم - دار تحفة مصر القاهرة - 1957.

أضحى التناهي بديلاً عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

له شعر كثير، وله في النثر الرسالة الجدّية والرسالة الهزلية، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين، وبالثانية إلى ابن عبدوس على لسان ولادة.

الرسالة الهزلية

كتبها ابن زيدون على لسان ولادة إلى ابن عبدوس منافسه في الحب والسياسة⁽²⁾.

أما بعدُ أيها المصاب بعقله، المورطُ بجهله، البين سقطه، الفاحش غلظه، العائر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش إلى الشهاب؛ فإن العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب.

وإنك راسلتني مستهدياً - من صلتني - ما صفرت منه أيدي أمثالك، مُتصدياً - من خلتي - لما قُرعتْ دونه أنوف أشكالك، مرسلأ خليلتك مُرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاذباً نفسك أنك ستنزُل عنها إلي، وتخلف - بعدها - علي⁽³⁾:
ولسنت بأول ذي همة دَعْتُهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ⁽⁴⁾

² - ذكر ابن نباتة الباعث على إنشاء هذه الرسالة وهو أن ابن عبدوس أرسل إلى ولادة ((امرأة من جهته تستميلها إليه، وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد بمواصلته، فبلغ ابن زيدون ذلك، فكتب هذه الرسالة البديعة جواباً عن لسانها، تتضمن هذه الغرائب من سب أي عامر والتهكم به والهجاء له... وأرسلها إليه عقب رجوع المرأة، فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية وتوفي بها، تغمده الله برحمته وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه، هذا معنى ما ذكره ابن حيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين راجع قصيدته إلى ابن عبدوس 583-589 من الديوان.

³ - المعنى: إنك ستصرف عن هذه الخليفة إلي وتغتناض عنها بي.

⁴ - البيت للمتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، ويذكر هجومه على الخارجي أولها:

إلام طماعية العاذل؟ ولا رأي في الحب للعاقل

ولا شكَّ أنها قلَّتكَ إذ لم تَضُنَّ بِكَ، وملَّتكَ إذ لم تَغُرَّ عليك⁽⁵⁾، فإنَّها أعذرت في السفارة لك⁽⁶⁾، وما قصَّرت في النياية عنكَ، زاعمة أنَّ المروءة لفظ أنت معناه⁽⁷⁾، والإنسانية اسمٌ أنت جسمُه وهْيولاه⁽⁸⁾، قاطعةً أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الخلال، حتَّى خيلت أن يوسفَ - عليه السَّلامُ - حاسنك فغضضت منه⁽⁹⁾، وأنَّ امرأةَ العزيزِ رأَتْكَ فسَلَّت عنه⁽¹⁰⁾ وأنَّ قارونَ أصابَ بغضَ ما

=ورواية البيت نقلاً عن الديوان ((وليس بأول ذي همة...)) ومعناه: ليس الخارجي بأول صاحب عزيمة دفعته إلى ما لا يناله.

5 - قلَّتكَ: أبغضتكَ، تَضُنَّ: تبخل، ملَّتكَ: سئمتكَ.

6 - أعذر: بلغ من الاجتهاد ما صار به معذوراً؛ السفارة: المشي في الصلح.

7 - المروءة: الإنسانية، والمراد كمال الصفات الإنسانية؛ والمعنى: زعمتُ في حديثها أنَّ المروءة تجسَّمت فيك.

8 - الهيولى: الصورة المعنوية التي يُصَبَّ الجسمُ على مثالها؛ وقد نادى أفلاطون بنظرية المثل Ideality وخلاصتها أنَّ الأجسام المادية تقلد للعالم المثالي المعنوي الأزلي؛ والمعنى: أنَّ الإنسانية تجسَّمت فيك بمعناها ومبناها.

9 - حاسنك: باراك في الحسن، غضضت منه: خفضت، ونقصت من قدره؛ ويوسف عليه السلام ضُربَ به المثلُ في الجمال، وقد قالت فيه عليه نساء مصر قديماً ((ما هذا بشراً أنَّ هذا إلا ملَكٌ كريم)).

10 - قصة امرأة العزيز وتدلُّها في حب يوسف عليه السلام حتَّى نسيت منزلتها ومكانة زوجها - مشهورة ((راجع سورة يوسف في القرآن الكريم)).

كَنْزَتْ⁽¹¹⁾ وَالنَّطِيفَ عَثَرَ عَلَى فَضْلٍ مَا رَكِزَتْ⁽¹²⁾، وَكَسَرَى حَمَلَ غَاشِيَتِكَ⁽¹³⁾،
وَقِيَصَرَ رَعَى مَاشِيَتِكَ⁽¹⁴⁾، وَالْأَسْكَندَرَ قَتَلَ دَارَا فِي طَاعَتِكَ⁽¹⁵⁾، وَأَزْدَشِيرَ جَاهِدَ
مُلُوكَ الطَّوَائِفِ لَخُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ⁽¹⁶⁾، وَالضَّحَّاكَ اسْتَدْعَى
مُسَالَمَتَكَ⁽¹⁷⁾، وَجَذِيمَةَ الْأَبْرَشِ تَمَنَّى مَنَادِمَتَكَ⁽¹⁸⁾، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بَوْرَانَ

11 - قارون: من قوم موسى عليه السلام، وكان يضرب به المثل في الثروة الطائلة والغنى الفاحش،
فلَمَّا اعْتَرَّ بِمَا مَلَكَ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبَدَّاهُ الْأَرْضَ ((راجع قصته في سورة القصص الآيات 76-
83)).

12 - كَانَ النَّطِيفُ بْنُ جَبْرِ مَقِيمًا بِالْبَادِيَةِ مَعَ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَغَارَ مَعَ آخَرِينَ عَلَى قَافِلَةٍ أَرْسَلَهَا عَاهِلُ
الْيَمَنِ إِلَى كَسْرَى حَافِلَةً بِالثِّيَابِ الْيَمْنِيَةِ وَالذَّهَبِ وَالْمَسْكِ وَالْجَوْهَرِ. وَقَتَلُوا مِنْ بَهَا؛ وَاسْتَوَلَى النَّطِيفُ
عَلَى كَثِيرٍ مِنْهَا مِنْ جَمَلَتِهِ خُرْجَانٌ مَمْلُوءَانِ ذَهَبًا مَحْلًى بِالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ؛ الْفَضْلُ: بَقِيَّةُ الشَّيْءِ، الرِّكَزُ
وَالرِّكَازُ: دَفِينُ مَالٍ الْجَاهِلِيَّةِ.

13 - كَسْرَى: لَقَبٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَسِ؛ إِذَا أُطْلِقَ قُصِدَ بِهِ كَسْرَى أَنْوَشِرَوَانُ، وَقَدْ حَكَّمَ
فَارِسٌ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ السَّادِسِ، الْغَاشِيَةُ: غَطَاءُ السَّرِجِ أَوْ الْمِظْلَةِ.

14 - قِيَصَرَ: لَقَبٌ لِكُلِّ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الرُّومِ؛ وَإِذَا أُطْلِقَ قُصِدَ بِهِ أَغَسْطُسُ.

15 - حَارِبُ الْأَسْكَندَرِ الْمَقْدُونِيِّ الْأَكْبَرِ مَلِكِ الْإِغْرِيقِ دَارَا مَلِكُ الْفَرَسِ وَقَتْلَهُ وَاحْتَلَّ مَمْلَكَتَهُ وَضَمَّهَا
إِلَيْهِ.

16 - أَزْدَشِيرُ بْنُ بَابِكٍ: حَارِبُ أَمْرَاءِ بِلَادِ فَارِسٍ بَعْدَ مَقْتَلِ دَارَا وَارْتِدَادِ الْإِغْرِيقِ عَنْهُمْ حَتَّى ضَمَّهُمْ
إِلَى طَاعَتِهِ، وَوَحَّدَ مَمْلَكَةَ فَارِسٍ تَحْتَ عَرْشِهِ وَأَسَّسَ لَهَا صَوْلَةً وَدَوْلَةً مِنْ جَدِيدٍ.

17 - اخْتَلَفَ الرِّوَاةُ فِي نَسَبِ الضَّحَّاكِ؛ فَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْفَرَسِ وَقَالَ
آخَرُونَ مِنَ الْعَرَبِ؛ وَلَكِنَّهُمْ جَمِيعًا يَرَوْنَ أَنَّهُ قَتَلَ جَمَشِيدَ الطَّاعِغِيَّةِ وَاسْتَلَبَ مَلِكُهُ وَطْعَى وَتَجَرَّ وَبِزَعَمُونَ
أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عُتِيَ لَهُ، وَضَرَبَ الدِّرَاهِمَ وَالْدَنَانِيرَ وَلَبَسَ التَّاجَ وَوَضَعَ الْعُشُورَ...إِلَخ.

18 - جَذِيمَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ فَهْمٍ بْنِ عَامِرِ التَّنُوخِيِّ مَلِكِ الْحَيْرَةِ: يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَادَ الْعَرَبَ وَمَلِكُ
قِضَاعَةَ وَكَانَ أَبْرَصَ فَعَدَلَ عَنْ هَذَا الْأَسْمِ فَقِيلَ الْأَبْرَشُ أَوْ الْوَضَاحُ؛ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ يَنَادِمُ =الْفَرَقْدِينَ

فيك⁽¹⁹⁾، وبلقيس غايرت الزَّباء عليك⁽²⁰⁾ وَأَنْ مَالِكَ بنَ نُويرةَ إِنَّمَا رَدَفَ لَكَ⁽²¹⁾،
وعروة بن جعفر إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ⁽²²⁾، وكليب بن ربيعةَ إِنَّمَا حَمَى المَرعى
بِعَزَّتِكَ⁽²³⁾، وجَسَّاساً إِنَّمَا قَتَلَهُ

أنفة منه وكبرا أن ينادم بشراً، وقيل كان له نديمان قتلتهما في سكره، ثم ندم عليهما وبني عليهما
الغرين ونادم بعدهما الفرقدن، قال متمم بن نويرة في رثاء أخيه:

وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل: لن يتعرفا

19 - شيرين: زوجة أرويز بن هرمز ملك الفرس، كانت يتيمة في حجر رجل من الشعب فأحبها
أبرويز فتزوجها ورفعها إلى العرش فوفت له حتى قيل إنها سمّت نفسها بعد وفاته؛ يوران بنت
أبرويز: وليت الملك بعد أبيها وكانت من أجمل النساء.

مالك بن نويرة بن شداد: من فرسان العرب وشجعانهم وذوي الردافة في الجاهلية، وأرداف الملوك
هم الذين يخلفونهم في القيام بأمر المملكة، كالوزراء في الإسلام.

20 - بلقيس بنت الحارث ملكة سبأ: كانت مشركة هي وقومها، فدلّ الهدى عليها سليمان عليه
السلام، فتوعدّها وقومها بالحرب إن لم تؤمن برسالته، فوفدت عليه وآمنت به وتزوجته ((راجع
قصّتها في سورة النمل الآيات 20-44))؛ الزَّباء: بارعة أو ميسونة بنت عمرو بن الطرب
ملكّت الجزيرة بعد أبيها وأخذت بثأره من جذيمة الأبرش ملك الحيرة.

21 - مالك بن نويرة بن شداد: من فرسان العرب وشجعانهم وذوي الردافة في الجاهلية، وأرداف
الملوك هم الذين يخلفونهم في القيام بأمر المملكة، كالوزراء في الإسلام.

22 - عروة بن عتبة بن جعفر: من بني عامر بن صعصعة يعرف بعروة الرجال لرحلته إلى الملوك،
وكان من ذوي العقل والشهامة، وهو من أرداف الملوك، وكان قد تعهد للنعمان بن المنذر بحماية
قافلته من أهل نجد وتحماته فاغتاله البراء وقامت بسببه حرب الفجار.

23 - كليب بن ربيعة: زعيم قبيلتي بكر وتغلب، يقال فيه ((أعز من جمى كليب))، وكان يحمي
مواقع السحاب فلا يرعاها أحد غيره، وإذا مرّ بمعى قذف فيه جروا يعوي فلا يرعاه أحد.

بأنفثَكَ⁽²⁴⁾، ومهلهاً إنّما طلب ثأره بهمتك⁽²⁵⁾، والسّموعَل إنّما وفي عن عهدك⁽²⁶⁾، والأحنف إنّما احتبى في بُردك⁽²⁷⁾، وحاتمًا إنّما جاد بوفرك، ولقي الأضياف ببشرِك⁽²⁸⁾، وزيد بن مهلهل إنّما ركب

24 - حساس بن مرة بن ذهل: صهر كليب قتل كليلاً لأنه قتل ناقة لخالة حساس اندست بين إبله.

25 - مهلهل: هو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب، ظل يطلب ثأر أخيه سنوات عديدة، وأثار حروباً طاحنة بين قبيلتي بكر وتغلب في طلب الثأر؛ وسمي مهلهلاً لأنه أول من هلهل نسج الشعر أي أرقه.

26 - السموءل بن عاديّا، من يهود يثرب: يضرب به المثل في الوفاء، وسبب ذلك أنّ امرأ القيس لما خرج في طلب ثأر أبيه حُجر وذهب إلى ملك الروم ليستعين به، أودع عند السموءل مئة درع وسلاحاً أمانة عنده حتى يرجع، فحفظها بحصنه الأبلق في تيماء، فجاء الحارث بن ظالم، وطالب السموءل بما وهده، فأبى أن يسلمها له، وتحصن بحصنه، فأخذ الحارث ابناً للسموئل وسأومه على تسليم ابنه له مقابل السلاح، فأبى السموئل أن يغدر بعهدده، فقتل الحارث ابنه أمامه وطرحه وانصرف، فقال السموئل من أبيات:

وَقَيْتُ بأدرج الكندي، إِنِّي إذا ما حان أقوامٌ وفيت

27 - الأحنف: هو صخر بن قيس بن معاوية السعدي يضرب به المثل في الحلم والسيادة، وله حكم مشهورة منها: ((أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك؛ أنفق في حق ولا تكونن خازناً لغيرك؛ لا راحة لحسود ولا مروءة لكذوب؛ وقال له رجل لأشتمنك شتماً يدخل معك في قبرك، فقال في قبرك والله يدخل لا قبري))؛ وتوفي بالكوفة سنة 69 هـ؛ احتبى في بردك: اشتمل في كسائك.

28 - حاتم بن عبد الله الطائي: ممن ضرب به المثل في السماحة والسخاء، يقال: أجواد العرب في الجاهلية ثلاثة: حاتم الطائي، وهرم بن سنان، وكعب بن مامة وحاتم أشهرهم؛ وكان كما قالت ابنته للنبي (ص): إنّ أبي كان يفك العاني ويشيع الجائع ويكسو العاري، ومن شعره:

بفخذيك⁽²⁹⁾، والسليك بن السلكة إنما عدا على رجلبك⁽³⁰⁾، وعامر بن مالك إنما لاعب الأسنة ببديك⁽³¹⁾، وقيس بن زهير إنما استعان بدهائك⁽³²⁾،

أما ويّ إن المأل غاد ورائح
أما ويّ ما يغني الثراء عن الفتى
ويبقى من المال الأحاديث والذكر
إذا حشرحت يوماً وضاق بما الصدر

29 - في المجموعة الأدبية ((وزيد الخيل))؛ زيد بن مهلهل الطائي من فرسان العرب وشعرائها المعدودين، أدرك الإسلام وأسلم وكان يسمى زيد الخيل لكثرة خيله، فسماه النبي (صلى الله عليه وسلم) زيد الخير، يقال: إنه كان طويل القامة عظيم الخلقة يركب الفرس ورجلاه تخطان في الأرض؛ وقال له النبي (صلى الله عليه وسلم): ((إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الأناة والحلم)).

30 - السليك بن السلكة أحد فناك العرب وصعاليكهم في الجاهلية، وكانت الخيل لا تلحقه في العدو.

31 - عامر بن مالك من بني صعصعة يُسمى ملاعب الأسنة لقول أوس بن حجر فيه:
يلاعب أطراف الأسنة عامر
فراح له حظ الكتائب أجمع
وقيل القول حسان بن نمير- وقد رآه بين فرسان أطافوا به فقاتلهم- ((ما هذا إلا ملاعب الأسنة)).

32 - قيس بن زهير بن جذيمة العبسي شيخ بني عبس؛ ثارت الحروب بينه وبين حذيفة بن بدر شيخ بني ذبيان بسبب تراهتهما على فرسيهما داحس والغبراء في قصة مشهورة؛ وكان قيس معروفاً بالدهاء وبعد النظر؛ ولما استطار الشرّ بسبب هذه الحروب نصح قومه بصلح بني عمهم، ومن كلامه يصف نفسه: ((إني امرؤ غيورٌ فخور أنفٌ؛ ولستُ أفخر حتى أبتلى، ولا أغار حتى أرى، ولا آنف حتى أظلم))، ومن شعره:

إذا أنت أقررت الظّلامة لامرئ
فلا كيد للأعداء إلاّ خشونة
رماك بأخرى شَعْبها متفاقم
فما لك منهم إن تمكّن راحم

وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك⁽³³⁾، وسحبان إنما تكَلَّل بلسانك⁽³⁴⁾، وعمرؤ بن الأَهمم إنما سحرَ ببيانك⁽³⁵⁾، وأن الصلح - بين

33 - إياس بن معاوية بن قرة المزني قاضي البصرة زمن عمر بن عبد العزيز كان مشهوراً بحدة الذكاء وسداد الإجابة، وله نوادر في القضاء وفي سرعة البديهة مشهورة، وله أخبار كثيرة مجموعة في كتاب يسمى ((زَكن إياس))؛ قيل له يوماً: إِنَّ فيكَ عيوباً: دمامة الشكل، وإعجابك بما تقول، وعجلة بالحكم؛ فقال: أما الدمامة فليس أمرها إليّ، وأما الإعجاب بالقول أفليس يُعجبكم ما أقول؟ قالوا: بلى، قال: فأنا أحق بالإعجاب بقولي، وأما العجلة بالحكم فكم هذه؟ - ومدّ أصابع يده - فقالوا: خمس، فقال: أعجلتم بالجواب، فقالوا: كيف نعدّ ما نعلم؟ فقال: وأنا كيف أؤخّر حكم ما أعلمه؟ توفي سنة 121 هـ.

34 - سحبان بن زفر بن إياس الوائلي خطيب مصقع يضرب به المثل في البيان واللسن؛ قال الأصمعي: كان إذا خطب يسيل عرقاً، ولا يعيد كلمة، ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ؛ استدعاه معاوية يوماً على غير أهبة وكلفه الخطابة في وفد خراسان، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، ما تتحنج ولا سعل ولا توقف، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه منه شيء؛ فما زالت تلك حاله حتى أشار إليه معاوية بيده؛ فأشار إليه سحبان: ألا تقطع عليّ كلامي، فقال معاوية: الصلاة!! قال: هي أمامك ونحن في صلاة وتحميد ووعد ووعد، فقال معاوية: أنت أخطب العرب!! فقال سحبان: والعجم والجن والإنس!! توفي سنة 54 هـ.

35 - عمرو بن سنان الأَهمم التميمي وفد على النبي (ص) هو والزبرقان بن بدر فأسلما، فسأل النبي عمرو بن سنان عن الزبرقان بحضوره، فقال: مطاع في نأديه، شديد العارضة في قومه، مانع لما وراء ظهره؛ فقال الزبرقان: يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني، فقال عمرو: أما والله لئن علمتُ ما قد علمتُ، فإنه زَمِنُ المروءة أحمق الأب لئيم الخال ضيق العطن؛ فرأى تغَيَّر وجه النبي (ص) لما اختلف قوله، فقال: يا رسول الله لا تغضب!! لَمَّا رَضِيتُ قلت أحسن ما علمتُ؛ ولما غضبتُ قلت أقبح ما علمت، فو الله ما كذبتُ في الأولى، ولقد صدقتُ في الثانية؛ فقال (ص): ((إِنَّ من البيان لسحراً)) توفي عمرو سنة 57 هـ.

بكرٍ وتغلب - تم برسالتك⁽³⁶⁾، والحملات - بين عيسٍ وذبيان - أسندت إلى كفالته⁽³⁷⁾، وأن احتيال هريم - علقمة وعامرٍ حتى رضا - كان ذاك عن إشارته⁽³⁸⁾، وجوابه لعمر - وقد سأله عن أيهما كان يُنفَر؟ - وقع عن

36 - في المجموعة الأدبية ((إنما تم))؛ لما قتل جساس بن مرة كليلاً ثارت الحرب بين قبيلتيهما بكرٍ وتغلب وهما أبناء عمومة وأصهار، واستعرت الحرب أمداً طويلاً حتى برّحت بالقبيلتين، إلى أن تدخل بينهما الحارث بن عمرو بن معاوية ملك كندة جدّ امرئ القيس، وضم القبيلتين إلى حكمه فأصلح شأنهم وكان الحارث ملكاً جليلاً رفيع الهمة ويلقب بأكل المزار.

37 - الحملات؛ جمع حمالة وهي الدية؛ لما ثارت الحرب بين عيسٍ وذبيان وأهلكت الكثيرين تدخل الحارث بن عوف وهرم بن سنان بينهما واجتهدا في إصلاح ذات البين وحمل الديات، وفي هذا يقول زهير بن أبي سلمى:

تداركتما عيساً وذبيان، بعدما تقاتلوا، ودقوا بينهم عطر منشّم

وكانت اليد الطولى للحارث بن عوف؛ وعاش الحارث إلى أن أدرك النبي (ص) فأسلم.

38 - تفاخر عامر بن طفيل وعلقمة بن علاثة في الجاهلية، واستطار بينهما اللجاج فتنافرا - أي احتكما إلى هرم بن قطبة بن سيار - على مائة من الإبل، فأرجأها عاماً، ثم وفدا عليه ومع كل منهما أشراف قومه، فأقاموا عنده أياماً، فأرسل سراً إلى عامر، فقال له: يا عامر ما حبستك هذه الأيام إلا لتصرف عن صاحبك؛ أتفاخر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه؟ فما الذي أنت به خير منه؟ فقال عامر: ناشدتك الله والرحم ألا تفضل عليّ علقمة، فإن كنت ولا بد فاعلاً فسوّ بيننا، قال سأرى؛ ثم استدعى علقمة، وقال له مثل ما قال لعامر؛ فناشده أن يسوي بينهما إذا لم يكن بد، فلما مثلاً بين يديه هما وقومها قال لهما: يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي، وإنكما كركبتي البعير تقعان معاً على الأرض، وكلاكما سيد كريم. وبهذا حجز بين قوميهما؛ وانصرفوا راضين.

إرادتك⁽³⁹⁾ وأن الحجاج تقلّد ولاية العراق بجديك⁽⁴⁰⁾، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك⁽⁴¹⁾، والمهلب أو هن شوكة الأزارقة بأيدك، وفرق ذات بينهم بكيدك⁽⁴²⁾، وأن هرمس أعطى بلينوس ما أخذ منك⁽⁴³⁾، وأفلاطون أورد على

39 - في نهاية الأرب ((وقم بعد مشورتك)) وفي المجموعة الأدبية ((عن أيهما ينفر كان عن رأيك))؛ لما وفد هرم بن قطبة على عمر رضي الله عنه سألته عن منافرة عامر وعلقمة، وقال يا أبا عمرو أيهما كنت تنفر؟ - أي تغلب - ومن كان عندك الأفضل منهما؟ فقال هرم: لو قلت الآن فيهما كلمة لعادت الحرب بين الحيين - جذعة؛ فأعجب عمر بهذه الإجابة وقال: بحق حكمتك العرب.

40 - الحجاج بن يوسف الثقفي من قادة العرب وخطبائها المعدودين؛ ولي العراق لعبد الملك بن مروان فأخمد الفتن وشتت الخوارج، ثم قضى على ثورة ابن الزبير بالحجاز؛ وكان جباراً قاسياً لا يرحم، سفاكاً للدماء، وفصيحاً مفوهاً؛ قال مالك بن دينار: ((والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر، ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعهم له، حتى يخيل إلي أنه مظلوم)) الجحد: الخطأ، والجحد: الاجتهاد، وكلاهما صالح المعنى هنا.

41 - قتيبة بن مسلم الباهلي كان والياً على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان؛ وهو الذي فتح بلاد ما وراء النهر ((أي ما هو شرق نهر جيحون بخراسان)) وهو قائد شجاع أبلى في حروبه أحسن البلاء، وكان دمث الأخلاق لبيباً؛ وأقام بالشرق والياً عليه ثلاث عشرة سنة عظيم الرتبة مرهوب الجانب، توفي سنة 96 هـ.

42 - في سرح العيون ((أو هي - بيدك))؛ الأيد: القوة؛ المهلب بن أبي صفرة الأزدي أمير كبير طائر الذكر شجاع؛ أمره مصعب بن الزبير على البصرة، ثم ولاه عبد الله بن الزبير خراسان، ثم أقره عبد الملك بن مروان ليتمم ما بدأه من حرب الأزارقة فشنت شملهم؛ ومن كلامه: ((عجبت لمن يشتري العبيد بماله، ولا يشتري الأحرار بأفضاله؛ وكان يقال فيه: ((ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بحبه لعشيرته، وقتيبة بدهائه، وساد المهلب بهذه الخلال جميعها)) وتوفي سنة 83 هـ.

أرسططاليس ما نقلَ عنك⁽⁴⁴⁾، وبطليموس سؤى الأصطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكرة على تقديرك⁽⁴⁵⁾ وأبقراط علّم العلل والأمراض بلطفٍ حسك⁽⁴⁶⁾، وجالينوس عرّف طبائع الحشائش بدقّة حدسك⁽⁴⁷⁾، وكلاهما قلّدك في العلاج، وسألك عن

43 - في المجموعة الأدبية ((أعطى جالينوس))؛ تروي الأساطير العربية أن هيرمس -عند قوم من الصابئة- نبّئ مرسل وأنه إدريس عليه السلام، ويزعمون أنه يأتي الأهرام ويسندون إليه شرائعهم، ويزعمون أن بليّوس ورثه في النبوة وكان قد أخذ عنه العلوم والأسرار.

في المجموعة الأدبية ((ووضع الكرة))؛ بطليموس صاحب المجسطي الكبير من أشهر علماء الفلك والجغرافيا عند الإغريق، ونفى القفطي في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء أنه من أسرة البطالسة التي حكمت مصر كما وهم كثيرون؛ والأصطرلاب آلة لرصد النجوم؛ والكرة هنا الكرة الأرضية.

44 - في نهاية الأرب ((ما حدث عنك))؛ أفلاطون من أشهر فلاسفة الإغريق القدماء وهو صاحب نظرية المثل وخلاصتها أنّ الأجسام المادية تالية في الخلقة لعالم مثالي صُبّت على صورته. وهو تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أشهر فلاسفة الإغريق وأعظمهم، وقد تدارس فلاسفة العرب فلسفة أرسطو وافتتنوا بها وشرحوها وسموه المعلم الأول.

45 - في المجموعة الأدبية ((ووضع الكرة))؛ بطليموس صاحب المجسطي الكبير من أشهر علماء الفلك والجغرافيا عند الإغريق، ونفى القفطي في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء أنه من أسرة البطالسة التي حكمت مصر كما وهم كثيرون؛ والأصطرلاب آلة لرصد النجوم؛ والكرة هنا الكرة الأرضية.

46 - ذكر القفطي أن أبقراط كان في زمن أزدشير ملك الفرس، وهو الذي بث صناعة الطب في الناس يتوارثها بالتلقين ولا يكتبون فيها شيئاً.

47 - جالينوس من أشهر أطباء الإغريق ويسمى خاتم الأطباء والمعلمين، وظلت آراؤه سائدة عند الإغريق ثم العرب قروناً متتالية ويقولون: ((إنّه عرف خواص الحشائش، وقاس أمزجة = الأبدان،

المزاج⁽⁴⁸⁾، واستوصفك تركيب الأعضاء، واستشارك في الداء والدواء، وأنتك نهجت لأبي معشر - طريق القضاء⁽⁴⁹⁾، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء⁽⁵⁰⁾، وأعطيت النظام أصلاً أدرك به الحقائق⁽⁵¹⁾، وجعلت للكندي

ودرس طبائعها، وشرح الأعضاء، ووضع الكتب النفيسة في الطب؛ وفي نهاية الأرب ((بدقة نظرك)).

48 - المزاج: واحد الأمزجة وهي الطبائع، ويقسمها القدماء إلى تسعة أقسام: واحدة معتدلة وثمانية غير معتدلة؛ منها أربعة مفردة هي: الحار والبارد والرطب واليابس، وأربعة أخلاط هي: الدم والمرارة الصفراء والمرارة السوداء والبلغم... إلخ ما قالوه.

49 - في المجموعة الأدبية ((فتحت لأبي معشر))؛ أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المنجم المشهور، كان من أصحاب الحديث، ثم درس الحساب والهندسة، ثم أحكام النجوم فمهر فيها حتى اعتبروه عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم؛ وله فيها مصنفات عديدة، وكان من أعلم الناس بسير الفرس وأخبار سائر الأعاجم؛ ولكنه كان مدمناً على الشراب، وكان يصيبه الصرع شهرياً؛ توفي سنة 372 هـ؛ نَحَجَّ الطريق: أبانه وأوضحه؛ القضاء: المراد به هنا حكم المنجمين وقولهم بتأثير الكواكب؛ وهو يشير بهذا إلى قول أبي تمام - ساخراً من المنجمين عن تأثير النجوم: يقضون بالأمر عنها، وهي قافلة ما دار في فلك منها وفي قطب

50 - ذكر ابن نباتة في شرحه لهذه الرسالة أنه لم يقف له على ترجمة صحيحة في كتاب يعتمد عليه، ولو راجع الفهرست لابن النديم وطبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي لوجد له فيهما ترجمة موجزة، وهما كتابان يعتمد عليهما؛ وهو أبو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المعروف بالصوفي من أشهر مؤلفي العلوم عند العرب، وقد بلغت تصانيفه زهاء خمسمائة كتاب، بقي منها: كتاب أسرار الكيمياء، وأصول الكيمياء، وعلم الهيئة، ومجموعة رسائل في =نحو ألف صفحة، وكلها مطبوعة؛ وكان من أصحاب جعفر الصادق ثم اتصل بالبرامكة وانقطع إلى جعفر بن يحيى البرمكي، وتوفي سنة 161 هـ.

رسماً استخرج به الدقائق⁽⁵²⁾، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار (والأنفار) توليدك وابتداعك⁽⁵³⁾، وأن عبد الحميد بن يحيى باري أقلامك⁽⁵⁴⁾، وسهل بن هارون مدون كلامك⁽⁵⁵⁾ وعمرو بن بحر مستمليك⁽⁵⁶⁾، ومالك بن

51 - إبراهيم بن سيار بن هاني البصري النظام من شيوخ المعتزلة وأئمتهم؛ كان آية في الذكاء وقوة الجدل؛ ومن آرائه: أن الله خلق العالم دفعة واحدة، ولكنه أكمّن بعضه في بعض؛ وأن في قدرة البشر أن يأتوا بمثل القرآن إلا أن الله تعالى صرف أذهانهم عن محاكاته، وأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على الشروع، توفي سنة 230 هـ وقيل سنة 236 هـ.

52 - يعقوب بن إسحق الكندي من أبناء الولاة والحكام، وجدّه الأشعث بن قيس من الصحابة؛ سماه القدماء فيلسوف العرب، وله مصنفات عديدة في العلوم الفلسفية تناهز الخمسين، توفي سنة 255 هـ على الأرجح.

53 - لم ترد كلمة (الأنفار) في نهاية الأرب؛ وفي المجموعة الأدبية ((الأوتار والأنغام))؛ وينسب إلى بطليموس أنه أول من أفرد لها كتاباً سماه كتاب اللحون الثمانية، الأنفار: آلات الطرب.

54 - عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامري كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بالمشرق من أشهر الكتاب المجيدين، ضرب به المثل في البلاغة، وقيل فيه: بُدئت الكتابة بعبد الحميد؛ ويروى أنه كتب خطاباً إلى أبي مسلم الخراساني ليصرفه عن الدعوة العباسية، فخشي أبو مسلم تأثير الخطاب فيه فلم يقرأه وأحرقه.

=وقد ابتدع للكتاب مناهج تبعوها من بعده، وكان إبراهيم بن جيلة يكتب خطأ رديفاً فقال له عبد الحميد: أطل جلفه قلمك وأسمتها وحرف قسّطك يصلح خطك. ولعل هذا ما أشار إليه ابن زيدون؛ وظلّ وقتاً لمروان حتى قتله العباسيون سنة 132 هـ.

55 - سهل بن هارون اشتهر بالبلاغة والحكمة، فقدّمه الفضل بن سهل للمأمون فأعجب ببلاغته وجعله كاتباً على خزانة الحكمة، وكان شعبياً يتعصب على العرب، وألف كتباً عارض بها كب الأوائل حتى قيل فيه: ((بزرجمهر الإسلام)) وقد نقل عنه الجاحظ كثيراً من آثاره؛ توفي سنة 215 هـ.

أنسٍ مُستفتيك⁽⁵⁷⁾، وأنتك الذي أقامَ البراهينَ، ووضعَ القوانينَ⁽⁵⁸⁾، وحدَّ الماهيةَ، وبيّنَ الكيفيةَ والكميةَ⁽⁵⁹⁾، وناظرَ في الجوهرَ والعرضَ⁽⁶⁰⁾، وميّزَ الصّحةَ مِنَ المرضِ، وفكَّ المعمى⁽⁶¹⁾ وفصلَ بينَ الاسمِ والمسمّى⁽⁶²⁾، وضربَ وقسّمَ، وعدّلَ وقوّمَ⁽⁶³⁾، وصنّفَ الأسماءَ والأفعالَ، وبوّبَ الظّرفَ والحالَ، وبنى وأعربَ، ونفى

56 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ شيخ كتاب العربية وإمام الفصحاء والمتكلمين أُلّف في شتى الفنون من أدب ودين وحيوان ونبات وفلسفة... وضرب به المثل فقل: ((مما فضل الله به أمة محمد عليه السلام على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب في سياسته، والحسن البصري في علمه، والجاحظ في بيانه)) ومن أعظم كتبه الباقية الخالدة : البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان. توفي سنة 255هـ.

57 - مالك بن أنس أحد الأئمة الأربعة وإمام دار الهجرة وصاحب كتاب الموطأ، ضرب به المثل في العلم والورع فقل: ((لا يفتى ومالك بالمدينة)) ومن كلامه: إذا ترك العالم قول ((لا أدري)) أُصيبَتْ مقاتلُه؛ ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يقذفه الله في القلب؛ توفي سنة 189 هـ.

58 - البراهين: الأدلة، القوانين: الصور الكلية التي تتعرف بها أحكام جزئياتها.

59 - الماهية: الصورة الذهنية للشيء في الفكر؛ الكيفية: التركيب والتكوين؛ الكمية: الحجم والأقدار.

60 - الجوهر: الجسم أو الطبيعة أو الأصل؛ والعرض: الصفات الطارئة والأحوال المتعاقبة.

61 - في نهاية الأرب والمجموعة الأدبية ((وبين الصحة....))؛ المعنى: اللغز مأخوذ من عميت الشيء إذا أخفيتَه، وعمي الأمر: التبس.

62 - الاسم: العَلَمُ الذي يتميز به كل كائن، والمسمى هو الذات التي يطلق عليها هذا الاسم؛ وللفلاسفة والمتكلمين أبحاث كثيرة في هل الاسم هو المسمى أو غيره.

63 - في سرح العيون ((وصرف وقسم))، وعقب عليها ابن نباتة بأنّه لم يدرك المعنى المطلوب؛ وقد أثّرنا رواية نهاية الأرب، ومعناها أنّه أتقن الحساب من ضرب الأعداد وقسمتها. وعدّل وقوّم

وتعجب، ووصل وقطع، وثنى وجمع، وأظهر وأضمر، واستفهم وأخبر⁽⁶⁴⁾، وأهل وقيد⁽⁶⁵⁾، وأرسل وأسند⁽⁶⁶⁾، وبث ونظر، وتصفح الأديان، ورجح بين مذهبي ماني وغيلان⁽⁶⁷⁾، وأشار بذبح الجعد⁽⁶⁸⁾، وقتل بشار بن

ذكر ابن نباتة أيضاً أنه لم يفهم المقصود منها، ولعل المعنى: إنه وازن بين الأشياء وأدرك قيمة كل منها أي أنه دقيق النظر بارع التمييز خبير في تقدير ما يقع عليه نظره.

64 - الأسماء والأفعال، والظروف والأحوال، والبناء والإعراب، والنفي والتعجب، وهمزتا الوصل والقطع، والإفراد والثنية والجمع، وإظهار الضمير وإضماره، كلها اصطلاحات نحوية وصرفية لها أبواب وأحكام معروفة في كتب النحو والصرف، أما الخبر والاستفهام (أو الخبر والإنشاء) فهما من اصطلاحات علم المعاني؛ وفي نهاية الأرب. ((وابتداً وأخيراً)) فيكونان من اصطلاحات النحو أيضاً يقصد بهما: المبتدأ والخبر.

65 - في نهاية الأرب ((واستفهم وأهل وقيد)) وقد أثرنا رواية سرح العيون؛ أهل: كتب الحروف بدون تنقيط وتشكيل، وقيد: ضبطهما بهما؛ أو أهل وقيد: ترك واختار، أو أسقط وحفظ، أو خطل وصوب.

66 - أرسل: روى أحاديث النبي (ص) دون أن يذكر سلسلة النسب حتى تصل إليه، بل تصل إلى أحد التابعين، وأسند: روى الأحاديث مسلسلة راوٍ عن راوٍ حتى تصل إلى من سمعها عن النبي عليه السلام.

67 - ماني: ظهر في أيام سابور بن أردشير ملك الفرس وادّعى النبوة وتبعه خلق كثير، وكان يزعم أن العالم خلقه اثنان: إله الخير وهو النور، وإله الشر وهو الظلام؛ غيلان بن يونس؛ ظهر في زمن هشام بن عبد الملك وهو أول من تكلم في القدر وخلق الإنسان، قتله هشام بن عبد الملك. ولا وجه للموازنة بين المذهبيين.

68 - الجعد بن درهم مولى بني الحكم، كان يقول بخلق القرآن، قتله خالد ابن عبد الله القسري والي العراق من قبل هشام بن عبد الملك لما خشي تفاقم شره.

برد⁽⁶⁹⁾، وأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ⁽⁷⁰⁾، فَأَحَلَّتَ الْبَحَارَ عَذْبَةً، وَأَعَدَّتَ السَّلَامَ رَطْبَةً⁽⁷¹⁾، وَنَقَلْتَ غَدًا فِصَارَ أَمْسًا، وَزِدْتَ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا⁽⁷²⁾، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ: ((كَلَّ الصَّيْدُ فِي جَوْفِ الْفَرَا))⁽⁷³⁾ وَ:

69 - بشار بن برد الشاعر المشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وكان متهماً بالجنون والفسق والزندقة والتعصب للفرس ضد العرب، أمر المهدي بضربه بالسياط حتى تلف سنة 168 هـ.

70 - خرق العادات: أتى بما يخالف الطبيعة مثل المعجزات.

71 - السَّلَام: جمع سلمة وهي الحجرة. ثم أخذ الكاتب يعدد أمثلة خرق العادات، ومخالفة المعهودات، مثل تحويل البحار المالحة إلى عذبة. وتحويل صلابة الصخور إلى ليونة وطرواة؛ وتزعم الأساطير العربية أَنَّ الحجارة كانت لينة على عهد نوح عليه السلام.

72 - في المجموعة الأدبية (فصارت خمساً). العناصر عند الأقدمين أربعة: النار والهواء والماء والتراب؛ وهي ليست عناصر في نظر العلم الحديث بل مركبات والعناصر في نظر العلم الحديث قد تجاوزت التسعين.

73 - ((الفرا الحمار الوحشي؛ وسبب المثل: أَنَّ جماعة خرجوا للصيد، فاصطاد أحدهم أرنباً، والثاني ظبياً، والثالث حماراً، فسخر الأولان من الثالث، فقال: ((كل الصيد في جوف الفَرَا)) = أي إِنَّ ما صدته يشتمل على ما عندكما. وليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي؛ واستأذن أبو سفيان على النبي (ص) فحجبه قليلاً، فلما عاتبه قال له: ((يا أبا سفيان أنت كما قيل: كل الصيد في جوف الفَرَا)) أي إذا حجبتك قنع كل محجوب.

- ليس على الله بمستنكر
والمعني بقول أبي تمام:
فلو صورت نفسك لم تزدها
والمراد بقول أبي الطيب:
ذكر الأناط لنا فكان قصيدة
- أن يجمع العالم في واحد⁽⁷⁴⁾
على ما فيك من كرم الطباع⁽⁷⁵⁾
كنت البديع الفرد من أبياتها⁽⁷⁶⁾

74 - في سرح العيون: ((وليس لله بمستنكر)): البيت لأبي نواس في مدح الفضل بن يحيى من قصيدة يقول فيها مخاطباً الرشيد:

قولا لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد:
أنت- على ما بك من قدرة- فلست مثل (الفضل) بالواحد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

75 - البيت لأبي تمام من قصيدة في مدح مهدي بن أشرم يقول فيها:
جعلت الجود لألاء المساعي وهل شمس تكون بلا شعاع؟
ورأيتك مثل رأي السيف سحت مشورة حده عند المصاع
ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

76 - البيت للمتني من قصيدة يمدح بها محمد بن أحمد بن عمران يقول فيها:
أعيا زوالك عن محل نلته لا تخرج الأقمار عن هالاتها
ذكر الأناط لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أبياتها

فكدمت في غير مكدم⁽⁷⁷⁾، واستسمنت ذا ورم⁽⁷⁸⁾، ونفخت في غير
ضرم⁽⁷⁹⁾؛ ولم تجد لرمح مهزاً، ولا لشفرة محزاً⁽⁸⁰⁾؛ بل رضىت من الغنيمة
بالإياب⁽⁸¹⁾، وتمنت الرجوع بخفي حنين⁽⁸²⁾، لأن قلت:

77 - الكدم: العض؛ المكدم: موضع العض؛ ((كدمت في غير مكدم)) مثل يضرب لمن يطلب شيئاً لا
يتمكن منه.

78 - لم ترد هذه الجملة في نهاية الأرب، الورم الانتفاخ؛ والمعنى مأخوذ من قول المتنبي:
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

79 - في نهاية الأرب ((ونفخت في غير فحم))؛ الضرم: التهاب النار، والمعنى مأخوذ من قول عمرو بن
معد يكرب:

ولو نار نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد

80 - في سرح العيون ((ولم تجد لريح مهيناً)) وفسرها بأن المرأة المرسله لم تجد لرمح كلامها بما يهزني
ويستميلني، ولا لشفرة احتياها ما يحز ويقطع؛ وفي المجموعة الأدبية ((لرمحك)) وقد آثرنا رواية نهاية
الأدب؛ ((لم أجد لشفرتي محزاً)) مثل يضرب في تعذر الحاجة أي لم أجد مجالاً لعزمي؛ والمعنى: إنها لم
تجد لكلامها تأثيراً ولا لاندفاعها مجالاً، فما هزت رجلاً ولا سنت حذاء.

81 - ((رضيت من الغنيمة بالإياب))؛ مثل يضرب لمن قنع - بعد ما بذل من جهد - بالرجوع إلى بيته
سالمًا. وهو مأخوذ من قول امرئ القيس:

وقد طوّقت في الأفاق، حتى رضىت من الغنيمة بالإياب

82 - كان حنين إسكافياً ساومه أعرابي على خفين فأغاظه؛ فوضع حنين في طريقه أحد الخفين، فقال
الأعرابي: لو كان معه زميله!! ثم سار قليلاً فوجد الخف الآخر، فعقل بعيره، ورجع ليأخذ الأول؛ فخرج
الإسكافي من مكمنه وأخذ البعير، ورجع الأعرابي بالخفين وأضاع بعيره؛ فقبل فيه ((رجع بخفي حنين))
وهو مثل يضرب للخيبة.

((لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ))⁽⁸³⁾

وَأُنْشَدْتُ:

على أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صَرْنَ كُلَّهَا عجائب، حتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ⁽⁸⁴⁾
وَنَخَرْتُ وَكَفَرْتُ، وَعَبَسْتُ وَبَسَرْتُ⁽⁸⁵⁾، وَأَبْدَأْتُ وَأَعَدْتُ، وَأَبْرَقْتُ

83 - في المجموعة الأدبية وجمع الأمثال ((لقد ذل))! كان غاوي بن ظالم سادناً لصنم يعبد به بنو سليم في الجاهلية، فرأى ثعلباً أقبل على الصنم وبال عليه، فقال: يا بني سليم والله ما يضر ولا ينفع؛ ولا يعطي ولا يمنع، ثم أنشد:

أرَبَ يُولُ الثُّعْلَبَانُ برأسه؟ لقد هان من بالَت عليه الثَّعَالِبُ!!!
وذهب غاوي بن ظالم إلى النبي (ص) فأسلم، فسماه راشد بن عبد ربه؛ الثَّعْلَبَان: ذكر الثَّعَالِب.

84 - في المجموعة الأدبية ((وأنشدت لها))، البيت لأبي تمام من قصيدة يرثي بها غالباً الصفدي يقول فيها:

وقلْتُ احْيِ! قالوا أَخْ ذُو قرابة؟ فقلْتُ لهم: إن الشكولَ أقاربُ
صديقيَ في رأيي وعزمي ومذهبي وإن باعدتُنا في الأصولِ المناسبِ
عجبتُ لصبري بعده وهو ميتٌ وكنتُ امرءاً أبكي دماً، وهو غائبُ
على أُنْهَا الْأَيَّامُ قَدْ صَرْنَ كُلَّهَا عجائب، حتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

85 - التَّخِير: صوت يصدر من الأنف وأكثر ما يكون عند الغضب، الكفر التبرؤ من الشيء، قال تعالى: ((ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض))؛ التعيس قطوب الوجه من ضيق الصدر؛ البسر: التفتيط والعبوس أو القهر، قال تعالى: ((ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يُفعل بها فاقرة)) أي كالخلة نتوقع أن تحل بها كارثة، قال تعالى في شأن الوليد بن المغيرة: ((ثم نظر، ثم عبس = وبس)). وفي سرح العيون ((ونخرت وبسرت)، وعبست فكفرت) وقد أثرتنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية الأرب.

وأرعدت، وهممت ولم أفعل وكدت وليتني⁽⁸⁶⁾، ولولا أن للجوار ذمة، وللضيافة حرمة، لكان الجواب في قذال الدُمستق⁽⁸⁷⁾؛ ولكن النعل حاضرة إن عادت العقرب⁽⁸⁸⁾، والعقوبة مُمكنة إن أصرّ المذنب وهبها لا تلاحظك بعين

86 - أي هممت بقتل هذه المرأة ولم أنفذه، وقد كدت أن أفعله وليتني فعلته؛ وهو شطر بيت لضايئ بن الحارث بن أرتاة، كان بذيقاً كثير الشرور حبسه عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنه دهم صبياً بدابته فقتله، ثم خرج من السجن، فاستعار كلب صيد من بني تمشل وماطل في رده، فألحوا عليه فقال:

فأمكم لا تتركوها وكلبكم فإن عقوق الأمهات كبير
إذا اكتنفت من آخر الليل شخصه يظل له فوق الفراش هدير
فاستعدوا عليه عثمان، فقال له: ويلك: ما سمعت أحداً يرمي امرأة بكلب غيرك، ثم حبسه؛
فأعدّ حديدة لقتله فأخذت منه وترك مهملاً في السجن فقال:
هممت.. ولم أفعل... وكدت.. وليتني تركت على عثمان تبكي حالله

87 - القذال: جماع مؤخر الرأس؛ المعنى: لولا أنه صار لهذه المرأة حرمة بدخول منزلي وضيافتي لفعلتُ بها فعل سيف الدولة بالدمستق وهو بطريق قاد جيشاً من الروم لحرب سيف الدولة فارتد مهزوماً منكسراً؛ والمعنى مأخوذ من قول المتنبي من قصيدة يمدح بها سيف الدولة يقول فيها:
رأى ملك الروم ارتياحك للندى فقام مقام المجتدي المتملق
وكنّت إذا كاتبته قبل هذه كتبت إليه في قذال الدُمستق

88 - آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية ((والنعل حاضرة)) وهو مثل مأخوذ من قول الفضل بن العباس المهلي:
إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضره

كَلِيلَةٌ عَنْ عِيوبَكَ⁽⁸⁹⁾، مَلُؤَهَا حَبِيبُهَا⁽⁹⁰⁾، وَحَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدَّ⁽⁹¹⁾، وَكَانَتْ إِنَّمَا
حَلَّتْكَ بِحَلَاكَ وَرَسَمْتُكَ بِسِمَاكَ⁽⁹²⁾، وَلَمْ تَعْرِكَ شَهَادَةً، وَلَا تَكَلَّفْتُ لَكَ زِيَادَةً، بَلْ
صَدَقْتُ سَنَ بَكْرُهَا فِيمَا ذَكَرْتُهُ عَنْكَ⁽⁹³⁾، وَوَضَعْتُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ بِمَا

89 - كَلِيلَةٌ: ضَعِيفَةٌ؛ وَالْمَعْنَى: هَبْ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمُرْسَلَةَ صَدَقْتُ فِيمَا تَحَدَّثْتُ بِهِ عَنْكَ، وَقَالَتْ مَا
اعْتَقَدْتُهُ فِيكَ (فَإِنْ مَنْظَرُكَ الْقَبِيحَ يَغْنِي عَنْ خَيْرِكَ).. وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَةِ ((حَبْلُ الشَّيْءِ يَعْصِي
وَيَصْمُ)) وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيِّ:
وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً فَإِنْ عَرَضْتَ أَيقِنْتُ أَلَا أَخَالِيَا
وَعَيْنُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنْ عَيْنُ السَّخَطِ تَبْدِي الْمَسَاوِيَا

90 - مَلُؤَهَا حَبِيبُهَا: تَرَى حَبِيبُهَا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ مَجْنُونٍ لَيْلَى:
أَهَابِكِ إِجْلَالًا، وَمَا بِكَ قَدْرَةٌ عَلَيَّ، وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنِ حَبِيبِهَا
وَمَا هَجَزَتْكَ النَّفْسُ أَنْكَ عِنْدَهَا قَلِيلٌ، وَلَكِنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

91 - الْمَعْنَى: إِنْ حَبِيبُهَا فَتَانٌ فِي نَظَرِهَا وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ عُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ:
وَلَقَدْ قَالَتْ لِأَتْرَابِهَا ذَاتَ يَوْمٍ - وَتَعَرَّتْ تَبْتَرِدُ -
: أَكَمَا يَنْعَتَنِي تَبْصُرَنِي عَمَرَكَ اللَّهُ! أَمْ لَا يَقْتَصِدُ؟
فَتَضَاحَكْنَ، وَقَدْ قُلْنَ لَهَا: ((حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدَّ))
حَسَدٌ مُحْمَلْنَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيمًا كَانَ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ
وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُمْ: ((زَيْنٌ فِي عَيْنِ وَالِدٍ وَلَدُهُ)) وَ ((كُلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مَعْجَبَةٌ)).

92 - وَسَمَتُكَ بِسِمَاكَ: مِيزَتُكَ بِمَا امْتَرَزْتَ بِهِ.

93 - الْبَكْرُ: الْفَتَى مِنَ الْإِبِلِ، وَفِي الْأَمْثَالِ ((صَدَقَنِي سَنَ بَكْرُهُ)) وَهُوَ مِثْلُ يَضْرِبُ فِي الصَّدَقِ،
وَأَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا سَاوَمَ أَغْرَابِيًّا فِي بَعِيرِهِ، وَسَأَلَهُ عَنْ سَنِهِ، فَقَالَ لَهُ: بَكْرٌ، فَقَالَ الرَّجُلُ ((صَدَقَنِي سَنَ
بَكْرُهُ)).

نسبته إليك⁽⁹⁴⁾، ولم تكن كاذبة فيما أثقلت به عليك، فالمعدي تسمع به خير من أن تراه⁽⁹⁵⁾.

هجين القذال⁽⁹⁶⁾، أرعن السبال⁽⁹⁷⁾، طويل العنق والعلاوة⁽⁹⁸⁾ مفرط الحمق

94 - الهناء: القطران، النقب: الثقب الذي تحدثه جرثومة الجرب في الجسم أو الجرب نفسه؛ وهو مأخوذ من أبيات قالها دريد بن الصمة، وكان قد مرّ بالخساء وهي تطلي بغيراً لها بالقطران حتى فرغت منه، فنصت ثيابها واغتسلت ودريد يراها ولا تشعر به، فقال فيها:

حيّوا تماضر واربعوا صحي	وقفوا، فإن وقوفكم حسي
ما إن رأيت ولا سمعت به	كاليوم هاني أينق جرب
متبدلاً تبدو محاسنه	يضع الهناء مواضع النقب

أي يضع الأمور في مواضعها، ثم خطبها فردته لكبر سنه؛ وفي نهاية الأدب ((فيما نسبته إليك)).
95 - في نهاية الأرب ((...تسمع به لا أن تراه)) وهو مثل مشهور، ورد على عدة صور منها: ((أن تسمع بالمعدي، أو: لا أن تسمع بالمعدي، والمختار: تسمع خير من أن تراه، ويروى: لا أن تراه)) وهو مثل يضرب لمن يكون خبره خيراً من منظره، وهو مثل قاله النعمان، لأن شقة ابن ضمرة كان يغير على ماله ويطلبه فلا يقدر عليه، فأمنه - وكان يعجبه ما يسمعه عنه - فلما رآه قال: ((تسمع بالمعدي خير من أن تراه)) فقال: أبيت اللعن!! إن الرجال ليسوا بجزر، وإنما يعيش المرء بأصغريه قلبه ولسانه. فصارت مثلاً؛ والجزر؛ الشاة السمينة.

96 - المحجين: من في نسبه هجنه أي قبح من جهة أمه، والمقرف من في نسبه قبح من جهة الأب؛ القذال: جماع مؤخر الرأس؛ هجين القذال: لثيم النسب يبدو لؤم نسبه من النظر إلى قذاله إذا أدبر، لأنه يخفض رأسه ذلاً وحياء أو لأنه كثير الفرار في الحروب.

97 - السبال: جمع سبلة وهي الشارب: أرعن السبال: أحقق الشارب، وخُصت الرعونة به لأنه مظهر الرجولة.

98 - العلاوة: أعلى الرأس والعرب يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحمق.

والغباوة، جافي الطبع، سيئ الجابة والسمع⁽⁹⁹⁾، بغيض الهيئة، سخيْفُ الذهاب
والجينة، ظاهر الوسواس، مُنتَنُ الأنفاس، كثيرُ المعايِب، مشهورُ المثالب⁽¹⁰⁰⁾،
كلامك متممة، وحديثك غممة، وبيانك قهقهة، وضحكك قهقهة، ومشيك
هرولة⁽¹⁰¹⁾، وغناك مسألة، ودينك زندقة، وعلمك مخرقة⁽¹⁰²⁾:
مساو!! لو قسمن على الغواني
لما أمهرن إلا بالطلاق⁽¹⁰³⁾

99 - الجابة: الإجابة، وفي الأمثال: أساء سهماً فأساء جابة))، وفي المجموعة الأدبية ((سيء الإجابة)).

100 - المثالب: النقائص.

101 - التمتة من معايب النطق المعدودة، قال الجاحظ: إنها التردد في التاء؛ الغممة: أن يصدر الصوت مسموعاً، ولا تظهر فيه مقاطع الحروف؛ القهقهة: الضحك الشديد، وهو خصلة منافية للوقار، والأفضل فيه التيسم؛ الهرولة: ضرب من العدو فوق المشي دون الجري، وهي مشية تنافي الاتزان وتشعر بالنزق؛ وشبيه بهذا قول المتنبي في هجاء إسحق بن كيغلف من قصيدة:
وارفق بنفسك!! إن خلقك ناقص واستر أباك، فإن أصلك مظلم
وغناك مسألة، وطيشك نفخة ورضاك فيشلة، وريك درهم

102 - الزندقة: الميل إلى وثنية الفرس القديمة نسبة إلى كتابي زند وزندين المنسويين إلى زرادشت ومزدك؛ ثم أصبحت الزندقة تطلق على كل من خرج على شريعة الإسلام: المخرقة نوع من التحايل لإظهار البراعة إيهاماً للناس بأنها كرامات.

103 - البيت لأبي تمام من أبيات يهجو بها الأعمش يقول منها:

دع ابن الأعمش المسكين يكي لداء ظلّ منه في وثاق
كحلّت بقبج صورته، فأضحى لها إنسان عيني في السياق
مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق

حَتَّى إِنَّ بَاقِلًا مَوْصُوفًا بِالبَلَاغَةِ إِذَا قُرْنَ بِكَ⁽¹⁰⁴⁾، وَهَبْنَقَةً مُسْتَحَقًّا لِاسْمِ
الْعَقْلِ إِذَا تُسَبِّ إِلَيْكَ⁽¹⁰⁵⁾، وَأَبَا غَبْشَانَ مَحْمُودًا مِنْهُ سَدَادُ الْفِعْلِ إِذَا أُضِيفَ
إِلَيْكَ⁽¹⁰⁶⁾، وَطَوَيْسًا مَأْثُورٌ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قَبِيسَ

104 - باقل بن عمرو بن ثعلبة الإباضي يضرب به المثل في العي يقال: ((أعبي من باقل))، قال
أبو عبيدة: بلغ من عيّه أنّه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً وحمله، فسأله شخص عن ثمنه ففتح
كفيه، وفرق أصابعه وأخرج لسانه، يشير بذلك إلى أحد عشر فهدب الظبي، قال المعري:
إِذَا وَصَفَ الطَّائِيَّ بِالْبَخْلِ مَادُّ وَعَيَّرَ قُسْتًا بِالْفَهَاهَةِ بِاقِلُ
فِيَا مَوْتُ زُرُّ!! إِنْ الْحَيَاةُ ذَمِيمَةٌ
وَيَا نَفْسَ حَدَى، إِنْ دَهْرُكَ عَازِلُ
والطائي: حاتم الطائي المشهور بالجود، ومادر يضرب به المثل في البخل، وقس مضرب المثل في
البلاغة.

105 - أثّرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية ((...مستوجب لاسم العقل إذا
أضيف إليك))؛ هو يزيد بن ثروان أحد بني قيس بن ثعلبة، ويسمى أيا الودعات لأنه نظم ودعاً
لنفسه في سلك، وجعله في عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع، فتناقله أخوه يوماً ولبس العقد، فارتبك
هينقه وقال له: أنت أنا، فترى من هو أنا؟.

106 - أبو غبشان مضروب به المثل في الحماقّة، ذكر الميداني في مجمع الأمثال: أن أبا غبشان
خزاعي كان يلي سدانة الكعبة فخدعه قصي فأسكره ثم اشترى منه مفاتيح الكعبة يزق خمر،
وأشهد عليه ودفعها لابنه عبد الدار، وطير به إلى مكة، فلما أشرف عليها رفع عقيرته صائحاً:
معاشر قريش هذه مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل قد ردّها الله عليكم من غير غدر ولا ظلم، فلما
أفاق أبو غبشان من سكره ندم ولات حين مندم، فقال الناس: ((أحق من أبي غبشان)) قال
الشاعر:

أَبُو غَبْشَانَ أَظْلَمُ مِنْ قُصَيٍّ وَأَظْلَمُ مِنْ بَنِي قَهْرٍ خَزَاعِي
فَلَا تَلْحَوْا قَصِيًّا فِي شَرَاهِ وَلَوْ مَوَا شَيْخَكُمْ إِنْ كَانَ بَاعَهُ

عليك⁽¹⁰⁷⁾؛ فوجودك عدمٌ، والاعتباطُ بكَ ندمٌ، والخيبةُ منكَ ظفرٌ، والجنةُ معكَ سقرٌ⁽¹⁰⁸⁾، كيف رأيتَ لؤمَكَ لكرمي كِفَاء؟ وضعتكَ لشرفي وفاء⁽¹⁰⁹⁾؟ وأتى جهلتَ أنَ الأشياءِ إنما تتجذبُ إلى أشكالها؟ والطيرَ إنما تقعُ على أمثالها⁽¹¹⁰⁾؟ وهلاً علمتَ أنَ الشرقَ والغربَ لا يجتمعان؟ وشعرتَ أنَ (ناديي) المؤمنِ والكافرِ لا يتقاربان⁽¹¹¹⁾؟ [وقلتُ]: الخبيثُ والطيبُ لا يستويان⁽¹¹²⁾؟ وتمنَّلتُ:

107 - اليمُنُ: البركة؛ طويس: هو عيسى بن عبد الله مولى بني مخزوم كان ماجناً ظريفاً، يقال إنه أول من غنى على الدف بالعربية، ويضربُ به المثلُ في الشؤم لأنه ولد يوم قبض رسول الله (ص)، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن ((وقيل بلغ الحلم)) يوم قُتل عمر، وتزوج يوم قُتل عثمان، ووُلد له يوم مقتل علي، وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار.

108 - المعنى: حياتك مثل فقدك، والفرحة بك تجلب الندم، والفشل منك ربح عظيم، واللجنة في صحبتك تنقلب إلى الجحيم.

109 - اللؤم: الدناءة في الأصل وفي الأخلاق؛ كِفَاء: مماثل ومناظر أو مُجَازٍ؛ الوفاء: العدل أو الطول؛ المعنى: كيف ترى لؤمكَ لكرمي مماثلاً؟ وذلتك لشرفي معادلة أو مطاولة؟

110 - في نهاية الأرب وشرح العيون ((تقع على ألافها)) وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية؛ أُنَى: كيف؟ المعنى: كيف تجهل أن الشيء ينجذب إلى مثيله؟ والطير تقع على نظائرها؟ فلا عجب إذا ملتُ إلى شكلي وإلفي، ولستَ منهما.

111 - كلمة (ناديي): زيادة من نهاية الأدب، وفيه ((أن ناديي المؤمن والكافر لا يتراءيان)) وقد آثرنا رواية شرح العيون والمجموعة الأدبية؛ النادي والندى والندوة: مجلس القوم ومكان حديثهم وتشاورهم ما داموا فيه؛ والمعنى: لا سبيل إلى تقاربنا كما لا سبيل إلى اجتماع الشرق والغرب، ولا يمكن اتفاقنا كما لا يمكن اتفاق مجلسي المؤمنين والكفار.

112 - نظرَ الكاتب إلى قوله تعالى: ((قل لا يستوي الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث)).

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ!! كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ⁽¹¹³⁾؟

وَذَكَرْتُ أَتَى عِلْقٌ لَا يُبَاعُ مِمَّنْ زَادَ⁽¹¹⁴⁾، وَطَائِرٌ لَا يُصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ مَنْ أَجَادَ⁽¹¹⁵⁾، مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنَةِ، وَتَرَشَّخْتَ لِلتَّرَفَةِ⁽¹¹⁶⁾.

[أُولَى لَكَ!!]⁽¹¹⁷⁾ وَلَوْلَا أَنْ جَرَحَ الْعَجْمَاءُ جُبَارَ⁽¹¹⁸⁾، لَلْقَيْتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارَ⁽¹¹⁹⁾، فَمَا هَمَّ إِلَّا بِدُونِ مَا هَمَمْتَ بِهِ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِأَيَسَرِ مَا

113 - البيت لعمر بن أبي ربيعة في الثريا بنت عبد الله حينما تزوجها سهيل بن عبد العزيز بن طلحة أو سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري ورحل بها إلى الشام فقال عمر (وفي البيتين تورية بنجمي الثريا وسهيل):

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ؟

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل بماني

عمر ك الله: قَسَمَ ببقاء الله ودوامه، أو سألت الله تعميرك، وعلى هذا المعنى يكون غير قسَم.

114 - العِلْق: الثمين؛ لا يباع ممن زاد.

115 - الغرض: الهدف.

116 - الترشيح: الاستعداد للشيء؛ الترفة: التهنئة بالزواج من قولهم للمتزوج: ((بالرفاء والبنين))

أي بالالثام والاتفاق وجمع الشمل، ومنه قول عمر بن الخطاب لما أصبح معرساً بأُم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من زوجته السيدة فاطمة: رفثوني؛ ثم صارت الترفة عامة في الزواج وغيره؛ وفي الحديث: ((إذا رقاً أحدكم أخاه فليقل: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير)).

117 - زيادة واردة في نهاية الأرب، أولى لك!!: تحديد ووعيد أي قاربك ما يهلكك، أو الشر

أقرب إليك، أو اندم على ما فاتك، أو كلمة تلهف يقولها الرجل إذا أفلت من مصيبة، أو دنوت من الهلكة، قال تعالى: ((فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى، ثم ذهب إلى أهله يتمطى،

أُولَى لَكَ فَأُولَى!! ثم أولى لك فأولى!!)) أي قربت من الوبال، قالت الخنساء:

هممتُ بنفسِي كلَّ الهموم فأولَى لنفسِي!! أولى لها!!

تَعَرَّضْتَ لَهُ⁽¹²⁰⁾، أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ؟ وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ؟
[أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ؟]⁽¹²¹⁾:

بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلٌ مَسْمُوعٌ وَتُنْكُحُ فِي أَكْفَانِهَا الْحَبِطَاتُ⁽¹²²⁾

118 - ((جرح العجماء جُبار)) حديث شريف: العجماء : البهيمة؛ جبار: هدر؛ وعدم القصاص في جرح البهيمة لأنَّها لا تعقل، ويضرب به المثل لما يستهان به.

119 - يسار: عبد أسود دميم يقال له يسار الكواعب لأنَّ النساء كنَّ يضحكن منه لقبحه، فكان يظنَّهنَّ معجبات به، حتى نظرتُ إليه امرأة مولاه (أو بنته) فضحكتُ فطمع فيها وراودها، فقالت له: مهلاً فإنَّ للحرائر طيباً أشمك إياه، فقال: هاتيه، فأتت بطيب وموسى فأشمته الطيب ثم أنحت بالموسى فقطعت أنفه، فصاح!! فقالت له صبراً على مجامر الكرام، فضرب به المثل؛ ولما ماتت امرأة الفرزدق أراد الخطبة إلى بسطام بن قيس، فقال جرير يهجو:

فهل أنت - إذ ماتت أتانك - راحلٌ
إلى آل بسطام بن قيس بخاطب؟
ولني لأحشى إن رحلت إليهم
عليك الذي لاقى يسار الكواعب

120 - آثرنا رواية نهاية الأرب وفي سرح العيون ((فما همَّ إلا بيعض ما به هممت، ولا تعرض إلا لأيسر ماله تعرضت)).

121 - ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب؛ ثاب إليك: رجع إلى ذهنك.

122 - البيت للفرزدق، ومعناه: أن بني دارم لا ينبغي أن يصاهرهم إلا بنو مسمع فأما بنو الحبطات فلا؛ بنو دارم: من ذرية دارم وهو مالك بن حنظلة التميمي بيته أكبر بيوت بني تميم؛ آل مسمع: بيت بكر بن وائل من بني قيس بن ثعلبة؛ الحبطات: بنو الحارث بن مالك بن عمرو بن تميم، وفيهم يقول الشاعر:

وجدنا النَّيْبَ مِنْ شَرِّ المطايا
كما الحِطَاتُ شَرَّ بني تميم

وَهَلَّا عَشَيْتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ⁽¹²³⁾، وَمَا أَمْنَكَ أَنْ تَكُونَ وَافِدَ الْبِرَاجِمِ⁽¹²⁴⁾؟ أَوْ تَرْجَعَ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمَّسِ⁽¹²⁵⁾؟ أَوْ أَفْعَلَ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عَلْفَةَ بِالْجَهْنِيِّ، إِذْ جَاءَهُ خَاطِبًا، فَذَهَنَ اسْتُهُ بَزِيَّتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ⁽¹²⁶⁾؟ وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِينَا؟

123 - في الأمثال ((عَشَرَ وَلَا تَغْتَرَّ)) وهو مثل يضرب للاحتياط والأخذ بالثقة؛ ومعناه: هَلَّا رَفَقْتَ بِإِبْلِكَ فَأَطَعَمْتَهَا بِالْعَشِيِّ لِأَنَّكَ لَا تَضْمَنُ مَا يَكُونُ فِي غَدٍ؛ عَشَى: رَفَقَ.

124 - في سرح العيون والمجموعة الأدبية ((وَمَا أَشْكُ أَنْكَ تَكُونَ وَافِدَ الْبِرَاجِمِ)) وقد آثرنا بعض الروايات في نهاية الأرب.

من الأمثال: ((أَشْقَى مِنْ وَافِدِ الْبِرَاجِمِ)) والبراجم خمسة من أولاد حنظلة، وسبب المثل أن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً في ثأر أخ له، وكان قد آلى أن يحرق منهم مئة؛ فمَرَّ رجل اسمه عَمَّار (أحد البراجم) فشم رائحة اللحم فظنه طعاماً فأتى إليه، فأكمل الملك به المائة: وَغَيَّرَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِحُبِّ الطَّعَامِ بِسَبِيهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا مَا مَاتَ مَيْتٌ مِنْ تَمِيمٍ وَسِرَّكَ أَنْ يَعِيشَ فَجَى بَزَادٍ

125 - ((صَحِيفَةُ الْمُتَلَمَّسِ)) تضرب مثلاً لمن يحصل له الضرر من حيث يتوقع النفع؛ والمتلمس: شاعر مجيد من شعراء الجاهلية، وقد مع ابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة، فحنق عمرو عليهما يوماً، فلم يظهر لهما الموحدة خوفاً هجائهما، وأرسل كلاً منهما بكتاب إلى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما، وأوهمهما أنه كتب لهما بصلة من عامله؛ ففتح المتلمس صحيفته وعرف ما بها فمزقها؛ ونصح طرفة أن يفعل كما فعل، فأبى وظن أن الملك لا يجروء على هذا خيفة قومه؛ فلاقى مصرعه.

126 - عقيل بن علفَةَ البريعي من شعراء الدولة الأموية، كان أهوج جافياً شديداً الاعتزاز بنسبه عنيف الغيرة، وكان لا يرى أحداً كفوّاً لمصاهرته، خطب عبد الملك بن مروان إحدى بنات عقيل لأحد أبنائه فأطرق ساعة، ثم قال: إِنْ كَانَ وَلَايْدُ فَجَتَّبَنِي هَجْنَاءُكَ، أَيِ أَوْلَادِ الْإِمَاءِ، وَدَخَلَ عَلَى عَثْمَانَ بْنِ حِيَانَ وَالِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ: زَوْجَنِي بَعْضَ بَنَاتِكَ، فَقَالَ عَقِيلٌ: أَبْكَرَةُ مِنْ إِبْلَى تَعْنِي؟ فَنَهَرَهُ عَثْمَانُ؛ وَكَانَ لَهُ جَارٌ جَهْنِي تَقْدَمُ لَخْطِيبةِ ابْنَتِهِ وَكَانَ أَحْمَرُ اللَّوْنِ، فَغَضِبَ عَقِيلٌ وَكَتَفَهُ وَدَهَنَ اسْتَهُ بَزِيَّتٍ وَأَدْنَاهُ مِنْ قَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَذَاهُ أَشَدُّ الْإِيذَاءِ، وَقَالَ فِيهِ:

رَدَدْتُ صَحِيفَةَ الْقَرْشِيِّ لَمَّا أَتَتْ أَعْرَاقَهُ إِلَّا أَحْمَرَارَا

واتَّصل ترائينا؟ فيدعوني إليك ما دعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد،
وقرب الوساد⁽¹²⁷⁾: وهل فقدت الأراقم⁽¹²⁸⁾ فأنكح في جنب؟ أو عضلني همام
ابن مرة فأقول: ((زوج من عود خير من قعود))⁽¹²⁹⁾.

ولعمري!! لو بلغت هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الحطة، وما رضىت بهذه
الخطة⁽¹³⁰⁾، فالنَّاز ولا العار، والمنية ولا الدنية، والحرّة تجوع ولا تأكل
بنديها⁽¹³¹⁾.

127 - ابنة الخس: هي هند بنت الخس بن حابس الإيادي، وكانت تعد من حكيّمات نساء العرب؛
ولكنها زنت بعدها فلما سئلت ما حملك على الزنى؟ قالت: قرب الوساد وطول السواد، وزاد
بعضهم في حديثها ((وحب السفاد)) لأن أباهما كان قد منعها من الزواج. السواد: السرار يقال
ساودته إذا أسررت إليه كلاماً وأسرّ هو إلى كلاماً، وفي الحديث الشريف: ((السواد من السحر)).
128 - الأراقم: حيّ من تغلب؛ جنب: حيّ من اليمن، وقد أشار بهذا إلى قول مهلهل بن ربيعة لما
رحل من قومه بعد أن أضنتهم حرب البسوس، ونزل في طريقه على حي من اليمن فخطبوا إليه ابنته،
وساقوا إليها جلوداً من آدم فقال:

أعزّز على تغلب بما لقيت أحت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدّها الأراقم من جنب، وكان الحياء من آدم

129 - عضل الولي فثأته: منعها من الزواج؛ عضل همام بن مرة بن ثعلبة بناته الأربع من الزواج،
فاستمع إليهنّ مرة وهنّ لا يعلمن، فسمع كلاً منهنّ تتمنى الزواج من رجل يكون متصفاً بصفات
خاصة ذكرناها، إلا الصغرى فإنها صمتت، فلما ألحت عليها أخواتها بأن تذكر صفات الزوج الذي
تتمناه، قالت: ((زوج من عود خير من قعود)) فصارت مثلاً؛ ولما سمع أبوهن هذا الحديث أسرع
في تزويجهن.

130 - في سرح العيون والمجموعة الأدبية ((.. ولا رضىت بهذه الخطة)) وقد أخذنا برواية نهاية
الأرب؛ والمعنى: وحياتي لو بلغ بي الأمر مبلغه لارتفعت عن هذه المذلة ولم أرض بهذه السبّة.

فَكَيْفَ؟ وفي أبناء قومك منكح

وفتيان هزان الطوال الغرانقة⁽¹³²⁾

* * *

ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا لأمتطي الثور بعد الجواد⁽¹³³⁾ فإنما
يتيمم من لم يجد ماءً، ويرعى الهشيم، من عديم الجميم⁽¹³⁴⁾ ويركب الصعب من

131 - في المجموعة الأدبية ((من كد ثدييها))؛ أمثلة ثلاثة تضرب لمن يؤثر التلف على قبح السيرة،
فالحرّ يفضل التعذيب بالنار على احتمال العار، ويؤثر الموت على الذل، والمرأة الشريفة الحرة
ترضى بالجوع ولا ترضى أن تتجر بشرفها وكرامتها، أو تكون مرضعاً بمنزلة الخادم.

132 - البيت للأعشى، هزان بن يقدم: بطن من العرب؛ الغرانقة: جمع غرنوق أو غرنيق وهو
الشاب الأبيض الجميل؛ تزوج الأعشى امرأة من عنزة فلم يرضها، فطلقها وقال فيها من أبيات:

أيا جاري بي، فإنك طالقه كفاك أمور الناس غاد وطارقه
وبيني حصان الفرج غير ذميمة وموموقة فينا كذاك ووامقة
وذوقي فتى قوم، فإنّي ذائق فتاة أناس مثلما أنت ذائقة
وكيف؟ وفي شبان قومك منكح وفتيان هزان الطوال الغرانقة

وفي سرح العيون ((فقد كان في أبناء قومك منكح)): وفي المجموعة الأدبية ((في أبناء عمي)).

133 - في سرح العيون والمجموعة الأدبية ((ولا أمتطي)) وفي نهاية الأرب ((دون الجواد))؛ المعنى:
ما كنت لأترك فتيان قومي لأنصرف إليك، مع أنّ نسبته إليهم كنسبة الرماد إلى المسك والثور
إلى الجواد، قال المتنبي:

ومن ركب الثور بعد الجوا د أنكر أظلافه والعقب
الغيب: اللحم المتدلي تحت الحنك.

134 - في المجموعة الأدبية ((فإنما يتيمم من لا ماء له))؛ الهشيم: النبات اليابس المتكسر؛
والجميم: النبات الكبير أو الذي نخض وانتشر، أو الذي طال بعض الطول ولم يتم نموه؛ والمعنى،
يرعى النبات المتكسر من عدم النبات الأخضر الغض، وفي سرح العيون ((من عدم الجميم))؛
وشبيه بهذا قول أبي علي البصري:

لعمر أيبك ما نُسب المعلّى إلى خير، وفي الدنيا كرم

لا ذلولَ له⁽¹³⁵⁾؛ ولعلَّكَ إِنَّمَا غَزَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبُوتِي إِلَيْهِ، وشهدتَ مُسَاعَفَتِي
لهُ، مِنْ أَقْمَارِ الْعَصْرِ، وَرِيَّاحِينَ الْمَصْرِ⁽¹³⁶⁾ الَّذِينَ هُمُ الْكَوَكِبُ عُلُوْ هِمِّهِمُ
وَالرِّيَّاضُ طَيْبَ شَيْمِ

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلُّ لَاقِيَتْ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النَّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي⁽¹³⁷⁾
فِيحْنٌ قَدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا⁽¹³⁸⁾، مَا أَنْتَ وَهْمٌ؟ وَأَيَّنَ تَقَعُ مِنْهُمْ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَائِ
عَمَرُو فِيهِمْ⁽¹³⁹⁾، وَكَالْوَشِيظَةِ فِي الْعَظَمِ بَيْنَهُمْ⁽¹⁴⁰⁾، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعَرَ

ولكنَّ البلادَ إذا اقشَعَرَتْ وصُوحَ نبتِها رُعيَ المَشيْمِ

135 - الصعب من المطايا: الجامح؛ والذلول منها: السهل القياد.

136 - آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية ((ريحان المصير))؛ الصبوة :
الميل والشوق؛ المصير: المدينة.

137 - البيت من شعر عبيد بن العرنس في مدح بني بدر الغنويين من أبيات يقول منها:

هينون لينون أيسارٌ ذوو كرم سُوَّاسُ مَكْرَمَةِ أَبْنَاءِ أَيْسَارِ
مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلُّ لَاقِيَتْ سَيِّدَهُمْ مِثْلَ النَّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي

138 - من الأمثال ((حَنْ قَدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا)) القَدْحُ: أَحَدُ قَدَاحِ الْمَيْسَرِ، وَإِذَا كَانَ أَحَدُ الْقَدَاحِ مِنْ
غَيْرِ جَوْهَرِ الْقَدَاحِ ثُمَّ أَجَالَهُ الْمَفِيزُ خَرَجَ لَهُ صَوْتُ يَخَالِفُ أَصْوَاتَهَا فَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهَا؛ وَيَضْرِبُ
لِرَجُلٍ يَفْتَخِرُ بِقَبِيلَةٍ لَيْسَ مِنْهَا أَوْ يَمْتَدِّحُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ، وَتَمَثَّلُ بِهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَ =أَرَادَ النَّبِيَّ
(ص) قَتْلَ عَقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ، فَقَالَ عَقْبَةُ: أَمْ أَقْتُلُ مِنْ بَيْنِ قَرِيْشٍ؟ فَقَالَ عَمْرُ: ((حَنْ قَدْحٌ لَيْسَ
مِنْهَا))؛ وَفِي الْمَجْمُوعَةِ الْأَدَبِيَّةِ وَسَرَحِ الْعَيُونِ ((نَحْنُ قَدْحٌ)).

139 - المعنى: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْهُمْ، فَأَنْتَ مِثْلُ الْوَائِ الَّتِي تُلْحَقُ فِي الْكِتَابَةِ بِاسْمِ عَمْرُو، وَلَيْسَتْ مِنْ
حُرُوفِهِ؛ وَالْمَعْنَى مَاخُذٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ فِي أَشْجَعِ السَّلْمِيِّ:

أَتَيْهَا الْمَدْعَى سَلِيماً سَفَاهاً لَسْتُ مِنْهَا وَلَا قَلَامَةُ ظَفَرٍ
إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سَلِيمٍ كَوَاوٍ أَلْحَقْتُ فِي الْمَجَاءِ ظُلماً بِعَمْرُو

تابوتك⁽¹⁴¹⁾، وتجافيت لقميصك عَنْ بعضِ قوتك⁽¹⁴²⁾، وعطرت أردانك، وجرزت هميانك⁽¹⁴³⁾، واختلت في مشيتك، وحذفت فضول لحيتك⁽¹⁴⁴⁾، وأصلحت شاربك، ومططت حاجبك⁽¹⁴⁵⁾، ورققت خط عذارك⁽¹⁴⁶⁾، واستأنفت عقد إزارك⁽¹⁴⁷⁾، رجاء الاكتئاب فيهم⁽¹⁴⁸⁾ وطمعاً في الاعتداد منهم⁽¹⁴⁹⁾، فظننت

ويروى ((هل لمن يدعي ولاء سليم)). وفي سرح العيون ((وأتى تقع منهم)) وقد أثرنا رواية نهاية الأرب.

140 - الوشيطة: قطعة عظم تكون زائدة عن العظم الصميم، أو قطعة خشب يُشعبُ بها القدح، وهم وشيطة في قومهم أي حشو فيهم، قال الحسين رضي الله عنه لعمر بن العاص: ((وغلث في قريش، وإنما أنت منها كالوشيطة في العظم)).

141 - لعل معناها: لازمت منزلك، واختفيت فيه معظم وقتك بخلاً، حتى لا تتورط في النفقات؛ أو لعله: أتيت بأخر ما عندك، وأنفقت آخر ما تملك لتظهر بمظهر الثراء.

142 - المعنى: تنازلت عن بعض طعامك لتظهر بقميص جديد توهم به الناس أنك ثري؛ أي جعت لتتزين.

143 - الأردن: أكمام القميص؛ الهميان: السروايل أو كيس يشده الإنسان في وسطه لحفظ الدراهم، قال الشاعر:

يشد هميانه على عدم وذاك من حقه ومن تيهه

والمعنى: عطرت ملابسك، وسحبت ذبول التيه والكبرياء، أو سحبت كيس النقود إظهاراً للثروة والجاه.

144 - احتال في مشيته: تبخر وتمايل فيها تيهاً وكبراً؛ وحذف فضول لحيته: قص ما تناثر أو شذ فيها من الشعر ليسويها حتى يبدو في مظهر مناسب.

145 - مطّ حاجبيه: تكبر؛ أو مدهما لجانبي الوجه بقصد الزينة كما تفعل بعض السيدات الآن.

146 - في نهاية الأرب ((ودققت خط عذارك))؛ العذار: منبت اللحية من الخدين؛ والمعنى: إنك سويت مسيل لحيتك في أعلى خديك وجعلتها رقيقة خفيفة مبالغة منك في الزينة.

147 - الإزار: الرداء؛ والمعنى: استأنفت إصلاح ملابسك ومطابقتها لمقتضيات زينتك.

عجراً⁽¹⁵⁰⁾، وأخطأت أُنْتُكَ الحفرة⁽¹⁵¹⁾؛ والله لو كسأكَ مُحَرَّقُ البردين، وحلَّتْكَ ماريةُ بالقرطين⁽¹⁵²⁾، وقَلَّدَكَ عمرو الصمصامة⁽¹⁵³⁾، حملَكَ الحارثُ على

148 - آثرنا رواية نهاية الأرب، وفي سرح العيون والمجموعة الأدبية ((رجاء الاكتنان فيهم))؛
الاكتنان: التستر أي راجحاً أن تستتر في وسط هؤلاء الغنيان ((أقمار العصر ورياحين المصر))،
الاكتتاب: الاندماج في عددهم من اكتتب: كتب نفسه في ديوان السلطان مع الخاصة.

149 - الاعتداد منهم : الاندماج في عددهم.

150 - المعنى منظور فيه إلى قول الخنساء:

وَمَنْ ظَنَّ مَنْ يَلَاقِي الْحُرَّ
بِأَلَا يَصَابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزاً

151 - مُحَرَّقٌ هو عمرو بن المنذر بن ماء السماء الشهير بعمرو بن هند، وسُمِّيَ مُحَرَّقاً لأنه أحرق مئة من بني حنظلة في ثأر أخ له؛ أما قصة البردين فخلاصتها أن وفود العرب اجتمعت عند عمرو بن هند، فأخرج بردين من لباسه، وقال: ليقيم أعز العرب فليأخذهما؛ فقام عامر بن أحيمر فأخذهما قائلاً: العز كله في معد، والعدد في معد، ثم في نزار ثم في مضر ثم في خندف ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في بحدلة؛ فمن أنكر هذا فلينافري؛ فسكت الناس؛ فقال عمرو: هذه عشيرتك!! فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة وأخو عشرة وخال عشرة ثم أخذ البردين وانصرف..

152 - مارية بنت ظالم بن وهب الكندي: زوجة الحارث الأكبر الغساني ملك الشام، كان في قرطبيها لؤلؤتان كبيرتان يتوارثهما الملوك؛ وقد وصلنا إلى عبد الملك بن مروان فأهداهما إلى ابنته لما زوجها لعمر بن عبد العزيز، ويقال إن مارية أهدتهما إلى الكعبة.

153 - في سرح العيون ((بالصمصامة)) وقد آثرنا رواية نهاية الأرب، والمجموعة الأدبية؛ عمرو ابن معد يكرب الزبيري من فرسان العرب في الجاهلية والإسلام، وقد أبلى في موقعة القادسية أعظم البلاء وله شعر وأخبار مشهورة؛ والصمصامة: سيفه، ويضرب به المثل في المضاء، يقال إنه توارثه من هدايا بلقيس لسليمان عليه السلام؛ ويروى أنَّ عمر بن الخطاب طلبه منه، فبعثه إليه فلم يجده كما سمع، فحدثه في هذا فقال: إنني بعثت إليك الصمصامة، ولم أبعث إليك اليد التي تضرب به.

النعماء⁽¹⁵⁴⁾، ما شككت فيك، ولا تكلمت بملء فيك، ولا سترت أباك، ولا كنت
إلا ذاك⁽¹⁵⁵⁾.

وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظرف
والأدب⁽¹⁵⁶⁾، ألسنت تأوي إلى بيت قعيدته لكاع⁽¹⁵⁷⁾؟
إذ كلهم عزب خالي الذراع⁽¹⁵⁸⁾، وأين من أنفرد به، ممن لا أغلب إلا على
الأقل الأخس منه⁽¹⁵⁹⁾؟ وكم بين من يعتمدني بالقوة الظاهرة، والشقة الوافرة،

154 - الحارث بن عباد التغلبي سيد بني وائل، والنعماء اسم فرسه، وكان قد اعتزل حرب
البسوس. فلما قتل ابنه فيها اشترك في خوض غمارها، وقال:

قربا مربوط النعماء مني لقيت حرب وائل عن حبال
لم أكن من جناحها علم الد ه، وإني بحزها اليوم صال

155 - عبارة ((ولا تكلمت بملء فيك)) زيادة من نهاية الأرب، المعنى: لو كسك محرق البردين؛
وحلتك مارية بالقرطين... ما حملتني على الشك فيك، لأن عيونك أظهر من أن تخفى وأوضح
من أن تتوارى خلف التزين والتصنع؛ وليس لك أن تفتخر بملء فمك لأن معايك تعقل لسانك
من الافتخار، ولن تقدر أن تستر نسبك الوضع؛ ولن تكون إنساناً غيرك؛ فأنت أنت، مهما
تزينت وتصنعت.

156 - المساماة: المباراة في السموى؛ الذروة: أعلى الشيء؛ الحسب: ما يعده الإنسان من مفاخره،
أو ما يحسبه من مفاخر آبائه؛ وقيل: حسب المرء دينه؛ وقيل: الحسب والكرم يكونان في المرء وإن
لم يكن له آباء شرفاء، وقال ابن السكيت مثل هذا، وزاد أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء.

157 - القعيدة: الزوجة؛ اللكاع: اللثيمة للنفس، قال الخطيئة في هجاء زوجته:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاع

والمعنى: هبك أحرزت جميع الفضائل مثلهم، ألسنت متزوجاً؟ وكيف أنصرف عن عزب إلى متزوج؟

158 - العزب: غير المتزوج؛ خالي الذراع: كناية عن أنه متحرر لا تتعلق به زوجته..

159 - في سرج العيون ((ممن لا أغلب إلا على الأقل...)) وقد آثرنا رواية المجموعة الأدبية ونهاية

الأرب؛ والمعنى: كيف أوازن بين زوج أنفرد به، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيري من الزوجات؟

والنفس المصروفة إليّ، واللذة الموقوفة عليّ، وبين آخر قد نضب غديره،
ونزحت بيّره، وذهب نشاطه، ولم يبق إلا ضراطه⁽¹⁶⁰⁾؟
وهل يجتمع لي فيك إلا الحشف وسوء الكيلة⁽¹⁶¹⁾؟ ويقترن لي بك إلا الغدة
والموت في بيت سلوية⁽¹⁶²⁾؟

تعالى الله يا سلم بن عمرو أدل الحرص أعناق الرجال⁽¹⁶³⁾

160 - في نهاية الأرب ((قد نزحت بيّره ونضب غديره)): نضب غديره: جف مجرى مائه، نزحت بيّره: لم يبق بها ماء؛ والمعنى: كيف أنصرف عن الفتى المقصور عليّ وحدي إلى آخر مُسنّ ذهبت حيوته وفتر نشاطه وبرّحت به العلل والأمراض؟

161 - الحشف: أردأ التمر؛ الكيلة: اسم هيئة من الكيل؛ ((أحشفًا وسوء كيلة؟))، مثل يضرب لمن يجمع بين خصلتين كريهتين ((سوء البضاعة وتطفيف الكيل))، وفي نهاية الأرب ((وهل كان يجمع لي فيك إلا الحشف وسوء الكيلة؟)).

162 - ((غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلوية!! مثل يضرب في خصلتين تجتمعان وكل منهما شر من الأخرى؛ وسببه: أن عامر بن الطفيل وفد على النبي (ص)، فقال: يا محمد مالي إن أسلمت؟ قال ما للمسلمين، وعليك ما عليهم؛ قال تجعل لي الأمر بعدك؟ قال لا ليس ذاك، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء، قال فتجعلني على الوبر وأنت على المدر؟ قال لا؛ فقال =عامر وهو منصرف: والله لأملأنّ عليك خيلاً جرداً وفتياناً مُرداً، فدعا عليه النبي (ص)؛ وعاد عامر ونزل في بيت امرأة من سلول، فلما أصبح ظهرت له غدة كغدة البعير، فلما أحس الموت، قال: ((غدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية!! فصارت مثلاً لاقتران المرض بالذل والهوان.

163 - البيت لأبي العتاهية يخاطب به سلم بن عمرو، ويليّه هذا البيت:
هب الدنيا تصير إليك عفواً أليس مصير ذلك للزوال؟

ما كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدَرَ بِذِرْعِكَ⁽¹⁶⁴⁾!! وَتَرَبُّعُ [بِذَلِكَ] عَلَى ظَلْعِكَ⁽¹⁶⁵⁾!!
وَلَا تَكُونُ بَرَاقِشَ الدَّالَّةِ عَلَى أَهْلِهَا⁽¹⁶⁶⁾، وَعَنْزُ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ بِظُلْفِهَا
لِحَتْفِهَا⁽¹⁶⁷⁾، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى سِرْحَانٍ⁽¹⁶⁸⁾، وَبِكَ لَا يَظْبِي
أَعْفَرُ⁽¹⁶⁹⁾، قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتُ شَيْئاً، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا⁽¹⁷⁰⁾،

164- في نهاية الأرب ((ما كان أحقك بأن...)) وفي المجموعة الأدبية ((ما كان أخلقك أن...))؛ ما أخلقك!! ما أجدرك!! تقدر بذرعك: تقيس الأمر بجهدك قبل أن تتورط فيه؛ الذرع: الجهد، ومنه ضاق فلان ذرعاً، وأصل الذرع بسط اليد كأنه جهد في بسطها.
165- أربع: أقم، الظلع: الغمز في المشي بما يشبه العرج؛ ((أربع على ظلعك)): مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه؛ ومعناه: أقم على ضعفك وارفق بنفسك أو اسكت على ما فيك من عيب أو على قدر طاقتك، وفي نهاية الأرب والمجموعة الأدبية ((وتربع على ظلمك)).
166- في سرح العيون ((ولا تكن براقش))؛ ((على أهلها تحني براقش)): مثل يضرب لمن يعمل عملاً يرجع ضرره إليه، واختلفت الروايات في سببه، وأصحها: أن براقش كلبة لقوم من العرب أغير عليهم فهربوا، ومعهم كلبتهم براقش، فاتبع المغيرون آثارهم مستدلين بنباح الكلبة حتى أدركوهم فأوقعوا بهم، قال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جناية لحقتني لا يساري ولا يميني رميني
بل جناها أخ علي كرمي وعلى أهلها براقش تحني

167- في نهاية الأرب والمجموعة الأدبية: ((وعنز السوء المستثيرة لحفتها))؛ ومن الأمثال ((الباحثة عن حفتها بظلفها))؛ وهو مثل يضرب لمن يعين على الإضرار بنفسه، وسببه أن رجلاً أراد ذبح عنز فلم يجد سكيناً، فبينما هو يتقلبها إذ بحثت العنز بظلفها فاستثارت سكيناً فذبحها بها.
168- ((سقط العشاء به على سرحان)): مثل يضرب لمن أراد غنيمة فقاده إلى نكبة؛ والسرحان: الذئب، ومثله ((سقط العشاء به على متقمر، والمتقمر: الأسد يطلب الصيد في القمراء؛ والمعنى/ أراد أن يتعشى فخرج طالباً عشاءه فقاده قدماءه إلى ذئب افترسه أو أسد بطش

[وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ، وَحَذَرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ⁽¹⁷¹⁾] :

إِنَّ الْعَصَا قُرَعْتُ لِذِي الْحِلْمِ وَالشَّيْءَ تَحَقَّرُهُ وَقَدْ يَنْمِي⁽¹⁷²⁾

به، وقال ابن الأعرابي: سببه أن سرحان بن هرلة كان بطلاً فاتكأ يهابه الناس، فاندفع رجل بإبله يطلب المرعى في وادي سرحان، فهجم عليه سرحان فقتله وأخذ إبله، وقال:

أبلغ نصيحة أن راعي أهلها سقط العشاء به على سرحان
سقط العشاء به على منقمر طلق اليدين معاود لطحان

في سرح العيون والمجموعة الأدبية: ((فما أراك إلا سقط بك العشاء على سرحان)) وفي نهاية الأرب ((إلا قد سقط العشاء بك على السرحان)).

169- ((به لا بظي أعفر)): مثل يضرب عند الشماتة، أي نزل به المكروه ونجا منه الظبي؛ الأعفر الذي لونه مثل لون التراب؛ قال الفرزدق حينما بلغه نعي زياد ابن أبيه:
أقول له - لما أتاني نعيه-: به!! لا بظي في الصرمة أعفرا

170- المعنى: لقد أبلغت في عذرك لو سمعت نصيحتي!! وأسمعتك إن كانت بك حياة!! قال دريد بن الصمة:

لقد أسمعْتُ لو ناديت حيًّا! ولكن لا حياة لمن تنادي!!
ولو نار نفخت بها أضاءتُ ولكن أنت تنفخ في رماد

=وفي سرح العيون ((أعذرت إن أغنيت...)).

171- ما بين القوسين زيادة من نهاية الأرب؛ والمعنى: لقد نبهتك بالعتاب قبل العقاب، وحذرتك سوء العاقبة؛ فلا عذر لك بعد الآن...

172- ((إن العصا قرعت لذي الحلم)): مثلٌ يضربُ لمن ينتبه إذا نُبه، وأول من قرعت له العصا عامر بن الظرب، أو قيس بن خالد، أو عمرو بن حممة، وقيل عمرو بن مالك، وذلك أنه لما طعن في السن أنكر من عقله شيئاً، فقال لبنيه: إذا رأيتموني خرجت من كلامي وأخذت في غيره فأقرعوا لي المحنّ بالعصا، فكان إذا فعلوا تنبه وعاد إلى صوابه وإليه أشار الحارث بن وهلة في قوله:

وإن بادرت بالندامة، ورجعت على نفسك بالملامة، كنت قد اشتريت

العافية لك بالعافية منك⁽¹⁷³⁾، وإن قلت: ((جعجة، ولا طحناً⁽¹⁷⁴⁾)) و((زب صلف تحت الراعدة⁽¹⁷⁵⁾))، وأنشدت:

لا يؤيسنك من مخدرة
قول تغلظه وإن جرحا⁽¹⁷⁶⁾

وزعمتم ألا حلوم لنا
وقال المتلمس:
إن العصا قرعت لذي الحلم

لذي الحلم قبل اليوم ما تفرغ العصا
وما علم الإنسان إلا ليعلم
((فالشيء تحقره وقد ينمي)): مثل يضرب للأمر الصغير يكبر ويستشري أمره، قال الحارث بن ويلة -وقد قتل بعض سادات قومه أخاه- من أبيات:

لا تأمنن قوماً ظلمتهم
وبدأتهم بالشر والغشم
أن يأبروا نخلاً لغيرهم
والشيء تحقره وقد ينمي

أي يستولوا على نخل غيرهم فينقلوا طلع التذكير من ذكره إلى الإناث
173 - المعنى: إذا ندمت على ما فرط منك وملت نفسك على ما قدمت من إساءات فإنك بهذا تشتري نجاتك نفسك بأن تعفينا من إلحاحك وإلحافك..

174 - الجعجة: صوت الرحي؛ الطحن: الدقيق؛ ((جعجة ولا طحناً)) مثل يضرب لمن يعد أو يتوعد ولا يستطيع الوفاء، ويروى: ((أسمع جعجة، ولا أرى طحناً)).

175 - السحاب الصلف: كثير الرعد قليل الماء، وفي المثل ((زب صلف تحت الراعدة)) يضرب لمن يتوعد ثم لا يقدر على التنفيذ؛ أو للبخيل الغني؛ أو لمن يكثر الافتخار بلا طائل.

176 - البيت لبشار بن برد؛ ومعناه: لا تيأس من الوصول إلى قلب امرأة محجة وإن أغلظت لك المقال؛ وبعده:

عسر النساء إلى مياسرة
والصعب يُركب بعدما جمحا

فَعُدَّتْ لِمَا نُهِيتَ عَنْهُ، وَرَاجَعَتْ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ، بَعَثَتْ مَنْ يُزْعِجُكَ إِلَى
الْخُضْرَاءِ دَفْعًا، وَيَسْجِتُكَ نَحْوَهَا وَكَزًا وَصَفْعًا⁽¹⁷⁷⁾، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ
أَكَارُوهَا بِكَ، وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ⁽¹⁷⁸⁾، فَمَنْ قَرَعَةٍ مُعْجَبَةٍ تَقُومُ فِي قَفَاكَ، وَمِنْ

177 - استعفى: طلب العفو؛ الخضراء: المزرعة أو اسم ضيعة؛ استحث الفارس جواده: صاح به
أو خبطه برجل أو ضرب؛ الوكز: الدفع وهو ضرب الظهر، وقيل: الضرب بجمع اليد على الذقن
أو الظهر؛ الصفع: الضرب بيد مبسوطة على القفا أو البدن، فإذا كانت الكف مقبوضة لا
يسمى صفعًا؛ والمعنى: إذا عدت إلى وقاحتك وتبجحك وادعائك بعثت إليك من يسوقك إلى
الخضراء، ويدفعك بالضرب والصفع على التوالي.

178 - في نهاية الأرب ((صرت بها))؛ الأكارون: الفلاحون جمع أكار؛ النواطير: جمع ناطور وهو
حافظ الكرم والنخل، قال المتنبي في هجاء كافور:

نامت نواطيرُ مصر عن ثعالبها فقد بَشَمَنَ، وما تَفَنَّى العناقيدُ

والمعنى: إذا صرت إلى هذه المزرعة انقضَّ عليك فلاحوها وحراسها فأذاقوك الوبال.

فُجَلَةٌ مُنْتَنَّةٌ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خِصَاكَ⁽¹⁷⁹⁾، [ذَلِكَ بِمَا قَدَمْتُ يَدَاكَ⁽¹⁸⁰⁾]، لَتَذُوقَ
وَيَالَ أَمْرِكَ⁽¹⁸¹⁾، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ⁽¹⁸²⁾:

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى⁽¹⁸³⁾

179- المعنى: ينالك الفلاحون والحراس بالضرب والتنكيل فيضربك أحدهم بالقرعة المعوجة في قفاك حتى تستقيم (وهي لا تستقيم أبداً)، ويدخل آخر الفجلة في دبرك، حتى يشهروا بك كل تشهير.

180- ما بين القوسين ساقط من نهاية الأرب؛ والمعنى: ذلك بسبب فعلك؛ والعرب تقول: هذا ما كسبت يدك، أي فعلته وإن لم تكن اليد الفاعلة، قال تعالى: ((ذَلِكَ بِمَا قَدَمْتُ يَدَاكَ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ)).

181- في نهاية الأرب ((لكي تذوق...))؛ الوبال: سوء العاقبة، قال تعالى: -في شأن من قتل الصيد وهو مُحْرَم- ((ليذوق وبال أمره)).

182- وترى ميزان قدرك أي تعرف مكانك فلا تتعدها.

183- البيت للمتنبّي في هجاء كافور، وقيله:

وأسود مشفره نصفه	يقال له: أنت بدر الدجى
فما كان ذلك مدحاً له	ولكنه كان هجو الورى
ومن جهلت نفسه قدره	رأى غيره منه ما لا يرى



مساعدة إعرابية:

زعمت أنك جعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق، وأن صناعة الألحان اختراعك، وتأليف الأوتار والأنقار توليدك وابتداعك.

زعمت: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع المتحرك، والتاء ضمير متصل مبني على الفتح في محل رفع فاعل.

أنك: أن حرف مشبه بالفعل، والكاف ضمير متصل مبني على الفتح في محل نصب اسم أن.

جعلت: مثل زعمت، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به. للكندي: جار ومجرور متعلقان بفعل جعل.

رسماً: مفعول به منصوب وعلامة نصب الفتحة الظاهرة.

استخرج: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو. به: جار ومجرور متعلقان باستخرج.

الدقائق: مفعول به منصوب بالفتحة الظاهرة.

- جملة (استخرج) في محل نصب صفة لرسماً.

وأن: الواو عاطفة، أن حرف مشبه بالفعل.

صناعة: اسم أن منصوب وعلامة نصبه الفتحة. وهو مضاف.

الألحان: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة.

اختراعك: خبر أن مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، والكاف ضمير متصل

مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه، والمصدر المؤول معطوف على سابقه في محل نصب.

المشتقات:

مرّ معك فيما سبق أنّ من المشتقات اسم الفاعل واسم المفعول. وأنّ الأول يصاغ من الثلاثي على وزن فاعل (ضرب:ضارب) ومن غيره بتحويله إلى مضارع ثم جعل ياء المضارعة ميماً مضمومة (انهزم: منهزم).

وأنّ الثاني يصاغ من الثلاثي (المبني للمجهول) على وزن مفعول (ضرب: مضروب) ومن غيره بتحويله إلى مضارع ثم جعل ياء المضارعة ميماً مضمومة وفتح ما قبل الآخر، (تعارف: مُتعارَف).

كما مرّ معك أنّهما يعملان عمل الفعل فيحتاج أحدهما إلى مفعول إذا كان مأخوذاً من فعل متعدّد (هذا ضارب زيداً) ويحتاج ثانيهما إلى نائب فاعل - (هذا محمود خلقه).

وقد جاء في هذه الرسالة الهزلية قوله: أيّها المصاب بعقله، المورّط بجهله، الفاحش غلظه....مرسلاً خليلتك مرتادة...زاعمة أنّ المروءة لفظ أنت معناه)). ومن خلال ما قرأت في القاعدة قبل قليل، تجد أنّ المصاب اسم مفعول من الرباعي والمورّط اسم مفعول من الرباعي والفاحش اسم فاعل من الثلاثي، ومرسل اسم فاعل من الرباعي، ومرتادة اسم فاعل من الخماسي وزاعمة اسم فاعل من الثلاثي.

كما تجد أنّ (المصاب والمورّط) لم يحتاجا إلى مفعول، وأنّ (الفاحش) احتاج إلى فاعل وهو (غلظه)، و(مرسلاً) احتاج إلى مفعول به وهو (خليلتك) و(مرتادة) لم يحتج إلى مفعول، وأنّ (زاعمة) احتاج إلى مفعول به وهو هنا المصدر المؤول من أنّ وما بعدها.

بعض القضايا البلاغية التي رشت من النص

- قرعت عصا العتاب، جعل للعتاب عصا على سبيل الاستعارة المكنية فكأنما شَبَّه العتاب بذِي عصا، ثم حذف المشبَّه به وذكر من لوازمه كلمة عصا.
- هل أنت إلاّ واو عمرو فيهم: كناية عن أنّه فضلة ليس لها قيمة .
- ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا لأمتطي الثور بعد الجواد: فيه تشبيه ضمني، وفيه كناية عن عدم التفريط.
- فوجودك عدم والاعتباط بك ندم، والخيبة منك ظفر، والجنّة معك سقر: تحقّق الطباق بين (الوجود والعدم) و(الخيبة والظفر) و(الجنّة وسقر).
- والنفس المصروفة إليّ واللذة الموقوفة عليّ: تحقّق الطباق بين (إليّ وعليّ).

المنادى

المنادى هو الاسم الذي يستدعى بحرف نداء (مذكور أو مقدّر)، وهو منصوب أو في محل نصب.

أنواعه خمسة:

- 1- المفرد العلم: مثل اسم شخص أو مدينة أو جبل...
قال تعالى ((يوسف أعرض عن هذا)).
وقال الشاعر:
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
والمفرد العلم منادى مبني على الضمّ في محلّ نصب.
- 2- النكرة المقصودة: أي نكرة معيّنة مثل (يا طالب اسع إلى التفوق).

قال الشاعر:

قالت هريرة لما جئت زائرهما ويلي عليك وويلي منك يا رجلُ

والنكرة المقصودة منادى مبني على الضم في محل نصب.

3- المنادى المضاف: أي مضاف إلى ما بعده، إلى ضمير مثل (يا صاحبي) أو لفظ صريح مثل (يا صاحب المكتبة).

قال الشاعر:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

والمنادى المضاف منصوب.

4- المنادى الشبيه بالمضاف: وهو المنادى المشتق المتعلق به ما بعده

كما في قولك (يا مكرماً أخاه أبشر)، وقال الشاعر:

يا قارعاً كفّاً بكفّ حسرة لا تيأسن فاليأس يودي بالمهج

والمنادى الشبيه بالمضاف منصوب.

5- المنادى النكرة غير المقصودة: هو النكرة العامة غير المعينة كما في

قولك (يا طالباً) إذا لم ترد طالباً بعينه، قال الشاعر:

أيا راكباً إنا عرضت فبلغن ندأمي من نجران أن لا تلاقيا

Rudyard Kipling

رديارد كبلنج

يعدّ الشاعر رديارد كبلنج (1865- 1936) من أبرز الشعراء والكتاب الإنجليز، ويكنّى بـ (الامبراطور) أو (شاعر الامبراطورية البريطانية). وقصيدة (إذا) التي بين أيدينا هي من عيون شعره، يدعو فيها الناس إلى عدم اليأس والركون إلى الانهزامية، ويحثّهم على النهوض من جديد. إليكم قصيدة ((Rudyard Kipling)) مترجمة إلى العربية:

If you can keep your head when all about you
,Are losing theirs and blaming it on you
If you can trust yourself when all men doubt you
,But make allowance for their doubting too
,If you can wait and not be tired by waiting
,Or being lied about, don't deal in lies
,Or being hated, don't give way to hating
:And yet don't look too good nor talk too wise

,If you can dream- and not make dreams your master

,If you can think- and not make thoughts your aim

If you can meet with triumph and Disaster

, And treat those two impostors just the same

If you can bear to hear the truth you've spoken

,Twisted by knaves to make a trap for fools

,Or watch the things you gave your life to, broken

:And stoop and build' em up with worn- out tools

If you can make one heap of all your winnings

.And risk it all on one turn of pitch- and- toss

And lose, and start again at your beginnings

,And never breath a word about your loss

If you can force your heart and nerve and sinew

,To serve your turn long after they are gone

And so hold on when there is nothing in you

"!Except the will which says to them: "Hold on
,If you can talk with crowds and keep your virtue
,Or walk with kings- nor lose the common touch
, If neither foes nor loving friends can hurt you
, If all men count with you, but none too much
If you can fill the unforgiving minute
,With sixty seconds' worth of distance run
,Yours is the Earth and everything that's in it
!And – which is more- you ' ll be a Man, my son
Rudyard Kipling--

ترجمتها للعربية (صاحب هذه الترجمة هو (سامي خمو))

إذا كان بإمكانك أن تحافظ على عقلك:

If you can keep your head when all about you

عندما يفقد كل من يحيط بك عقله ويلقي باللائمة عليك:

,Are losing theirs and blaming it on you

عندما تثق بنفسك في الوقت الذي يشك الآخرون فيك:

If you can trust yourself when all men doubt you

ولكن في الوقت نفسه تقيم الاعتبار لشكوكهم:

,But make allowance for their doubting too

إذا كان في مقدورك أن تصبر دون أن ينال منك الصبر:

,If you can wait and not be tired by waiting

وأن لا تلجأ للكذب رغم نشر الأكاذيب عنك:

,Or being lied about, don't deal in lies

وأن لا تسمح للكراهية أن تتسلل إلى قلبك رغم أنهم يكرهونك:

,Or being hated, don't give way to hating

ومع ذلك لا تظهر عليك الطيبة المفرطة، ولا تتظاهر بالحكمة الزائدة:

:And yet don't look too good, nor talk too wise

إذا كان بإمكانك أن تحلم ولكن لا تصبح عبداً لأحلامك:

,If you can dream- and not make dreams your master

إذا كان بإمكانك التفكير - دون أن تجعل الأفكار غايتك:

,If you can think- and not make thoughts your aim

وإذا حالفك النصر أو حلت بك كارثة:

If you can meet with triumph and Disaster

وكانت معاملتك لكلا الدجالين على قدم المساواة:

, And treat those two impostors just the same

وإن كان في استطاعتك تحمل سماع الحقيقة التي تفوهت بها:
If you can bear to hear the truth you've spoken
وقد حرفها المحتالون لاصياد المغفلين:
,Twisted by knaves to make a trap for fools
أو أن تشاهد تحطم الأشياء التي كرسيت لها حياتك:
,Or watch the things you gave your life to, broken
وتعكف على بنائها ثانية بأدوات بالية:
,And stoop and build' em up with worn- out tools
إذا كان في مقدورك تكديس انتصاراتك في كومة واحدة:
If you can make one heap of all your winnings
وأن تقامر بها بلعبة "طرة وكتبة":
,And risk it all on one turn of pitch- and- toss
وأن تخسر الرهان وتبدأ مجدداً من بداياتك الأولى:
And lose, and start again at your beginnings
وأن لا تنبس ببنت شفة عن خسارتك:
,And never breath a word about your loss
إذا كان في مقدورك أن ترغم نفسك على النهوض من كبوتك:
If you can force your heart and nerve and sinew
بعد أن تكون قد فقدت قلبك وأعصابك وعقلك من زمن طويل:
,To serve your turn long after they are gone
وأن تبقى رابط الجأش عندما لا يوجد داخلك سوى:
And so hold on when there is nothing in you
إرادتك التي تقول لقلبك وأعصابك وعقلك "تماسكوا!"
"!Except the will which says to them: "Hold on
إذ كنت تستطيع أن تخاطب الجماهير وتحفظ فضيلتك:
,If you can talk with crowds and keep your virtue

أو أن تصطحب الملوك ولا تفقد لمسة البساطة:
,Or walk with kings- nor lose the common touch
وإذا عجز الأعداء والأصدقاء المحبون عن أذيتك:
, If neither foes nor loving friends can hurt you
وإن كان كل الرجال يؤيدونك، ولكن أحداً لا يؤيدك من كل قلبه:
, If all men count with you, but none too much
وإذا كان في مقدورك أن تملأ الدقيقة التي تعرضت فيها للإجحاف:
If you can fill the unforgiving minute
بالهرولة لمدة ستين ثانية:
,With sixty seconds' worth of distance run
فإنك سوف ترث الأرض وكل ما فيها:
,Yours is the Earth and everything that's in it
والأهم من ذلك – ستفوز بصفة "إنسان" يا بني!
!And – which is more- you ' ll be a Man, my son

ترجمة أخرى لمحمد النجار:

إذا لم تنس جأشك حين ينسى
جميع الناس جأشهم فخاروا
إذا ألقوا عليك اللوم بيننا
ذرائعهم هشيم أو غبار
إذا رغم الشكوك صمدت دوماً
ولم تيأس وإن شكّوا وجاروا
إذا كذبوا عليك فقلت صبرا
ولم تكذب وفي القلب اضطبار
إذا كرهوك كنت لهم محباً
ولم يعلق بمهجتك اغترار
إذا ساويت ما بين الأمانى
ولم يسرقك منك الافتكار
إذا لما يغيرك انتصار
ولم يكسر سنالك الانكسار
إذا اختلقوا عليك كلام زور
فتسمعهم وتترك ما أثاروا
إذا هدّوا بناءك بعد عمر
وعدت إلى البناء وإن أغاروا
إذا غامرت حتى لا تبالي

خساراً حين يفجؤك الخسارُ
وتبدأ من جديد دون شكوى
تقامر إنّما الدنيا قمارُ
وتنهض من جديد حين تكبو
ولا يثنيك عن هدف عثارُ
إذا خاطبت كلّ الناس صدقا
فيعرفك الأكابر والصغارُ
إذا أعبى عدواً أو صديقا
أذاك، ولم توازرك الخيارُ
إذا كانت دقيقتهم عتابا
وفي ستين ثانية تجارُ
فإنك قد ملكت الأرض حتما
وتورق في أصالتك البذارُ

ترجمة الثالثة لعبد الله خمار

إذا استطعت أن تكون
عند الصعاب هادئاً وثابت الجنان
والقوم من حولك ذاهلون
قد فقدوا صوابهم
من شدة الأهوال والأحزان
ثم ثلام أنت من دون الجميع
فهل تُراك تستطيع؟

|||||

إذا استطعت أن تكون
ذا ثقة بالنفس ما لها نظير
والناس فيك - كلهم - يُشككون
ورغم ذا
تأخذ في الحسبان ما حوت شكوكهم
دون ادعاء أو غرور

|||||

إذا استطعت الصبر عند الانتظار
من غير عجز وانهايار
ولم تُجار الكذب بالكذب وإن جنى عليك
ولم تُجار الكره بالكره وإن سعى إليك
ولم تُباه بالصلاح والتقوى
أو تتصدق بالكلام حكمةً ومنطقاً

|||||

إذا استطعت أن تكون شاعريا حالما
من دون أن تُسلم للحلم زمامك
وعاقلا مفكرا تُجل الرأي دائما
من غير أن تتخذ الفكر إمامك

|||||

إذا استطعت أن تُواجه السقوط والنجاح
دون انفعال من سرور أو ثواح
وأن ترى وجهيهما المخادعين واحدا
رغم اختلاف اسميهما في الاصطلاح

|||||

إذا احتملت الاستماع
لكلمة الحق التي أعلنتها
بكل صدق ويقين
قد رُيفت وهي تُذاع
حرفها رهط من الأوغاد والمخادعين
ويرقعوها بالقناع
ليوقعوا بالسذج المغفلين

|||||

إذا احتملت أن ترى
ما قد أضعت في علاه العمر
محطّما، مبعثرا
وقمتَ تبني العُمد المهْدَمه
بُعْدَى مفلولة مثْلَمه

|||||

إذا استطعت أن تُخاطر
بكل ما جمعته في العمر من مكاسب
في صفقة واحدة مجهولة العواقب
وكننت فيها الخاسر
وعُدت - دون عقدة- إلى بدايتك
ولم تُبح أو تشك قط من خسارتك

|||||

إذا استطعت أن تثبت في عروقك الحياة
إذ هرم الجسم وأضحى كالرفات
وأن تحث القلب والأعصاب
وأن تحض العضلات
على التجلّد والسهر
لبلوغ أهداف العُمُر
حتى وإن لم تبقى فيك طاقة
سوى الإرادة
تدعوك أن تواصل
وتستمرّ دونما هواده

|||||

إذا استطعت أن تُخالط العوام
وقد حفظت بينهم لياقتك
وإن تُجالس السلاطين العظام
ولم تضيّع بساطتك

|||||

إن كنت تلقى هجمات أشرس الأعداء
وطعن خير الأصدقاء
دون امتعاض واستياء

|||||

إن كنت تولي الناس - كل الناس - ودًا
واعتبارًا واحترامًا
ولم تُبالغ مبدئياً لكائن من كان
أقصى الاهتمام

|||||

إذا استطعت ملء وقتك الثمين
بما يُساوي وزنه
من عمل بناء
وجعل كل ساعة
في جدول الأيام والسنين
حافلة بالجهد والعطاء

|||||

فالأرض كلها لديك
وخير ما فيها سيصبح في يديك
وما يظل - يا بُني - الأول والأفضل
من الكنوز القيّمة
أنك نغدو رجلاً
بكل معنى الكلمة

أبو البقاء الرندي وقصيدته التي على النون

الرندي هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف أبو الطيب وأبو البقاء النَقْرِي، من أدباء القرن السابع الهجري من أهل رُنْدَة أحد معاقل الأندلس الممتنعة، ولد في محرم سنة إحدى وستمئة وتوفي عام أربعة وثمانين وستمئة. كان خاتمة أدباء الأندلس، اتصل ببني الأحمر ومدح ملوكهم وأمراءهم. شهد تهاوي المجد الأندلسي ولاسيما بعد التنازلات التي قدمها ابن الأحمر لألفونسو ملك قشتالة سنة ستمئة وخمس وستين والتي زادت عن أربعين مسورة من مدينة وحصن وما شابه، فنظم نونيته الشهيرة تصويراً لهذا الواقع المتردي وشحذاً للهمم. وقد نقل هذه القصيدة المقرّي في كتابيه أزهار الرياحين ونفح الطيب⁽¹⁾.

¹ - أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: 33- 85 والقصيدة في نفح الطيب: 486-488.

القصيدة

قال أبو البقاء الرندي:

- 1- لكل شيء إذا ماتم نقصان
 - 2- هي الأمور كما شاهدها دول
 - 3- وهذه الدار لا تبقى على أحد
 - 4- يمزق الدهر حتماً كل سابقة
 - 5- وينتضي كل سيف للقناء ولو
 - 6- أين الملوك ذوو التيجان من يمن
 - 7- وأين ما شاده شذاد في إرم
 - 8- وأين ما حازه قارون من ذهب
 - 9- أتى على الكل أمر لا مرد له
 - 10- وصار ما كان من ملك ومن ملك
 - 11- فجائع الدهر أنواع متنوعة
 - 12- وللحوادث سلوان يسهلها
 - 13- دهي الجزيرة أمر لا عزاء له
 - 14- أصابها العين في الإسلام فامتحننت
 - 15- فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
 - 16- وأين قرطبة دار العلوم، فكم
 - 17- وأين حمص وما تحويه من نزه
 - 18- قواعد كن أركان البلاد فما
 - 19- تبكي الحنيفة البيضاء من أسف
 - 20- على ديار من الإسلام خالية
- فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساعته أزمان
ولا يدوم على حال لها شأن
إذا ثبت مشرفيات وخرسان
كان ابن ذي يزن والغمد عمدان
وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما ساسه في الفرس ساسان
وأين عادّ وشدادّ وقحطان
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
كما حكى عن خيال الطيف وسنان
وللزمان مسرات وأحزان
وما لما حلّ بالإسلام سلوان
هوى له أخذ وإنهدّ شهلان
حتى خلت منه أقطار وبلدان
وأين شاطبة أم أين جيان
من عالم قد سما فيها له شأن
ونورها العذب فياض وملان
عسى البقاء إذا لم تبقى أركان
كما بكى لفراق الإلف هيّمان
قد أفقرت ولها بالكفر غمران

- 21-حتى المحاريب تبكي وهي جامدة
 22-يا غافلاً وله في الدهر موعظة
 23-وماشياً مرحاً يليه موطنه
 24-تلك المصيبة أنست ما تقدمها
 25-يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
 26-وحاملين سيوف الهند مرهفة
 27-وواقعين وراء البحر في دعة
 28-أعندكم نبأ من أهل أندلس
 29-كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
 30-ماذا التقاطع في الإسلام بينكم
 31-ألا نفوس أبيات لها همم
 32-يا من لذلة قوم بعد عزهم
 33-بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
 34-فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
 35-ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
 36-يا رب أم وطفل حيل بينهما
 37-وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
 38-يقودها العليج للمكروه مكرهه
 39-لمثل هذا يذوب القلب من كمد
- حتى المنابر ترثي وهي عيدان
 إن كنت في سنة فالدهر يقظان
 أبعد حمص تغر المرء أوطان
 وما لها مع طول الدهر نسيان
 كأنها في مجال السبق عقبان
 كأنها في ظلام النقع نيران
 لهم بأوطانهم عز وسلطان
 فقد سرى بحديث القوم زكبان
 قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
 وأنتم يا عباد الله إخوان
 أما على الخير أنصار وأعوان
 أحوال حالهم كقر وطغيان
 واليوم هم في بلاد الكفر عبان
 عليهم من ثياب الذل ألوان
 لهالك الأمر واستهوتك أحزان
 كما تفرق أرواح وأبدان
 كأنما هي ياقوت ومزجان
 والعين باكية والقلب حيران
 إن كان في القلب إسلام وإيمان

إضاءة على النص

شهد أبو البقاء الرندي سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد الإسبان، وتعدّ مرثيته هذه من روائع الشعر العربي في رثاء الأندلس. فقد افتتحها بذكر أبيات في الحكمة لا تكاد تخرج في جملتها عن فكرة الاعتبار بمن مضى من الدول والملوك في سالف العهود، مسلطاً الضوء على لقطات استخلصها من أعماق التاريخ الحافل، فكانت هذه الحكم خير مدخل مهّد الشاعر به لموضوعه. ثم يمضي الشاعر بعد ذلك واصفاً ما حلّ بالأندلس من شرّ وبلاء، ذاكراً المدن المنكوبة بغزو الفرنجة، ومعدداً مناقبها واحدة واحدة، شأن من يفقد أعزة عليه فيسميهم بأعينهم ويعرب عن فجيئته بهم، مبرزاً التضاد بين ما كانت عليه البلاد وما آلت إليه. ثم يطلق الرندي في أواخر هذه القصيدة صرخة استغاثة لأولئك الناعمين بالطمأنينة، والراتعين بالدعة وراء البحر الذين يستوون على عتاق الخيل وبين أيديهم قواطع السيوف ويمتلكون البأس والقوة ولكنهم ما زالوا غافلين، وكأنه لم يطرق مسامعهم خبر ما يحدث فوق أرض الأندلس الدامية، على حين بلغت أنباء تلك الأحداث أقاصي الأرض وملأت الدنيا وشغلت الناس ولكنّ الجميع قد أصمّوا آذانهم عن استغاثات أبناء عموماتهم دون أن تتحرك في أحدهم نخوة ولا حمية⁽¹⁾.

وبعد هذا التقرّيع يعرض الرندي صور الإذلال والإهانات التي تعرّض لها العرب والمسلمون في تلك الربوع من بيع للأحرار وتفريق بين الأمهات والأطفال واقتياد العدوّ فتيات العرب إلى الفاحشة وإجبارهن على ذلك، وهي

¹ - انظر ملامح الشعر الأندلسي: 289-290.

لا شك صور من واقع المأساة في عصر الشاعر عرضت له في مرحلة من حياته فاخترناها في نفسه ثم انبعثت في شعره⁽¹⁾.

مساعدة إعرابية

سنعرب لك من النصّ الأبيات الخمسة التالية:

- 1- لكل شيء إذا ماتم نقصانٌ فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانٌ
- 2- أين الملوك ذوو التيجان من يمنٍ وابنٌ منهم أكاليل وتيجان
- 3- فجائع الدهر أنواعٌ منوعةٌ وللزمانِ مسرَّاتٌ وأحزانٌ
- 4- يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ إن كنت في سنةٍ فالدهر يقظانٌ
- 5- يا راكبين عتاق الخيل ضامرةٌ كأنها في مجال السبق عقبانٌ

1- لكلّ: جار ومجرور متعلقان بخبر مقدّم محذوف.

شيء: مضاف إليه مجرور.

إذا: ظرفية شرطية غير جازمة في محل نصب متعلّقة بالجواب.

ما تمّ: ما زائدة، تمّ: فعل ماض مبني على الفتحة الظاهرة.

نقصان: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة.

فلا يغَرّ: الفاء للاستئناف، لا: ناهية جازمة، يغَرّ فعل مضارع مبني للمجهول

مجزوم وعلامة جزمه السكون وحرك بالفتح لأنّ الفعل مشدّد الآخر.

بطيب: جار ومجرور متعلقان بـ يغَرّ.

العيش: مضاف إليه مجرور وعلامة جزمه الكسرة الظاهرة.

¹ - انظر ملامح الشعر الأندلسي: 291.

- إنسان: نائب فاعل ليغَر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
- جملة (إذا ما تم) اعتراضية لا محل لها من الإعراب.
- جملة (لا يغَر) استئنافية لا محل لها من الإعراب.
- 2- أين: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية المكانية متعلّق بخبر مقدم محذوف.
- الملوك: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
- ذو: صفة مرفوعة وعلامة الرفع الواو لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم.
- التيجان: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.
- من يمن: جار ومجرور متعلقان بحال محذوفة من الملوك.
- وأين: الواو عطف، أين كالتي سبقت.
- منهم: جار ومجرور متعلقان بحال مقدمة محذوفة.
- أكاليل: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
- وتيجان: الواو عطف، تيجان معطوف على أكاليل مرفوع مثله، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
- جملة (أين منهم أكاليل وتيجان) معطوفة على استئنافية لا محل لها من الإعراب.
- 3- فجائع: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة وهو مضاف.
- الدهر: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.
- أنواع: خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
- منوعة: صفة لأنواع مرفوعة وعلامة رفعها الضمة الظاهرة.
- وللزمان: الواو استئناف، للزمان: جار ومجرور متعلقان بخبر مقدم محذوف.
- مسرّات: مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

وأحزان: الواو عطف، أحزان معطوف على مسرات مرفوع مثله وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

جملة (للزمان مسرات) استئنافية لا محل لها من الإعراب.

4- يا غافلاً: اليا حرف نداء، غافلاً منادى شبيه بالمضاف منصوب.

وله: الواو للحال له: جار ومجرور متعلقان بخبر مقدّم محذوف.

في الدهر: جار ومجرور متعلقان بحال مقدّم محذوف.

موعظة: مبتدأ مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

إن: حرف شرط جازم.

كنت: فعل ماض ناقص مبني على السكون لاتصاله بضمير الرفع، والتاء

ضمير متصل مبني على الفتح في محل رفع اسم كان، وهو فعل الشرط.

في سنة: جار ومجرور متعلقان بخبر كان المحذوف.

فالدهر: الفاء رابطة للشرط، الدهر مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

يقظان: خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

جملة (إن كنت...) استئنافية

جملة (الدهر يقظان) في محل جزم جواب شرط مقترن بالفاء.

5- يا راكبين: اليا حرف نداء، راكبين منادى شبيه بالمضاف منصوب وعلامة

نصبه الياء لأنه جمع مذكر سالم.

عتاق: مفعول به لاسم الفاعل (راكبين) منصوب، وعلامة نصبه الفتحة

الظاهرة.

الخيّل: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.

ضامرة: حال منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.

كأنها: كأن حرف مشبّه بالفعل، والها ضمير متصل مبني على السكون في محل نصب اسمها.

في مجال: جار ومجرور متعلقان بحال مقدم محذوف.
السبق: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.
عقبان: خبر كأن مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
جملة (كأنها عقبان) في محل نصب حال ثانية.

المنوع من الصرف:

- هو الاسم الذي لا ينون ويجرّ بفتحة نيابة عن الكسرة، كقولك (جاء يوسف) (ومررت بدمشق)، وإليك أشهر الصيغ الممنوعة من الصرف:
- 1- الأسماء المنتهية بألف التانيث الزائدة (الممدودة أو المقصورة) مثل: (صحراء - حسناء - سلمى - شعراء).
 - 2- صيغ منتهى الجمع وهي كل جمع تكسير ثالثه ألف مثل (مساجد - حوادث - حوانيث - مفاتيح).
 - 3- أسماء الأعلام المنتهية بتاء مربوطة مثل (عائشة - فاطمة).
 - 4- أسماء الأعلام الأعجمية مثل (إبراهيم - يوسف).
 - 5- الأسماء التي على وزن الأفعال مثل (يزيد - تغلب).
 - 6- الأسماء التي تنتهي بألف ونون زائدتين مثل (عدنان - مروان).
 - 7- الأسماء على وزن فُعل مثل (مُضر - عُمر).
 - 8- الصفة على وزن أفعل ومؤنثها فعلاء (أحمر - حمراء).
 - 9- الصفة على وزن فعلان ومؤنثها فعلى مثل (عطشان - عطشى).

وقد مرّ معك في نصّ أبي البقاء الرندي بعض الأسماء الممنوعة من الصرف مثل (أكاليل) في البيت السادس لكنّها صرفت في الشعر هنا ضرورة، و(ساسان)، في البيت السابع، و(قارون وقحطان) في البيت الثامن، و(جبان) في البيت الخامس عشر، و(حيارى) في البيت الرابع والثلاثين. ولا بد من تذكيرك بأمر وهو أن الممنوع من الصرف يصرف إذا عرّف بأل أو بالإضافة فنقول: (تصقل الحوادث همم الرجال) وتقول (تصقل حوادث الزمان همم الرجال).

قضايا بلاغية

من التشبيهات اللطيفة التي مرت في النص، تشبيه الخيل بالنسور في قوله:
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة
ف (كأنّ) أداة التشبيه، والها في كأنّ مشبّه، وعقبان مشبّه به، ووجه الشبه السرعة والقوة.

وتشبيه السيوف وهي تبرق بالنار التي تضيء ظلام الليل، في قوله:
وحاملين سيوف الهند مرهفة
كأنّها في ظلام النقع نيران

وتشبيه الطفلة بالشمس ثمّ بالياقوت والمرجان، في قوله:
وظفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
كأنّما هي ياقوت ومرجان

ومن الاستعارات، قوله:
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان

فكأنما شبّه الدار بقوة متسلّطة بيدها زمام الأمور ولها قدرة تبقي وتُزيل، ثم حذف المشبه به وذكر من لوازمه (لا تبقي على أحد) على سبيل الاستعارة المكنيّة.

وقوله:

حتى المحارِب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
كأنما شبّه المحارِب بإنسان وكذلك المنابر، ثم حذف المشبه به ودلّ عليه بـ (تبكي) وبـ (ترثي).

ومن الكنايات قوله:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وإنهدّ ثهلان
فالشطر الثاني كناية عن هول المصيبة وشدة وقعها.

وقوله:

أتى على الكلّ أمر لا مردّ له حتى قضوا فكأنّ القوم ما كانوا
فـ (أمر لا مردّ له) كناية عن موصوف وهو الموت.

ومن الطباق قوله:

هي الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساعته أزمان
استعان الشاعر بمطابقته بين (سرّ وساء) ليبرز المعنى المقصود وهو أنّ الزمان في تقلّب دائم.

وكذا قوله:

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرّات وأحزان
ومن الجناس قوله:

وأين ما شاده شدّاد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان

وقوله:

دار الزمان على دارا وقاتله وأم كسرى فما آواه إيوان

إذ جانس بين (دار) الفعل و(دارا) الاسم.

ومن بلاغة الاستفهام في النصّ معاني الاستبعاد والنفي والتعجب في مثل

قوله:

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

فمن شأن الاستفهام بـ (أين) في هذه الأبيات أن يحمل المخاطب على

التدبر والتفكر وأخذ العبر من مصير هؤلاء الملوك والقادة وما آل إليه حالهم

بعد العز والسلطان.



شعر عربي حديث

قال محمود سامي البارودي بسرنديب ينشوق إلى الوطن:

- 1- أعائد بك يا ريحانة- الزمن
 - 2- أشتاق رجعة أيامي لكازمة
 - 3- فهل تردّ الليالي بعض ما سلبت
 - 4- أهنتُ للحبّ نفسي بعد عزّتها
 - 5- لو لم يكن في الهوى سرّ لما ظهرت
 - 6- فكيف أملك نفسي بعدما علقت
 - 7- لولا جريرة عيني ما سمحتُ بها
 - 8- دعت إلى الغيّ قلبي فاستبدّ به
 - 9- ودون ما تبتغيه النفس من أرب
 - 10- وفي الأكلة آرام تطيف بها
 - 11- من كلّ حوراء مثل الطيبي لو نظرت
 - 12- في نشوة الراح من ألحاظها أثر
 - 13- دقت وجلّت ولانت وهي قاسية
 - 14- طوت بهنّ النوى عني بدور دجى
 - 15- أتبعثهم نظراتٍ كلّما بلغت
 - 16- يا راحلين وفي أحداجهم قمر
 - 17- منّوا عليّ بوصل أستعيد به
 - 18- أو فاسمحو لي بوعد إن ونت صلة
 - 19- لم ألق من بعدكم يوماً أسرّ به
 - 20- يا جيرة الحيّ ما لي لا أنال بكم
- فيلتقي الجفن- بعد البين- والوسن
وما بي الدار لولا الأهل والسكن
أم هل تعود إلى أوطانها الظعن
وأيّ ذي عزة للحب لا يهن
بوحى قدرته في العالم الفتن
بي الصبابة حتى شقني الوهن
للدمع تسفحه الأطلال والدمن
شوقاً تولّد منه الهم والشجن
بيداء تصهل في أرجائها الخصن
أسد برائتها الخطيّة اللذن
لعابد لشجاء اللهو والdden
وفي الجاذر من ألفاظها غنن
كذاك حدّ المواضي لئن خشن
لا يستبين لعيني بعدها سنن
أخرى الحمل ثناها مدمع هنن
يكاد يعبده من حسنه الوثن
من مهجتي رفقاً يحيا به البدن
فالوعد منكم بطيب العيش مقترن
كأن كلّ سرور بعدكم حزن
معونة وبكم في الناس يُعتون

- 21- ماذا عليكم وأنتم أهل بادرة إذا ترنم فيكم شاعر فطن
 22- أفي السوية أن يبكي الحمام ولا يبكي على إلفه ذو لوعة ضمن
 23- يا حبذا مصر لو دامت مودتها وهل يدوم لحى في الورى سكن
 24- تالله ما فارقتها النفس عن ملل وإنما هي أيام لها إحن
 25- فلا يسر عداتي ما بليت به فسوف تفنى ويبقى ذكرى الحسن
 26- ظنوا ابتعادي إغفالاً لمنقبتى وذلك عز لها لو أنهم فطنوا
 27- فإن أكن سرت عن أهلي وعن وطني فالناس أهلي وكل الأرض لي وطن
 28- لا يطمس الجهل ما أثقت من شرف وكيف يحجب نور الجونة الدخن
 29- قد يرفع العلم أقواماً وإن تربوا ويخفض الجهل أقواماً وإن خزّوا
 30- فرب ميت له من فضله نسّم ورب حي له من جهله كفن

المفردات:

- ريحانة: اسم الحبيبة أو صفتها أو هي مصر.
- كاظمة: موضع، الطعن ج طعينة، وهي الراحلة.
- الجريرة: الجناية والذنب، وجريرة عينه أنها نظرت إلى الحسناء المتغزل بها فهو بها وتعلق بها.
- البيداء: الصحراء، الصهيل صوت الفرس، الأرجاء: النواحي.
- الأكلة ج إكليل وهو شبه الغطاء يحيط بالشيء والمراد به هنا الستر الذي تُحجب فيه الفتاة وتُصان. الأرام ج رئم الطبي، براثن السباع مخالبيها، والخطية الرماح، اللدن: من الرمح اللدن فيه مرونة ولين.
- الددن: اللعب واللهو.
- الغنن ج غنة وهي صوت رخيم يخرج من الخيشوم.

- الحُمُول ج حمل وهو الهُدُج، الهُتُن ج هتون أي غزير منصَب.
- يُعْتَوْنَ: يستعان.
- أفي السوية: لا يستويان، ضمين: ذو مرض ملازم.

مساعدة إعرابية

- لم ألق من بعدكم يوماً أسراً به
 كَأَنَّ كُلَّ سرور بعدكم حزن
 لم: حرف نفي وجزم وقلب.
 ألق: فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة، والفاعل ضمير
 مستتر وجوباً تقديره أنا.
 من حرف جر.
 بعدكم: بعد اسم مجرور، وكم ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، والجار
 والمجرور متعلقان بفعل ألق.
 يوماً: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة.
 أسراً: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة، ونائب
 الفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا.
 به: جار ومجرور متعلقان بـ أسراً.
 كأن: حرف مشبّه بالفعل.
 كل: اسم كأن منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف.
 سرور: مضاف إليه مجرور وعلامة جزمه الكسرة الظاهرة.

بعدكم: بعد مفعول فيه ظرف زمان منصوب وعلامة نصبه الفتحة، وهو مضاف، وكم ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، والظرف متعلق بصفة محذوفة لسرور.

حزن: خبر كأن مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
(لم ألق) جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب.
(أسرّ به) جملة في محل نصب صفة لـ (يوماً).
(كأن كل...) استئنافية لا محل لها من الإعراب.

قضايا بلاغية:

الاستفهام

- 3- فهل تردّ الليالي بعض ما سلّبت: الاستفهام بـ (هل) أدّى معنى التمني كأنه يريد معنى: ليت الليالي تردّ بعض سلّبت، وكذلك (هل) في الشطر الثاني.
- 4- وأيّ ذي عزّة للحبّ لا يهن: الاستفهام بـ (أيّ) أدّى معنى النفي كأنه يريد معنى: ليس ثمة امرؤ ذو عزّة لا يهن للحبّ.
- 20- يا حيرة الحيّ ما لي لا أنال بكم: الاستفهام بـ (ما) هنا أدّى معنى التعجّب كأنه يريد إظهار تعجّبه.

التشبيه

- 10- تطيف بها أسد برائتها الخطيّة اللدن: شبه براثن الأسود بالرماح وهو من التشبيه البليغ إذ لم يذكر فيه أداة التشبيه والوجه.

11- من كل حوراء مثل الظبي لو نظرت: شبّه الحوراء بالظبي في نظرتها
الأسرة.

الاستعارة

16- ياراحلين وفي أحداجهم قمر: ها هنا استعارة تصريحية قامت على
تشبيه الحبيب بالقمر ثم حذف المشبّه والتصريح بالمشبّه به، وقد أدّت الاستعارة
هنا غرضي الإيجاز والمبالغة.

21- إذا ترنّم فيكم شاعر فطن: استعارة مكنية قامت على تشبيه الشاعر
بالبائر ثم حذف المشبّه وذكر ما يلزمه وهو فعل ترنّم.

مرّ في نصّ البارودي:

لو لم يكن في الهوى سرّ لما ظهرت	بوحى قدرته في العالم الفتن
أتبعتهم نظرات كلّما بلغت	أخرى الحمل ثناها مدمع هُتُن
فإن أكن سرت عن أهلي وعن وطني	فالناس أهلي وكلّ الأرض لي وطن

وقد اشتملت الأبيات على ثلاثة أساليب شرط، الأول: (لو لم يكن.. لما
ظهرت) والثاني: (كلّما بلغت... ثناها) والثالث (فإن أكن.. فالناس أهلي).
فما الشرط؟

الشرط هو ارتباط بين فعلين من خلال أداة شرط، وأسلوبه مؤلف من أداة شرط
وفعل شرط وجواب شرط، والأداة سواء كانت اسماً أو فعلاً إما جازمة وإما غير
جازمة.

أدوات الشرط الجازمة: هي أدوات تجزم فعلين الأول فعل الشرط والثاني جوابه وهي الحرفان (إن وإذما) والأسماء (من - ما - مهما - متى - أيان - أينما - حيثما - أنى - كيفما - أي).
إليك الأمثلة التالية:

- قال تعالى ((إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسَكُمْ)).

ومن <u>تَكُن</u> العلياء همّة نفسه	<u>فَكُلَّ</u> الذي يلقاه فيها محبّب
ومهما <u>تَكُن</u> عند امرئ من خليفة	<u>وإن</u> خالها تخفى على الناس <u>تعلم</u>
<u>متى</u> تأتاه تعشق إلى ضوء ناره	<u>تجد</u> خير نار عندها خير موقد

أدوات الشرط غير الجازمة: وهي (إذا - لمّا - لو - لولا - كلّما - أمّا).
إليك الأمثلة التالية:

قال تعالى (لو أَنْزَلْنَا هذا القرآن على جبل لَرَأَيْتَهُ خاشعاً متصدّعاً).

لولا الحياء لهاجني استعبار	ولزرت قبرك والحبیب يُزار
إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً	صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
كلّما قلت متى ميعادنا	ضحكت هند وقالت بعد غد

المسرحية

تعدّ المسرحيات اليونانية أقدم النصوص الناضجة المكتملة فنياً التي وصلت إلينا. ويعدّ كتاب أرسطو (فن الشعر) أول كتاب نقدي يتناول المسرحية ويتحدّث عن ألوانها وقواعدها الفنية.

ويشهد المسرح العالمي بالسبق لشعراء الإغريق الذين قدّموا أروع الأعمال المسرحية.

وفي إنكلترا برز الشاعر العبقرى وليم شكسبير في مجال الدراما فترك لنا سبعة وثلاثين مسرحية بين الكوميديا والتراجيديا، مثل: تاجر البندقية وهنري الرابع وعطيل وهاملت، وما تزال التراجيديا الشكسبيرية معلماً بارزاً في تاريخ المسرح العالمي.

ثم ظهرت بعد ذلك في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر (الدراما الشعبية)، وبعدها ظهرت أنواع أخرى للمسرحية، مثل: المسرح الملحمي والمسرحية الواقعية والمسرحية الرمزية، وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر في فرنسا مسرح اللامعقول أو العبث، ويرى رواد هذا المسرح أنّ الحياة عبثية سوداوية لا هدفَ لها مع انعدام التفاهم بين الناس.

أمّا أدبنا العربي فلم يعرف المسرحية إلا في العصر الحديث، وأول من أدخل المسرح إلى البلاد العربية الأديب اللبناني مارون النقّاش الذي ترجم بعض المسرحيات الغربية ومثّلها على مسارح بيروت. كما برز في هذا المجال المؤلف والمترجم أديب إسحاق وكذلك يعقوب صنوع وفرح أنطون اللذان كانا يجيدان عدداً من اللغات، فأكثرنا من الترجمة والاقتباس والتأليف في الجانب المسرحي.

وتدخل المسرحية العربية طوراً جديداً بظهور أعلام كبار في مصر كتبوا في هذا الفن، أشهرهم: محمود تيمور ومحمد تيمور، وتوفيق الحكيم، ويوسف إدريس، ونجيب سرور، كما ظهر في سورية المسرحي الكبير سعد الله ونوس. وازدهرت المسرحية الشعرية على يد أمير الشعراء أحمد شوقي، وعزيز أباظة، وصلاح عبد الصبور في مصر. وقد اخترنا مسرحية (نهر الجنون) لتوفيق الحكيم أنموذجاً للمسرحية النثرية في أدبنا العربي الحديث.

وتوفيق الحكيم رائد من رواد المسرح العربي، فإليه يعود الفضل في وضع اللبنة الأولى والأساسية للمسرح العربي، وإليه يعود الفضل أيضاً في تنوع هذا المسرح، فعلى المستوى الكلاسيكي قدم أوديب، وعلى مستوى استلهام التراث الديني الشرقي قدم أهل الكهف وسليمان الحكيم، وعلى مستوى استلهام التراث الأدبي قدم شهرزاد، وعلى المستوى الواقعي قدم الصفقة، وعلى مستوى الأدب الحديث اللامعقول قدم طالع الشجرة، هذا بالإضافة إلى أعماله الريادية الأخرى، مثل: مصير صرصار، وشمس النهار، والطعام لكل فم، ونهر الجنون.

نهر الجنون

فصل واحد

((بهو في قصر ملك من ملوك العصور الغابرة))

((الملك ووزيره منفردان.....))

الملك: ما نقص علي مروع!...

الوزير: قضاء وقع يا مولاي!...

الملك: ((في دهش وذهول)) الملكة؟...

الوزير: ((مطرقاً)) واحزنائه!...

الملك: هي أيضاً شربت من ماء النهر؟!...

الوزير: كما شرب أهل المملكة أجمعين!...

الملك: أين رأيت الملكة؟...

الوزير: في حديقة القصر!...

الملك: ما كان ينقص الخطب إلا هذا!...

الوزير: لقد حذرنا مولاي أن تقرب ماء النهر، وأوصاها أن تشرب من نبيذ

الكروم... لكنه القدر!...

الملك: قل لي كيف علمت أنها شربت من ماء النهر؟...

الوزير: سيماؤها... حركاتها!...

الملك: أحادثك؟!...

الوزير: لم أكد أقبل عليها حتى ازورت عني في شبه روع، كذلك فعلت

وصائفها وجواربها، وطفقن يتهاמשن وينظرن إلي نظرات المزورين!...

الملك: ((كالمخاطب نفسه)) كل هذا بدا لعيني في تلك الرؤيا!... رحمة بنا

أيتها السماء!...

الوزير: نعم... كل هذا رأيته عيناى من قبل...

((صمت.....))

الوزير: متى يذهب غضب السماء عن هذا النهر؟

الملك: من يدري؟...

الوزير: ألم ير مولاي فى تلك الرؤيا الهائلة ما ينبئ بالخلص؟!...

الملك: ((يحاول أن يتذكر)) لست أذكر!...

الوزير: تذكر يا مولاي!...

الملك: ((يحاول التذكر)) لست أذكر أكثر مما قصصت عليك.. رأيت النهر

أول الأمر فى لون الفجر، ثم أبصرت أفاعى سوداء قد هبطت فجأة من

السماء، وفى أنيابها سم تسكبه فى النهر، فإذا هو فى لون الليل!... وهتف بى

من يقول: ((حذار أن تشرب بعد الآن من نهر الجنون!...))

الوزير: ويلاه!...

الملك: وقد رأيت الناس كلهم يشربون!...

الوزير: إلا اثنين!

الملك: أنا وأنت!...

الوزير: وافرحناه!...

الملك: علام الفرح أيها الرجل

الوزير: ((يستدرك)) عفواً مولاي!... إن حزنى لعظيم!...

ليتني... ليتني كنت فداء الملكة!...

الملك: شد ما أبغض هذا الكلام!!... ليتك تستطيع على الأقل أن تجد لها

دواء!!... يحزننى أن يذهب مثل عقلها الراجح، ويخبو هذا الذهن اللامع فى

سماء هذه المملكة!...

الوزير: حقاً.. إنها كانت كالشمس في سماء هذه المملكة!!...
الملك: نعم!... أنت دائماً تردد ما أقول ولا تفعل شيئاً.. عليّ برأس
الأطباء!...

الوزير: رأس الأطباء!...
الملك: نعم رأس الأطباء...لعله يستطيع لها شفاء!...
الوزير: مولاي نسي أن رأس الأطباء كذلك قد ذهب!...
الملك: ذهب؟! أين؟!...
الوزير: هو أيضاً من الشارين!!...
الملك: يا للمصيبة!...
الوزير: لقد رأيته كذلك بين يدي الملكة، وقد تغيرت نظراته وحركاته، وكلما
لمحني هز رأسه هزاً لا أدرك له معنى!!...
الملك: رأس الأطباء قد جن!...
الوزير: نعم!!...
الملك: لقد كان نابغة زمانه...أية خسارة أن يصاب مثل هذا الرجل
بالجنون!?!...

الوزير: وفي وقت نحن أحوج ما نكون إلى علمه وطبه!...
الملك: ليس في هذه المملكة الآن غير واحد يستطيع إنقاذنا مما نحن
فيه!...
الوزير: من يا مولاي?!...
الملك: كبير الكهان!...
الوزير: واحسرتاه!...
الملك: ماذا?!...

الوزير: منهم يا مولاي!...

الملك: ما تقول؟... من الشارين؟...

الوزير: أجل منهم!!...

الملك: هذا ولا ريب ما يسمى بالخطب الجلل!... حتى كبير الكهان أصيب بالجنون، وهو أحسن الناس رأياً، وأبعدهم نظراً، وأثبتهم إيماناً، وأطهرهم قلباً، وأدناهم إلى السماء!...

الوزير: هو القضاء يا مولاي... ألم أقل إنه قضاء وقع؟!...

الملك: أجل... إنها لكارثة شاملة!... ليس لها من نظير، لا في التواريخ ولا في الأساطير... مملكة بأسرها قد أصابها الجنون دفعة واحدة، ولم يبق بها ناعم بعقله غير الملك والوزير؟!...

الوزير: ((يرفع رأسه إلى أعلى)) رحمة السماء!...

الملك: اصغ أيها الوزير!... إن السماء التي حبتنا بالاستثناء، وحفظت علينا نعمة العقل، لا ريب ترانا خليقين أن تستجيب منا الدعاء!... هلم بنا إلى معبد القصر، نصلي وندعو أن ترد إلى الملكة والناس عقولهم!... هذا آخر ملجأ نستطيع أن نلتجئ إليه...

الوزير: أجل يا مولاي... آخر ملجأ لنا وخير ملجأ: السماء!...

((يخرجان من أحد الأبواب.....))

((يدخل من باب آخر، الملكة، ورأس الأطباء، وكبير الكهان..))

الملكة: إنه لخطب فادح!...

رأس الأطباء، وكبير الكهان: (معا) أجل!... إنها الطامة الكبرى!...

الملكة: (لرأس الأطباء) أما من حيلة للطب في رد نور العقل إلى هذين

البائسين؟!...

رأس الأطباء: يشق عليّ هذا العجز مني أيتها الملكة!...
الملكة: تفكر يا رأس الأطباء!...
رأس الأطباء: لقد تفكرت ملياً يا مولاتي.. إن ما أصابهما لا يسعه علمي!...
الملكة: أأقنط إذن من شفاء زوجي؟!...
رأس الأطباء: لا تقنطي يا مولاتي... هنالك معجزات تهبط أحياناً من السماء!... هي فوق الأطباء؟!...
الملكة: ومتى تهبط تلك المعجزات!...
رأس الأطباء: من يدري يا مولاتي!...
الملكة: يا كبير الكهان!... استنزل لي واحدة منها الآن!... الآن!... الآن!...
كبير الكهان: أستنزل واحدة من ماذا؟!...
الملكة: واحدة من تلك المعجزات التي في السماء!...
كبير الكهان: من قال يا مولاتي إنني أستطيع أن أستنزل شيئاً من السماء؟!...
الملكة: أليس هذا من عملك؟!...
كبير الكهان: إن السماء يا مولاتي ليست كالنخيل، يستطيع الانسان أن يستنزل منها ما شاء من ثمار...
الملكة: ألا تستطيع إذن أن تصنع شيئاً؟!... إنني زوج تحب زوجها!... إنني امرأة تريد إنقاذ رجلها... أنقذوا زوجي!... أنقذوا زوجي!...
رأس الأطباء: بعض الصبر يا مولاتي!...

كبير الكهان: دع الملكة تقول!... إنها لعلى حق...هي تبكي زوجها
كريماً!...الناس كذلك لو عرفوا الحقيقة لبكوا ملكاً كان حازم الرأي راجح
العقل!...

الملكة: احذروا أن يعرف الناس الخبر!...
كبير الكهان: نحن أصمت من قبر يا مولاتي!...غير أنني أخشى عاقبة
الأمر... وأي مصيبة أفدح من علم الناس بأن الملك والوزير...
الملكة: صه!... إن هذا مروع!...
كبير الكهان: حقاً. إن هذا مروع وعظيم الخطر!...
الملكة: ما المخرج؟!... لا نقفا من الأمر موقف اليأس... افعل شيئاً...
إنني أفقد عقلي أنا أيضاً، ولا ريب، إن طال أمد هذا الحال!...
كبير الكهان: لو أن في مقدوري فهم ما يدور برأسه!!...
الملكة: إنه يذكر النهر في فزع، ويزعم أن ماءه مسموم!!...
كبير الكهان: وماذا يشرب إذن؟...
الملكة: نبيذ الكروم؟... ولا شيء غير نبيذ الكروم!...
رأس الأطباء: نعم... نبيذ الكروم!... يغلب على ظني أن الإدمان قد أثر
في عقله!...

الملكة: إن كان الداء فيما تقول فما أيسر الدواء!... تمنع عنه الخمر!...
رأس الأطباء: وماذا يشرب؟!...
الملكة: ماء النهر!...
رأس الأطباء: أتحسبينه يرضى يا مولاتي؟!...
الملكة: أنا أحمله على ذلك!...
رأس الأطباء: ((يلتفت إلى صوت قريب)) ها هو ذا الملك قادم!...

الملكة: ((تشير إلى رأس الأطباء وكبير الكهان)) اتركنا وحدنا!...
((يخرجان، ويتركان الملكة، تتأهب لملاقاة الملك))
الملك: ((يراهما فيقف بغتة في مكانه)) أنت هنا؟...
الملكة: ((تتظر إليه ملياً)) نعم!!...
الملك: لماذا تنتظرين إليّ هذه النظرات؟!...
الملكة: ((تتظر إليه وتهمس متوسلة)) أيتها المعجزات!!...
الملك: ((يتألمها في حزن)) ويلي!!... إن قلبي يتمزق!... لو تعلمين مقدار
ألمي أيتها العزيزة؟!...
الملكة: ((تحقق في وجهه)) لماذا؟!...
الملك: لماذا؟!... نعم أنت لا تعرفين!... هذا الرأس الجميل، لا يمكن إلا أن
يعرف!...
الملكة: ما الذي يؤلمك أنت؟...
الملك: ((ينظر إليها ملياً)) يؤلمني... هل أستطيع أن أقول؟... هذا فوق ما
أحتمل!...
الملكة: ((كالدهشة)) إنك تشعر بالنازلة؟...
الملك: أتسأليني؟... وأي شعور؟!...
الملكة: ((في استغراب)) هذا غريب!...
الملك: واحزنه!...
الملكة: ((تتأمله لحظة في إشفاق، ثم تجذبه)) تعال أيها العزيز اجلس إليّ
جانبي على هذا الفراش، ولا تحزن كل هذا الحزن!... لقد آن لهذا الشر أن يزول
عنا!!...
الملك: ماذا تقولين؟!...

الملكة: نعم... ثق أنه سيزول!...

الملك: ((يتأملها دهشاً)) إنك تحسين ما حدث؟!...

الملكة: كيف لا أحس أيها العزيز، وهو ما يملأ نفسي أسى؟!...

الملك: ((ينظر إليها ملياً)) هذا عجيب!...

الملكة: لماذا تنظر إلي هذه النظرات؟!...

الملك: ((متوسماً في إشفاق)) أيتها السماء!...

الملكة: تدعو السماء؟!... وقد استجابت السماء!...

الملك: ماذا أسمع؟!...

الملكة: ((في فرح)) لقد وجدنا الدواء!...

الملك: وجدتم الدواء؟! متى؟!...

الملكة: ((في فرح)) اليوم!!...

الملك: ((في حرارة)) وافرحناه!...

الملكة: نعم .. وافرحناه!... إنما ينبغي لك أن تصغي إلي ما أقول، وأن تعمل بما أنصح لك به!... يجب عليك أن تقلع من فورك عن شرب النبيذ وأن تشرب من ماء النهر!!...

الملك: ((ينظر إليها، وقد عاد إلى يأسه وحزنه)) ماء النهر!...

الملكة: ((بقوة)) نعم

الملك: ((كالمخاطب نفسه)) ويحي...أنا الذي حسب السماء قد استجابت!

الملكة: ((في قوة)) اصنع إليّ واعمل بما أقول!

الملك: ((ينظر إليها ملياً في يأس)) إني لأرى الأمر يزداد في كل يوم شراً!...وهل كان يخطر لي على بال أنها تتكلم مثل هذا الكلام؟!... وأن ما

بها يبلغ هذا؟ ويلاه!!... لا بد من إنقاذها!!... لا بد من إنقاذها!!... كاد يذهب
من رأسي العقل ((يخرج سريعاً)) أيها الوزير... عليّ بالوزير!!...
الملكة: ((كالمخاطبة لنفسها في حزن وإطراق)) صدق رأس الأطباء، إن
الأمر لأعسر مما!...((تتنهد وتخرج))
الوزير: ((يدخل من باب آخر متغير الوجه)) مولاي!... مولاي!...
الملك: ((يعود أدراجه)) أيها الوزير!...
الوزير: جئتُك بخبر هائل!...
الملك: ((في رجفة)) ماذا أيضاً؟...
الوزير: أتدري ما يقول الناس عنا؟...
الملك: أي ناس؟...
الوزير: المجانين؟...
الملك: ماذا يقولون؟
الوزير: يزعمون أنهم هم العقلاء، وأن الملك والوزير هما المصابان!!
الملك: صه!.. من قال هذا الهراء؟...
الوزير: تلك عقيدتهم الآن!...
الملك: ((في تهكم حزين)) نحن المصابون وهم العقلاء؟!... أيتها السماء
رحماك!... إنهم لا يشعرون أنهم جنّوا!...
الوزير: صدقت...
الملك: يخيل إليّ أن المجنون لا يشعر أنه مجنون!...
الوزير: هذا ما أرى...
الملك: إن الملكة، واحسرتها، كانت تحادثني الآن وكأنها تعقل ما تقول، بل
لقد كانت تبدي لي الحزن وتسدي إليّ النصيح!...

الوزير: نعم!... نعم!... كذلك صنع كل من قابلت من رجال القصر وأهل المدينة...

الملك: أيتها السماء رفقا بهم!...

الوزير: ((في تردد)) وبنا!...

الملك: ((متسائلاً في دهش)) وبنا؟!...

الوزير: مولاي! إني...أريد أن أقول شيئاً!...

الملك: ((في خوف)) تقول ماذا؟!...

الوزير: إني كدت أرى...

الملك: ((في خوف)) ترى ماذا؟!...

الوزير: إنهم... كل شيء...!

الملك: من هم...؟!...

الوزير: الناس...المجانين... إنهم يرموننا بالجنون، ويتهامسون علينا، ويتآمرون بنا... ومهما يكن من أمرهم، وأمر عقلهم، فإن الغلبة لهم، بل إنهم هم وحدهم الذين يملكون الفصل بين العقل والجنون، لأنهم هم البحر وما نحن معاً إلا حبتان من رمل...

أسمع مني نصحاً يا مولاي؟!...

الملك: أعرف ماذا تريد أن تقول!...

الوزير: نعم... هلم نصنع مثلهم، ونشرب من ماء النهر!...

الملك: ((ينظر إلى وجه الوزير ملياً)) أيها المسكين!... إنك قد شربت...

أرى شعاعاً من الجنون يلمع في عينيك!...

الوزير: كلا...لم أفعل بعد!...

الملك: أصدقني القول!!...

الوزير: ((في قوة)) أصدقك القول.. إني سأشرب!... وقد أزمعت أن أصير
مجنوناً مثل بقية الناس... إني أضيّق ذرعاً بهذا العقل بينهم.

الملك: تطفئ من رأسك نور العقل بيديك!...

الوزير: نور العقل؟... ما قيمة نور العقل في وسط مملكة من
المجانين؟!... ثِق أننا لو أصررنا على ما نحن فيه، لا نأمن أن يثب علينا
هؤلاء القوم!... إني لأرى في عيونهم فتنة تضطرم، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى
يصيحوا في الطرقات: ((الملك ووزيره قد جنّا، فلنخلع المجنونين!...))

الملك: ولكننا لسنا بمجنونين!...

الوزير: كيف تعلم؟!...

الملك: ويحك!... أتقول جنا؟!...

الوزير: إنك قد قلتها الساعة يا مولاي: إن المجنون لا يشعر أنه
مجنون!!...

الملك: ((صائحاً)) ولكني عاقل، وهؤلاء الناس مجانين!...

الوزير: هم أيضاً يزعمون هذا الزعم!!...

الملك: وأنت؟... ألا تعتقد في صحة عقلي؟...

الوزير: عقيدتي فيك وحدها ما نفعها؟... إن شهادة مجنون لمجنون لا تعني
شيئاً!...

الملك: ولكنك تعرف أنني لم أشرب قط من ماء النهر!...

الوزير: أعرف!...

الملك: وأناي قد سلمت من الجنون، لأنني لم أشرب، وأصيب الناس، لأنهم

شربوا!...

الوزير: هم يقولون بأنهم إنما سلموا هم من الجنون لأنهم شربوا، وإنَّ الملك إنما جن لأنه لم يشرب!...

الملك: عجباً!...إنها لصفاء وجهه!...

الوزير: هذا قولهم وهم المصدقون، وأما أنت فلن تجد واحداً يصدقك!...

الملك: أهكذا يستطيعون أيضاً أن يجترئوا على الحق؟!...

الوزير: الحق؟!...((يخفي ضحكته))

الملك: أتضحك؟!...

الوزير: إن هذه الكلمة منا في هذا الموقف غريبة!

الملك: ((في رجفة)) لماذا؟!...

الوزير: الحق والعقل والفضيلة، كلها أصبحت ملكاً لهؤلاء الناس أيضاً...

هم وحدهم أصحابها الآن...

الملك: وأنا؟!...

الوزير: أنت بمفردك لا تملك منها شيئاً!...

((الملك يطرق في تفكير وصمت...))

الملك: ((يرفع رأسه أخيراً)) صدقت...إني أرى حياتي لا يمكن أن تدوم

على هذا النحو!...

الوزير: أجل يا مولاي... وإنه لمن الخير لك أن تعيش مع الملكة والناس

في تفاهم وصفاء، ولو منحت عقلك من أجل هذا ثمناً!...

الملك: ((في تفكير)) نعم!... إن هذا كل الخير لي... إن الجنون يعطيني

رغد العيش مع الملكة والناس كما تقول، وأما العقل فماذا يعطيني؟!...

الوزير: لا شيء.. إنه يجعلك منبوذاً من الجميع... مجنوناً في نظر

الجميع؟!...

الملك: إذن فمن الجنون ألا أختار الجنون؟...
الوزير: هذا عين ما أقول!...
الملك: بل إنه لمن العقل أن أؤثر الجنون!...
الوزير: هذا لا ريب عندي فيه!...
الملك: ما الفرق إذن بين العقل والجنون؟!...
الوزير: ((وقد بوغت)) انتظر!... ((يفكر لحظة)) لست أتبين فرقاً!...
الملك: ((في عجلة)) عليّ بكأس من ماء النهر!...

إضاءة على النص

تقع هذه المسرحية في فصل واحد، وهي تعالج معنى ذهنياً مجرداً، وتقوم فكرتها على أنّ النهر الذي يشرب منه أبناء المملكة غضبت عليه السماء، ولهذا أرسلت الأفاعي لتسكب سمومها في النهر، ويحلم الملك أنّ أبناء المملكة كلّهم شربوا من هذا النهر فأصيبوا بالجنون، بمن فيهم الملكة وكبير الأطباء، أمّا هو ووزيره فلم يشربا من النهر.

ويظن أهل المملكة أنّ الملك والوزير أصيبا بالجنون، ولهذا تبحث الملكة عن وسيلة لعلاج الملك، أمّا الملك فيظن أنّ زوجته أصيبت بالجنون وتحتاج إلى علاج سريع، وبهذا أصبح كل فريق يشكّ في عقل الآخر.

والمسرحية لا تقدّم شخصاً نامية، ولم يهتم المؤلف برسم ملامح واضحة لشخصه، لأنّ طبيعة هذا اللون من الفن المسرحي تفرض ذلك.

فالملك رمزٌ لفكرة والملكة كذلك، وهذه الأفكار تصل إلى نتيجة، مفادها: أنَّ الحقيقة تعني ما تعارف الناس عليه أنه حقيقي، وغير ذلك لا وجود له إلا في عقل الإنسان الفرد الذي لا يستطيع أن يقف وحده أمام المجتمع وتقاليده، وبالتالي يقرّر الملك والوزير أن يشربا من النهر ويصبحا من أهل المملكة المجانين بحثاً عن الانتظام في إطار المجتمع.



المنظرة

المنظرة تأتي على شكل رسالة يدور الحوار فيها بين شيئين أو أكثر أو بين شخصين حول موضوع معين، ويهدف الكاتب من ورائها إلى إظهار قدرته البيانية وبراعته الأسلوبية في الموضوع الذي يكتب فيه. وقد عرف المشاركة هذا الفن وأشهرهم الجاحظ الذي كتب عدداً من المناظرات منها: رسالته في فخر السودان على البيضان، ورسالته في مفاخرة الجواري والغلمان.

وقد غرّب هذا الفن (فن المنظرة) إلى الأندلس، وأبدع الأندلسيون فيه، وخلعوا عليه شيئاً من روحهم وبيئتهم وطبيعتهم الساحرة، وقد حاكوا المشاركة في بعض الموضوعات، واستحدثوا موضوعات أخرى من صميم البيئة الأندلسية.

ومن أدباء الأندلس الذين برعوا في هذا الفن: ابن شهيد في رسالته (التوابع والزوابع)، وابن برد الأصغر في مناظرته بين الورود والأزهار والرياحين ومناظرته الشهيرة بين السيف والقلم، وأبو بحر صفوان بن إدريس ولسان الدين بن الخطيب في المناظرات بين المدن.

وتعدّ المناظرات بين المدن والمناظرات بين القصور من مستحدثات الأندلسيين، فهي جديدة في موضوعها، إذ لا نجد ما يماثلها في أدب المشاركة. واستخدم الأندلسيون هذه المناظرات للوصف والمدح، إذ اتخذوها وسيلة للثناء على الأمراء والعظماء في أغلب الأحيان، وقد جاءت بأسلوب قصصي

ممتع، مع الاعتماد على الابتكار والجدة والطرافة واستخدام الأمثال والحكم وتدعيم النثر بالشعر، والاقتباس من القرآن الكريم. والإكثار من أنواع التشبيه والاستعارات، والاحتفال بألوان البديع المختلفة، حتى غدت المناظرات ميداناً يتسابق فيه الكتّاب ويعارض فيه بعضهم بعضاً، للوصول إلى الغرض المقصود وتحقيق المتعة وإبراز المقدرة والبراعة في التأليف.

وسنتناول في حديثنا المناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وهي من أبرز ما تركه الأدباء في فن المناظرة.

وأبو حفص بن برد الأصغر أديب أندلسي من قرطبة، توفي سنة 418 هـ، برع في النثر والنظم، من أسرة اشتهرت بالكتابة، اتصل بالعديد من ملوك الطوائف.

المنظرة

بين السيف والقلم⁽¹⁾

كتبها ابن برد إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري: يقول فيها: أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه. والصلاة على خاتم أنبيائه. فإنّ التسابق من جوادين سبقا في حلبة. وقضيين نُسقا في تربة، والتحاسد من نجمين أنارا في أفق. وسهمين صارا على نسق، والتفاخر من زهرتين تفتّحتا من كمامة، وبارقتين توضّحتا من غمامة. لأحمدُ وجوه الحسد، وإن كان مذموماً مع الأبد. وربما امتدّ أحدُ الجوادين بخطوة. أو خُص أحدُ القضيين بربوة. أو كان أحدُ السّهمين أنفذَ مصيرا، أو راح أحدُ النجمين أضواً تتويرا. أو غدت إحدى الزّهرتين أندى غُضارة. أو أمتت إحدى البارقتين أسنى إنارة، فالمقصّر يرتقب تقدماً. وتَقارب الحالتين في المجانسة يَشُب نار المنافسة. وإن حال بينهما قَدَح النقّاد. وقبح تحاسد الأضداد.

وإنّ السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد. مَنْ بات يَسري إلى المجد. وسُلمين يلحقان بالكواكب. مَنْ ارتقى لساميات المراتب. وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تَقَرَّى إليه. ويجمعان شمل الفخر لمن تأشّب عليه. ووسيلتين يُرشفان العلى فم عاشقها. ويبسطان في وصال المنى يد واملها، وشفيعين لا يؤخر تشفيعُهما. ومجمّعين لا يفرّق تجميعُهما. جرّرا أذيال

¹ - النص مأخوذ من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني - القسم الأول، المجلد الأول، تحقيق د. إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس 1975.

الخيلاء تفاخراً. وأشماً بأئف الكبرياء تنافراً. وادّعى كل واحد منهما أن الفوز لقده. وأنّ الوريّ لقّده. وأنّ الدرّ من أصدافه، وأنّ البكر من زفافه. وأنّ البناء من تشييده. وأنّ الملاء من تعزيده. وأنّ كباء الثّناء موقوف على مجامره، وأنّ خطيب الفخر محبوس على منابره، وأنّ خلل المآثر من نسيجه، وأنّ أفراد المفاخر من تزويجه. وحين كشف الجدال قناعه، ومدّ الخصام ذراعه، وهزّ الإباء من عطفه، وأشمّ الأنف من أنفه، قاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه، ويذكر فضل ما اجتثي من غرسه، ويبأى بمنقبة نافرت السّها، ومرتبة روضة خيسها، ورياسة من ذوائب الجوزاء صادها، ونباهة في صهوة العيوق أفادها.

فقال <القلم>: ها، الله أكبر! أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك، ويحيرُ جنانك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيّق ذرّك. خيرُ الأقوال الحقّ، وأحمدُ السّجايا الصدق. والأفضلُ من فضله الله عزّ وجلّ في تنزيله، مُقسماً به لرسوله، فقال: ((ن. والقلم وما يسطرون)) (القلم: 1)، وقال: ((اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم)) (العلق: 4) فجّل من مُقسم، وعزّ من قسّم، فما تراني، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجّلت بين قلب الإنسان وخاطره؟ لقد أخذتُ الفضل برُمته، وقدتُ الفخر بأزمته.

فقال السّيّف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسرّ ولكن أعلن، قيمة كلّ امرئ ما يحسن. إنّ عاتقاً حمل نجادي لسعيد، وإنّ عضداً بات وسادي لسديد، وإنّ فتى اتّخذني دليله لمهديّ، وإنّ امرأ صيرني رسيّله لمفديّ، يشقّ مني الدجى بمصباح، ويقابلُ كلّ بابٍ بمفتاح. أفصحُ والبطلُ قد خرّس، وأبتسمُ والأجلُ قد عبس،

أقضي فلا أنصف، وأمضي فلا أصرف؛ أزرى بالوفاء، وأهتك الأمة هتك الرداء.

فقال القلم: نعوذ بالله من الخور بعد الكور. وقبحاً للتحلي بالجور. والخيانة تسود ما بيض الصفاء، وتكثر ما أخلص الإخاء؛ وتؤكد أسباب الفتن، وتضرب بقдах الفتن. الحق أبلج، والباطل لجلج، إن تأبى النصفة فإنها في قدحها لمأمنة الطائر، محمودة الباطن والظاهر. أحكم فأعدل، وأشهد فأقبل، وترحل عزماتي شرقاً وغرباً ولا أرحل؛ أعد فأفي، وأستكفي فأكفي، أحلب الغنى من ضرّعه، وأجتني الندى من فروعه. وهل أنا إلا قطب تدور عليه الدول، وجواد شأؤه يدرك الأمل، شفيع كل ملك إلى مطالبه، ووسيلته إلى مكاسبه؛ وشاهد نجواه قبل كل شاهد، ووارد معناه قبل كل وارد.

فقال السيف: يا الله! استنتت الفصال حتى القرعى، ورُبّ صلف تحت الزاعدة؛ لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة. أمستعربً والفسل ثمنك، ومستجلبً وكل بقعة وطنك؟ جسم < عار >، ودمع بار، تخفى فتتعل بزياً، حتى يعود جسمك فياً، إن الملوك لتبادر إلى دزكي، ولنتحاسد في ملكي، ولنتوارثني على النسب، ولتغالي فيّ على الحساب، فتكلّني المرجان، وتتعلي العقيان، وتلحفني بخلل كخلل، وحمائل كحمائل، حتى أبرز براز الهندي يوم الجلاء، والروض غب السماء.

فقال القلم: من ساء سمعاً ساء إجابة. أستهيذ بالله من خطلي أزعيت فيه سوامك، وزلل افتتحت به كلامك؛ إن ازدراءك بتمكّن وجداني، وبخس أثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك؛ ألا وإنّ الذهب معدنه في العفر، وهو أنفس الجواهر، [والنار] مكنها في الحجر، وهي إحدى العناصر، وإنّ الماء وهو الحياة، أكثر المعاييش وجداناً، وأقلها أثماناً. وقلمًا

تلقى الأغلاق النفيسة، إلا في الأمكنة الخسيسة. وأما التّعري: فغنينا بالجمال
عن جرّ الأذيال؛ وهل يصلح الدر حتى يُطرح صدفه، أو يبتهج الإغريض حتى
يُشدّب سعفه؛ أم يتلأل الصبح حتى تتجلي سدفه؟ إن الضحاء للرجال معروف،
وإن الخفر على النساء موقوف. ولولا جلاء الصياقل صدأك لأسرعت ذهاباً،
وعدت مع التراب تراباً.

فقال السيف: جعجة رحي لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن، في
وجه مالك تعرف أمرته؛ وجه لئيم، وجسم سقيم، وغرب يفلّ، ودم يطلّ، ودُموع
سجام، كأنهن سُخام، ورأس لم يتقلقل فيه لب، وجوف لم يتخضخض فيه قلب،
أوحش من جوف العير، يشهد عليه كثرة الجور بقلة الخير. فهُبّ من نومك،
وأفطر من صومك، وتحكّم بطرف نظار، في جسم ماء وحلة نار. إن انتضاني
جاهل، أوهمته أني سائل، ففرّ خوفاً أن يغرق، وولى حذراً أن يحترق؛ في بحر
زيده الشعل، وبرق سحابه الخلل؛ لو انتضيتُ والشمس كاسفة لم يُنظر وقت
تجليها. أو السنون مجدبةً أيقن بالحيا راعيها. قد خطّ الفرند في صفحتي أمثال
صغار الخيلان، في البيض من صفحات الحسان. أكرع يوم الوغى في لبة
البطل، فأعود كالخد كُسي صبغ الخجل، كأنما اشتملت بالشقيق، أو شربت ماء
العقيق.

فقال القلم: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً. ما كل بيضاء شحمة ولا كل
سوداء ثمرة. إن ماءك السائل لجامد. وإن جرمك الملتهب لبارد، ولن يغرق فيه
حتى تكرر في السباسب العطاش، ولن يحترق به حتى يقع في نار الحباب
الفراش، فأقصر عن جفئك من العمى رواقاً. واحلل من خصرك للجهل نطاقاً،
يسفر البلاء لك عن قضيب عاج، ولسان سراج. وقدح ورق جلّ بالعقيان.
وحلّة نرجس فوق جسم أقحوان؛ لئيل في فوديه لطخ، وللمسك

في صدغيه نضخ. أنجلي عن المهارق، انجلاء الغمام عن الحقائق، وأرقم في بطون الصحف، ما لا يرقم الربيع في الرّوضة الأنف، من منمنم يختال بين مسهّم، ومعضد فوق مسرد.

ولما كثر تعارضهما، وطال تراوضهما، وقابل كل واحد منهما بجمعه جمعاً، وقرع بنبعه نبعاً، ولم يثن أحد الصّارمين كهاماً، ولا ارتد أحد العارضين جهاماً، تبادرا إلى السّلم يعقدان لواءها، وإلى المؤالفة يردان ماءها؛ وقالوا إن من القبيح أن تنتشت أهواؤنا، وتتفرق آراؤنا، وقد جمعنا الله في المألف الكريم. وأحلنا بمحل غير ذميم، بأعلى يد نالت آمالها، ووافقت المطالب في أوطانها، ولم تقابل باباً مغلقاً إلا قرعته، ولا حجاباً مضلعاً إلا رفعته، ولا جدّاً عاثراً إلا أقالته- ولا أملاً غائراً إلا أسالته تلك يد الموفق أبي الجيش مولى المعالي ومسترقّها، ومستوجب المكارم ومستحقّها، العاقد لواء المجد بذوائب السّمك، والمطلّ بفخره على الأفلاك، والمقدم إذا أحجمت الأبطال، والضاحك إذا بكت الآجال، والسّاري إلى العلياء إذا أدلج الكرام، والمُسَهّد في الآراء إذا هجد الأنام، والطالب ثار العديم بجوده والمشفع النّيل بمزيده، والمسعف لميعاده والمخلف لإيعاده والمجري في ذوايات الهمم ماءً، والمطلع في ظلمات الآمال سناءً. فإذا قد عدل بيننا بحكمه، يوم وغاه ويوم سلمه، فجاوز بك حد المسالمة، وجاوز بي حد المشاركة، ولم يثك حتى بلغ مناه، ولم يثنني حتى وافق >هواه< ولم يقصر بي عن غاية بلّغك إليها، ولم يقدمك إلى مرتبة أخزني عنها، فأجمل رداءً نرتديه، وأفضل حذاءً نحتديه، وأهدى سبيل نقصده، وأصفى منهل نرده، مؤالفة نجرر ذيلها، ونميل ميلها، ومعاشرة نتجاني ثمارها، ونتعاطى عقارها، وذنوب نخلي أوطانها، ونهدم بنيانها، ودمن نعيّ دمنها، ونردّ في أجفانها وسنها.

ثم قال القلم: إن مما نبرم به عقدنا وننظم عقدنا، ويستظهر به بعضنا على بعض، إن حالت حال، كان للدهر انتقال، أن نخطّ كتاباً مصيباً، يكون لنا مناباً وعلينا رقيباً، فقد يدبّ الدهر بعقاره بين المرء وأقاربه. ويسعى بالنميمة، بين الفرعين من الأرومة.

فقال السيف: أنت والبيان، وجرياً والميدان.

فقال القلم: إن النثر في ذلك ممثّل يسير، وإن الشعر في ذلك ذكر خطير، وإنه لشدو الحادي، وزاد الرائح والغادي، وأختاره على النثر، تتويهاً بالذكر: فقال:

قد آن للسيف ألا يفضل القلما	مذ سخرًا لفتى حاز الغلى بهما
إن يُجتنَ المجد غضاً من كمامه	فإنما يُجتنى من بعض غرسهما
ما جاريا أملاً فوافياً أمداً	إلا وكانت خصال السبق بينهما
سقاهما الدهر من تشتيته جرأ	ولليالي صروف تقطع الرحما
حتى إذا نام طرّف الجهل وانتبهت	عين النهى قرعا سنيهما ندما
راحا بكفّ أبي الجيش التي خلقت	غمامة كل حين تمطر النعما
فعاد حبّلهما المنبت منعقداً	وراح شملهما المنقض ملتتما
يا أيها الملك السامي بهمته	إلى سماء علا قد أعيت الهمما
لولا طلابي غريب المدح فيك لما	وصفت قبل غلاك السيف والقلما
وإنما كان تعريفاً كشفت به	من البلاغة وجهاً كان ملتتما

إضاءة على النص

مناظرة ابن برد الأصغر بين (السيف والقلم)، جاءت على شكل رسالة كتبها ابن برد إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري، يعكس من خلالها واقع حال الكتاب في عصر الطوائف بالأندلس، حيث تراجعت مكانة الكتاب في حين حصل الجند على مكانة مرموقة في ظل ملوك الطوائف.

يمدح ابن برد في هذه المناظرة مجاهداً العامري، ويدعوه إلى التسوية بين الجند وأرباب القلم.

يشير الكاتب منذ بداية الرسالة إلى إيمانه بقيمة كل من السيف والقلم، فهما مطية للوصول إلى المجد والرقي للمراتب العالية ((كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد، وسلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب)). ويسرد الكاتب مجموعة من الصفات التي يشتركان فيها إلى أن يدخل حلبة المناظرة، فكل منهما يحاول أن يثبت تقدمه وتفوقه على الآخر. ويؤكد القلم أفضليته إذ ورد ذكره في القرآن الكريم، فيقتبس ابن برد بعض آيات القرآن الكريم مبرزاً أهمية القلم، يقول على لسان القلم: ((خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق، والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله مقسماً به لرسوله، فقال: ((ن والقلم وما يسطرون)) وقال: ((اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم)) فجل من مقسم وعز من قسم! لقد أخذت الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته)).

فقال السيف: ((إن الملوك لتبادر إلى دركي وتتحاسد في ملكي، ولتتوارثني على النسب ولتغالي في على الحساب... حتى أبرز بروز الهندي يوم الجلاء والروض غب السماء...)).

ويلجأ الكاتب إلى تضمين الأمثال والحكم ضمن الحوار الذي يجريه في المناظرة ببراعة فائقة، ويحاول من خلال ذلك إبراز مخزونه الثقافي وغزارة

علمه، يقول على لسان كل من السيف والقلم: ((فقال القلم: مَنْ سَاءَ سَمْعاً سَاءَ إجابة... ولولا جلاء الصياقل صدأكَ لأسرعتَ ذهاباً وعُدتَ مع التراب تراباً...)).

((فقال السيف: جعجة رحي لا يتبعها طحنٌ، وجلجلة رعد لا يليها مزنٌ، فهب من نومك وأفطر من صومك...)).

((فقال القلم: إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً، ما كلُّ بيضاء شحمة، ولا كلُّ سوداء ثمرة)).

ولما رأى السيف والقلم أنهما أكثرا من التعارض، وطال الجدل بينهما، جناحا إلى السلم، وأبرما معاهدة صلح، فهما في يد أنبل الرجال الموفق أبي الجيش... ويختتم ابن برد المناظرة بأبيات شعر يمدح فيها مجاهداً العامري، ويدعوه إلى التسوية بين الجند والكتاب.

فالرسالة - كما لاحظنا - في مدح مجاهد العامري وفيها يشكو ابن برد من هذه التفرقة بين الجند والكتاب، لكنه لم يصرح بذلك، بل لجأ إلى الرمز، فرمز بالسيف فيها لرجال الجيش وبالقلم لأرباب الفكر، وأنهى المناظرة بالتأكيد على ضرورة المساواة بينهما، فرقي الدول إنما يكون بتضافر جهود رجال الجيش وأرباب القلم، ولن يتحقق ذلك إلا بالعدل في المعاملة بينهما.

برزت في هذه المناظرة قدرة ابن برد على توليد الأفكار والبراهين، وصوغ الكلام وحوكه حياكة تموج بالعدوية، مع الإكثار من استخدام الأمثال، والاستشهاد بالحكم والشعر ضمن الحوار، كما اقتبس من القرآن الكريم، واستشهد بآياته لدعم آرائه وتقوية حججه، وأكثر من التشابيه والصور، واعتمد على السجع واختار منه ما يوافق المعنى، فجاء عذباً سلساً من غير تكلف وإسراف.

السيرة الذاتية

السيرة، وفي بعض الأحيان يطلقون عليها اسم الترجمة، وليس في الفروق اللغوية ما يُبينُ الفرق بين الترجمة والسيرة على وجه التحديد، إلا أن الاصطلاح والاستعمال هما الأساس في هذا الأمر، فقد جرت عادة المؤرخين أن يسموا الترجمة بهذا الاسم حين لا يطولُ نفسُ الكاتبِ فيها، فإذا ما طَالَ النفسُ واتسعتُ الترجمة سميتُ سيرةً.

والسيرة نوعٌ من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريفَ بحياة رجلٍ أو أكثرٍ تعريفًا يطولُ أو يقصرُ، ويتعمقُ أو يبدو على السطح تبعاً لحالِ العصرِ الذي كتبت فيه الترجمة، ولثقافة المترجم ومدى قدرته على رسم صورةٍ كاملةٍ واضحةٍ دقيقةٍ عن المترجم له.

والسيرة نوعان:

1- "سيرة ذاتية، يكتب فيها المؤلفُ سيرة حياته، مثل كتاب (حياتي) لأحمد أمين، وكتاب (الأيام) لطه حسين، وهو الأكثرُ شهرةً في هذا الباب. وقد يدون بعضهم سيرة حياته بشكل قصصي، كما هو الحال بالنسبة للروائي السوري حنا مينه في رواياته الثلاث التي تحمل عنوان السيرة الذاتية، وهي: بقايا صور، والمستنقع، والقطاف.

2- "السيرة الغيرية: وفيها يكتب المؤلفُ سيرة غيره، ويعد كتاب (جبران خليل جبران) لميخائيل نعيمة أكمل ما في هذا الباب.

ويقوم فن السيرة على عنصرين أساسيين، هما: الطاقة الشعورية التي يبثها الأديب في ترجمته، والقيم الفنية التي يضمنها تعبيره، وإذا خلت الترجمة من

هذين العنصرين أو من أحدهما، ابتعدت عن عالم الأدب وأصبحت أقرب إلى التاريخ.

فالسيرة ليست سرداً للحوادث والوقائع فقط، والأديب البارع هو الذي يخلع على ترجمته روح الحياة والحركة، ويحرص على القيم التعبيرية، كما في فنون الأدب الأخرى، كاللفظة الرشيقة والعبارة الموحية والصور والأخيلة المعبرة، من دون الإسراف والمبالغة في الصور التي قد تُبعد المؤلف عن الحقيقة والواقع. وسيكون مدار حديثنا حول نص من أشهر نصوص الأدب العربي الحديث في باب السيرة الذاتية.

هو ((الأيام)) لطفه حسين، ونلّم الآن بتعريف بالأديب طه حسين.

ولد طه حسين في مصر سنة 1889م، في أسرة فقيرة، حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية، كما حفظ ألفية ابن مالك، فقد بصره بعد إصابته بمرض الجدري ونقصير في علاجه.

تلقى علومه الأولى في قريته ثم بالأزهر بالقاهرة ثم بالجامعة المصرية القديمة. سافر إلى فرنسا لمتابعة تحصيله العلمي، وعاد إلى مصر يحمل درجة الدكتوراه من السوربون.

وقد كان لسفره إلى فرنسا أثر كبير في توجيهه نحو الآداب الغربية ونحو الفن القصصي، فانكبّ على قراءة الروايات الأدبية الفرنسية لأدباء القرن التاسع عشر مثل: أناةول فرانس وبورجيه وبريغو.

والدكتور طه حسين ذو إنتاج متعدد في الفن القصصي، وقد تجلّت قدرته القصصية فيما قدّمه في مجال السيرة أو الترجمة الغيرية أو الرواية التاريخية أو اللوحات القصصية، حيث تجلّت قدرته على العرض والتصوير والتحليل والربط والتسلسل والتشويق.

وقد أسهم إسهاماً واضحاً في مجال النقد والثقافة والصحافة، ومن أشهر مؤلفاته: (في الشعر الجاهلي) و(حديث الأربعاء) و(من حديث الشعر والنثر). و(جنة الشوك) و(صوت باريس) و(رحلة الربيع والصيف) و(الأيام) و(دعاء الكروان) و(الحب الضائع) و(شجرة البؤس) و(المعذبون في الأرض) و(على هامش السيرة) و(الوعد الحق) و(القصر المسحور).

والنص التالي مأخوذ من كتاب الأيام الجزء الثالث (الطبعة السادسة والعشرون) دار المعارف بمصر.

الفصل الخامس عشر

المرأة التي أبصرت بعينيها!

واستأنف الفتى حياة جديدة، بأوسع معاني هذه الكلمة وأعمقها! كان يرى نفسه في كلمة أبي العلاء حين قال إنه أنسى الولادة، وحشي الغريزة.

كان يرى نفسه إنساناً من الناس ولد كما يولدون، وعاش كما يعيشون، مقسم الوقت والنشاط فيما يقسمون فيه وقتهم ونشاطهم. ولكنه لم يكن يأنس إلى أحد، ولم يكن يطمئن إلى شيء، قد ضرب بينه وبين الناس والأشياء حجاب ظاهره الرضا والأمن، وباطنه من قبلة السخط والخوف والقلق واضطراب النفس، في صحراء موحشة لا تحدّها الحدود، ولا تقوم فيها الأعلام، ولا يتبين فيها طريقه التي يمكن أن يسلكها، وغايته التي يمكن أن ينتهي إليها.

ولكنه ينظر ذات يوم فإذا هو قد أخذ يتخفّف قليلاً قليلاً من غريزته تلك الوحشية القلقة، ويحسّ شيئاً من الأنس الرفيق إلى بعض الناس، ثم يحس هذا الأنس يقوى في نفسه من يوم إلى يوم، وإذا هو لا يطمئن إلى ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه، وإنما يطمئن إلى غيره من الناس أيضاً.

كان يرى نفسه غريباً أينما كان وحيثما حلّ، لا يكاد يفرق في ذلك بين وطنه الذي نشأ فيه، وبين غيره من الأوطان الأجنبية التي كان يلم بها، لأنّ ذلك الحجاب الصفيق البغيض الذي ضرب بينه وبين الدنيا منذ أول الصبا كان محيطاً به، يأخذه من جميع أقطاره في كل مكان، فكان الناس بالقياس إليه هم الناس الذين يسمع أصواتهم، ويحس بعض حركاتهم، ولكنه لا يراهم ولا ينفذ إلى ما وراء هذه الأصوات التي كان يسمعها والحركات التي كان يحسها.

كان غريباً في وطنه، وكان غريباً في فرنسا، وكان يرى أن ما يصل إليه من حياة الناس ليس إلا ظواهر لا تكاد تغني عنه شيئاً.

وكانت الطبيعة بالقياس إليه كلمة يسمعها ولا يعقلها، ولا يحقّق من أمرها شيئاً، كأنّما أغلق من دونها بالقياس إليه باب لا سبيل له إلى النفوذ منه. كان ينكر الناس وينكر الأشياء. وكان كثيراً ما ينكر نفسه ويشك في وجوده!

كانت حياته شيئاً ضئيلاً نحياً رقيقاً لا يكاد يبلغ نفسه. وكان ربما تساءل بين حين وحين عن هذا الشخص الذي كان يحسه مفكراً مضطرباً في ضروب من النشاط ما هو؟ وما عسى أن يكون؟ وكان ذلك ربما أذهله عن نفسه وقتاً يقصر أو يطول، فإذا ثاب إليها أو ثابت إليه أشفق من هذا الذهول وظن بعقله الظنون. وتساءل أيجد الناس من الذهول عن أنفسهم مثل ما يجد، ويحسون من إنكار أنفسهم مثل ما يحس؟!

كانت حياته حيرة متصلة كلما خلا إلى نفسه. وكان لا يملك أمره إلا حين كان يتحدث إلى الناس أو يسمع لهم أو يختلف إلى الدروس أو يصغي لما كان يقرأ عليه. فأخذ كل هذا ينجاب عنه وأخذ يدخل في الحياة كأنه لم يعرفها من قبل، وكان ذلك الشخص الحبيب إليه الكريم عليه هو الذي أخرجه من عزلته تلك المنكرة. فألغى في رفق وفي جهد متصل أيضاً ما كان مضروباً بينه وبين الحياة والأحياء والأشياء من الحجب والأستار!

كان يحدثه عن الناس فيلقى في روعه أنه يراهم وينفذ إلى أعماقهم. وكان يحدثه عن الطبيعة فيشعره بها شعور من يعرفها من قرب.

كان يحدثه عن الشمس حين تملأ الأرض نوراً. وعن الليل حين يملأ الأرض ظلمة، وعن مصابيح السماء حين ترسل سهامها المضيئة إلى الأرض، وعن الجبال حين تتخذ من الجليد تيجانها الناصعة، وعن الشجر حين ينشر من حوله الظل والروح والجمال، وعن الأنهار حين تجري عنيقة والجداول حين تسعى رشيقة، وعن غير ذلك من مظاهر الجمال والروعة ومن مظاهر القبح والبشاعة فيمن كان يحيط به من الناس، وفيما كان يحيط به من الأشياء.

فكان يخيل إليه أنه يكشف له عن حقائق كانت مستخفية عليه، ولم تكن غريبة بالقياس إليه، كأنه قد عرفها في الزمان الأول البعيد، ثم نسيها دهرًا طويلاً، فهو يذكرها بعد أن طال عهده بها.

وكذلك أخذت تثوب إليه ثقته بنفسه وراحته إلى غيره، وأخذ ينجلي عنه الشعور بالغربة، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة. وليس من شك في أنه قد صدق كل الصدق وأعرب عن ذات نفسه في غير تكثر ولا غلو حين قال في

بعض ما كتب إن فتاته تلك قد جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة ويؤسه نعيماً وظلمته نوراً.

ولم ينفق الفتى وصاحبته صيفهما ذاك فيما تعود الفتیان المحبون أن ينفقوا فيه أيام حبهم الأولى من تلك الحياة الهائمة الناعمة التي تخلص من المشقة وتتخفف من الجهد وتفرغ لرضا النفوس وغبطة القلوب والذهاب مع الخيال الهائم في كل مذهب.

وإنما عرفا أن وقتهما أضيق من الفراغ للحب ونعيمه، فوقت الفتى في فرنسا محدود، وعليه واجبات يجب أن تؤدي، وله مهمة يجب أن تتم، وهو مسؤول عن هذا كله أمام جامعة في مصر لا تعرف السماح ولا المزاح مع الذين ترسلهم إلى أوروبا ليطلبوا العلم فيها.

ولها الحق كل الحق في ذلك، فهي إنما ترسلهم إلى أوروبا ليتعلموا لا ليحبوا، وليجدوا في طلب العلم لا ليتعلقوا بأسباب الخيال.

وما أكثر ما ذكر الفتى أشهر الصيف تلك في أقصى الجنوب الفرنسي، وما جاء بعدها من الشهور في باريس، فرضي عن صاحبته وعن نفسه رضى لا تشوبه شائبة من سخط أو إنكار.

وانظر إلى فتاة وفتى في أول عهدهما بالخطبة ينفقان أكثر النهار في درس اللاتينية حين يصبحان، وفي قراءة الترجمة الفرنسية لمقدمة ابن خلدون حين يرتفع الضحى.

فإذا جاء وقت الغداء ألما بالمائدة فأصابا شيئاً من طعام. ثم أقبلا على تاريخ اليونان والرومان فقرأ ما شاء الله أن يقرأ.

فإذا كانت الساعة الخامسة انصرفا عن تاريخ اليونان والرومان إلى الأدب الفرنسي فقرأ ما شاء الله أن يقرأ كذلك لا ينصرفان عن القراءة إلا ريثما

يخرجان للتروض خارج القرية التي يعيشان فيها. ينفقان في تروضهما ذلك ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعودان إلى المائدة فيصبيان شيئاً من طعام ثم تجتمع الأسرة كلها إلى كتاب يقرؤه عليها ذلك الصوت العذب.

حتى إذا تقدم الليل شيئاً تفرقت الجماعة، وأوى كل واحد منها إلى غرفته، وخلا صاحبنا إلى نفسه يذكر ماضيه الغريب، وينعم بحاضره السعيد، ويفكر في مستقبله المجهول.

ينفق في ذلك أكثر الليل مؤرقاً لا يكره الأرق ولا يدعو النوم. ولكن النوم يغلبه على أمره من آخر الليل. فإذا أسفر له الصباح استقبل يومه آخذاً في الدرس كما فعل من أمس.

وعلى هذا النحو أنفق الأشهر الأولى لخطبته، ثم يعود مع الأسرة إلى باريس فيستأنف فيها حياته الجامعية مختلفاً إلى السوربون حين يصبح وحين يمسي، خالياً إلى قارئته بين ذلك وإلى أستاذ الفرنسية يوماً وأستاذ اللاتينية يوماً آخر، مقدراً عسر المهمة التي تكلفها وبعد الغاية التي يسعى إليها.

وكان قد أزمع أن يظفر قبل كل شيء بدرجة الليسانس ثم يتقدم لدرجة الدكتوراه بعد ذلك، ولم يكن الطلاب المصريون إلى ذلك الوقت يحاولون الظفر بدرجة الليسانس هذه، لأنها كانت تكلف الذين يطلبونها عناء ثقيلاً... كانت تكلفهم إتقان الفرنسية أولاً ليؤدوا الامتحان التحريري فيما يدرسون من العلم، وليؤدوه كما يؤديه الطلاب الفرنسيون، يكتبون ما يرادون على كتابته في لغة فرنسية مستقيمة لا عوج فيها ولا خطأ، وكانت تكلفهم درس اللاتينية ليؤدوا فيها امتحاناً تحريراً كذلك.

ولم تكن اللاتينية تدرس في مصر لا في المدارس الثانوية ولا في المدارس العالية.

فكان المصريون يرون أنهم لن يستطيعوا مجاراة زملائهم من الطلاب الفرنسيين في هذه اللغة التي لم يسمعوها بها قبل وصولهم إلى فرنسا، على حين كان الطلاب الفرنسيون يدرسونها ست سنين في مدارسهم الثانوية، ثم يدرسونها في الجامعة قبل أن يتقدموا لامتحان الليسانس.

من أجل ذلك كان المصريون يعرضون عن درسها إعرافاً لا تكلف فيه، ويعرضون بالطبع عن درجة الليسانس التي لا سبيل إليها من غير هذه اللغة. وكان ثلاثة من المصريين قد أزمعوا أن يقهروا هذه الصعوبة، ويقتحموا هذه العقبة، ويدرسوا اللغة اللاتينية، ويظفروا بدرجة الليسانس مهما يكلفهم ذلك من الجهد والعناء. فأما أحدهم فقد جدّ وكذّ وتقدم للامتحان فأخفق، ثم أخذ يستعدّ ليؤدي الامتحان في العام المقبل. ولكن الأسباب تقطعت بينه وبين ذلك. أدركته العلة فاضطرب أمره، واختلط عقله، وردّ إلى مصر فأنفق فيها أياماً كئيبية يائسة، فاستأثرت به رحمة الله فأراحته من أثقال الحياة.

وأما الآخر فكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني. وقد جدّ وكذّ وتقدم للامتحان مرة ومرة. ولكن عقدة اللاتينية أدركته، فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتيني الذي يجب أن يترجمه إلى الفرنسية ألقى عليه نظرة سريعة. ثم طواه وقدم إلى الممتحنين صفحة بيضاء لم يمسه خطأ أو صواب. وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتيني قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألح في المحاولة والمطاوله حتى تقدم للامتحان ذات يوم وتلقى النص اللاتيني فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدم إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجاح.

وكان صاحبنا ثالث هذين الزميلين، وكان قد عرف من أمر صاحبيه ما يحتملان من مشقة وما يبذلان من جهد. وما يلقيان من إخفاق، فلم يفلّ ذلك من عزمه، وإنما مضى في درس اللاتينية في بيته وفي السوربون مصمماً على أن يظفر بهذه الدرجة مهما يكن دونها من العقاب.

ولكن مشكلة خطيرة عرضت له، وكانت خليقة أن تفسد عليه أمره كله، ولم يكن بينها وبين الدرس صلة، فهو قد خطب تلك الفتاة إلى نفسها وإلى أسرته، وقد قبلت الفتاة خطبته بعد تردد طويل، وقبلتها الأسرة بعد امتناع وإباء. ولكن صاحبنا لم ينس إلا شيئاً واحداً، وهو أنه قد أعطى الجامعة قبل أن يسافر إلى أوروبا ذلك العهد الذي كان يعطيه أعضاء البعثة جميعاً قبل سفرهم ألا يتزوج في أثناء إقامته في الخارج طالباً للعلم.

وهو لم ينقض هذا العهد لأنه خطب ولم يتزوج ولكنه عجل إلى الزواج. فليس له بدّ إذن من استئذان الجامعة أو نقض العهد الذي أعطاه لها. وقد أزمع أن يستأذنها، وكتب إليها في ذلك. ولكنه كان يطيل التفكير في عواقب هذا الكتاب، كان يرجح ألا تأذن له الجامعة، وكان يسأل نفسه فيطيل السؤال عما يكون من أمره إن رفضت الجامعة الإذن له فيما يريد.

وكان ذلك ربما نغص عليه حياته من حين إلى حين. ولكن الجامعة كانت أرف به وأرحم له مما قدر. فأذنت له بعد خطوب لم يعرفها إلا بعد أن أتم درسه وعاد إلى مصر. أذنت له الجامعة إذن، ولكنه هو لم يأذن لنفسه ولم تأذن له الفتاة حتى يظفر بدرجة الليسانس هذه التي لم يظفر بها مصري بعد، وحتى يشعر الجامعة بأنه صاحب جدّ ونشاط وإنتاج لا صاحب لعب وكسل واشتغال بنفسه عما يجب عليه من الدرس والتحصيل.

والغريب من أمر صاحبنا أنه لم يكن في ذلك العام يتهيأ لامتحان الليسانس وحده، وإنما كان في الوقت نفسه يعدّ رسالته للدكتوراه، وقد زاده إذن الجامعة له بالزواج جدّاً وكذاً ونشاطاً، حتى كان العام الأول لخطبته غريباً حقّاً، كلف فيه نفسه وخطيبته من الأمر أعسره وأشدّه مشقة.

ولم ينس الفتى قط ولم تنس صاحبتّه، أنهما كانا يخرجان بين حين وحين في أيام الأحاد من باريس يطلبان النزهة والترويض، فلم يخرجاً قط وحدهما وإنما صاحبهما دائماً كتاب من هذه الكتب الثقال التي ترهق القارئ فيهما من أمرهم عسراً؛ والذين يعرفون كتب أوجست كونت ويقدرّون ما فيها من العسر الذي يتصل بمعانيها وألفاظها وأسلوبها يرحمون هذين الخطيبين اللذين كانا يختلفان إلى هذه الغابة أو تلك من الغابات التي تحيط بباريس، فيأويان إلى ظل شجرة من أشجارها ويأخذان في هذه القراءة العسيرة الشاقة المرهقة التي لم يكن بينها وبين ما كان يملأ قلوبهما من الحب والأمل سبب قريب أو بعيد.

وقد أقبلت بوادر الصيف من ذلك العام وجعل الفتى يستعد للامتحان، ثم دفع إليه في شهر يونيو فلم يتردد ولم يتلأأ، وإنما أقدم في عناد أي عناد. لم يكن واثقاً بنفسه ولا مطمئناً إلى نتيجة هذه المغامرة التي يقدم عليها، ولكنه كان يقول لنفسه إن أتيح لي النجاح فرمية من غير رام، وإن كتب عليّ الإخفاق فما أكثر الذين يخفقون!

وكان مزمماً إن ظفر بالنجاح أن يبرق به إلى الجامعة، وإن كتب عليه الإخفاق أن يكتمه ويجعله سراً بينه وبين نفسه إن أمكن أن يكتّم الإخفاق في الامتحان ومن حوله زملاؤه المصريون يرقبونه رفاقاً به مشجعين له عاطفين عليه.

وقد أتيح له النجاح.. وكان الأستاذ الدكتور صبري السوربوني هو الذي أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرج به الفرح عن طوره، مكدوداً يكاد يقطع الإعياء تنفسه لشدة ما جرى بين السوربون وبين بيت الفتى، ولشدة ما أسرع في صعود السلم إلى بيت الفتى في الطبقة السادسة. فلم يكد يفتح له الباب حتى أعلن لمن فتحه له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه ولم يرد أن يستريح. وكان الزميل الكريم قد تقدم للامتحان، ولم يكد ينظر في النص اللاتيني حتى طواه وقدم صفحته البيضاء وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتيني ذاك الذي يصور اليأس والقنوط. فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له وأشد استثارةً به من إخفاقه هو في الامتحان!.

وألقي نبأ النجاح إلى الفتى، فلم يصدقه حتى صحبته خطيبته إلى السوربون وقرأت له اسمه بين أسماء الناجحين، ثم لم تعد به إلى البيت حتى حجزت أمكنة للأسرة كلها في بيت موليير تكافئ بذلك صديقها وخطيبها على هذا النجاح الذي لم يكن مرتقباً.

وأصبح الفتى من غده فأبرق إلى الجامعة، ولم يمض يومان حتى أبرقت إليه الجامعة تهنئه وترسل إليه مكافأة قدرها عشرون جنيهاً.

في ذلك اليوم قرر الخطيبان أن يتما زواجهما قبل رحلة الصيف إلى الجنوب.

إضاءة على النص

تحدّث طه حسين في كتابه الأيام عن حياته الشخصية، وعن المصاعب التي واجهته حتى استقامت له الحياة كما رغب فيها، وكما أرادها. والكتاب يحكي قصة صبي مكفوف فقير يصارع الأيام ليثبت ذاته وتكون له بصمة واضحة في هذه الحياة، فيغالب الصعاب بالعلم وقوة الإرادة وينتصر عليها. والكاتب يسرد سيرة حياته من صباه إلى مرحلة اكتهاله بضمير الغائب، وينفخ فيها من روحه ووجدانه، ويخاطب ما استقر في وجدان القارئ من قيم الكفاح من أجل المعرفة ويحمّله على نبذ الجهل وطلب العلم أينما كان. يقع الكتاب في عشرين فصلاً يوحى الفصل الأول بالمرارة والشقاء والألم، والفصل الأخير بالغبطة والحبور والنعيم.

والشخصية الرئيسة في الأيام هي شخصية طه حسين (الصبي) الذي انكب على تحصيل العلم منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم ولمّا يتخطى التاسعة، وحفظ قبل ذلك ألواناً من الثقافة الشعبية كالأخبار والأشعار والغناء، ثم حفظ الألفية، وأتقن تجويد القرآن، ودخل بعد ذلك الأزهر وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ولاقى من الصعاب الكثير، وذاق من المرارة ألواناً، ولكن إرادته القوية دفعته لمتابعة تحصيله العلمي في السوريون ليحتل بعد ذلك مكانة مرموقة في عالم الفكر والأدب.

وما أراد طه حسين من الكتاب إبراز فكرة هامة وهي: أنّ البطل الصبي المحروم العاجز قد وصل إلى مبتغاه رغم حرمانه وعجزه بفضل تصميمه

وإرادته الصلبة، فالعلم والإصرار على التحصيل رغم العراقيل هما سبيل الرقي والتقدم.

وقد اتخذ طه حسين من الأيام وسيلة للردّ على ما يدور حوله من أمور كان يرفضها كالجمود والاضطهاد والظلم والجهل، كما اتخذ منه وسيلة لإبراز مأساته الكبرى وآفته العمى، فنقرأ في الكتاب كثيراً عمّا يتصل بهذه الآفة فيما يخصّ حبه، إذ يلعب كل من الصوت والسمع دوراً كبيراً في حياته، كذلك فيما يخصّ مظهره وملبسه وطريقة أكله، وتغطية عينيه بنظارة رخيصة ثم بأخرى أعظم قيمة وغير ذلك من الأمور.

إنّ للأيام في السير الذاتية الحديثة مكانة لا تتناول إليها أي سيرة ذاتية أخرى في أدبنا العربي لمزايا كثيرة، منها: الأسلوب القصصي الممتع، والعاطفة الكامنة في ثناياه، والوصف الدقيق المحكم، فهو يعتمد في وصفه على خيال خصب في صورة تضارع بل تفوق وصف المبصرين لما تقع عليه عيونهم، بالإضافة إلى تلك اللمسات الفنية في رسم صور الأشخاص، والقدرة على السخرية اللاذعة المبطنة بالدعابة، واعتماد الكاتب أسلوب التذكر وتداعي الذكريات، واستخدام ضمير الغائب بدل ضمير المتكلم في سرد الأحداث. فكتاب الأيام سيرة ذاتية فنية أدبية، وهو أكمل سيرة في أدبنا الحديث، مثلما كان كتاب (جبران) لنعيمة أكمل سيرة أدبية.



الترجمة

مصطفى لطفي المنفلوطي ولد عام 1877، تتلمذ في الأزهر على يد الشيخ محمد عبده كان شغوفاً بالأدب والأدباء، ثم ذاع صيته واكتسب شهرة واسعة لبلاغة أسلوبه وسلاسته، كان أديباً موهوباً.

متلائم الذوق متناسق الفكر ذا أسلوب عال صحيح الفهم سليم الفكر، لاقت أعماله وكتبه شهرة واسعة في كل الأقطار العربية منها (النظرات) وهو مجموعة رسائل كان يكتبها في جريدة المؤيد، و(العبرات) وهو مجموعة قصصية، وهو يجيد الفرنسية فقام بتعريب روايات الأدباء الفرنسيين كرواية (الشاعر) للأديب إدمون روستان، و(الفضيلة) لـ برنار دان دي سان بيير وغيرها، مات عام 1924، أشهر أعماله، ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون.

و(ماجدولين) باكورة أعمال الأديب الفرنسي ألفونس كار كتبها متأثراً بالرومانسية التي سيطرت على الأدب في تلك الحقبة من تاريخ فرنسا، صاغها المنفلوطي بعدما ترجمها أو ترجمت له عن الفرنسية بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل.

تدور أحداث القصة (ماجدولين) في البيئة الريفية الساذجة التي يتميز جوها بالبساطة والعفوية والصدق والإخلاص والقناعة شبيه بالجو الذي نشأ فيه المنفلوطي بمصر على خلاف حياة المدينة القائمة على الخداع والكذب والغش والنفاق.

والقصة تدور في أساسها حول فتى اسمه استيفن من أسرة متوسطة الحال يحب المطالعة ويعشق الموسيقى ويأنس للطبيعة ويجد لذته في العزلة والبعد عن الناس، يترك منزله بعد وفاة أمه وزواج أبيه ليسكن وحيداً في غرفة متواضعة حيث يحب ابنة صاحب المنزل واسمها ماجدولين فتبادلته الحب، فتتغير نظرة الفتى إلى الوجود ويمتلئ قلبه أملاً وبهجة، وتتكرر اللقاءات بين استيفن وماجدولين في أحضان الطبيعة الخلابة وعلى ضفاف النهر أو تحت شجرة الزيزفون القائمة في وسط حديقة المنزل، فيحلم العاشقان بحياة مستقبلية سعيدة. ويرسمان في خيالهما صورة البيت العتيق الذي سيضمهما... لكن السعادة التي بدأت تلوح معالمها في خاطر الحبيين قطعها والد الفتاة حين صرح ابنته بأنه غير موافق على علاقتها بذلك الفتى. وقد اخترنا لك المقطع التالي على قصره لعكّ تقف معنا على جماليّاته وطريقة التعبير فيه⁽¹⁾.

¹ - انظر مصطفى لطفي المنفلوطي - ماجدولين أو تحت ظلال الزيزفون تأليف الكاتب الفرنسي الشهير ألفونس كار - طبعة دار الشرق العربي - بيروت ص 12.

ماجدولين

نزل استيفن صبيحة يوم من الأيام إلى حديقة المنزل فرأى مولر والد ماجدولين واقفاً على رأس بعض الجداول متكئاً على فأسه.

فلم ير بداً من أن يحييه فحيّاه بتحية حيّ بأحسن منها، ثم أراد أن يستمرّ أدراجه فرآه ينظر إليه نظرة المستوقف، ورأى كأنّ كلاماً يتحير في شذقيه فاستحيى أن يمضي لسبيله فوقف، فقال له مولر: ما أجمل شمس هذا اليوم وما أصفى سماءه، فأراد استيفن أن يبحث على كلمة يصل بها الحديث بينه وبينه فلم ير شيئاً أقرب إلى ذهنه من أن يسأله عن ابنته، ثم بدا له أنّه إن فعل أرابه وألقى في نفسه أمراً غير الذي يريد. وهي المرة الأولى التي خطر له فيها أن في سؤال الرجل عن حال ابنته شيئاً غريباً أو أمراً مريباً، ثم استمر مولر في حديثه يقول: إن منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل جداً لا يكدره عليّ إلا تلك الرعدة التي أشعر أنها تتمشّى في أعضائي، فما أمر مذاق الشيوخوخة، وما أثقل مؤونتها، وسلام على الشباب وعهوده الزاهرة أيام كنت لا أحفل بنكباء ولا رمضاء، ولا أبالي أن أبكر في صبيحة كل يوم تبكير الغراب إلى قمم الجبال وشواطئ النهار عاري الرأس صافي القدمين، أمرح وألعب وأتأثّر طرائد الصيد في مسارحها وملاعبها، فأصبحت ولم يبق لي من تلك الذكريات إلا وقوفي في هذه الضاحية تحت هذه الشمس المشرقة أنسج من خيوطها البيضاء كساء أنقي به هذه الرعدة، وأمتع نظري برؤية الفتيات الصغيرات صواحب ماجدولين وهن يلعبن معها فوق تلك الهضبة الثلجية.

وهنا وجد استيفن مكان القول ذا سعة فقال: إن ماجدولين لم تنزل اليوم كعادتها فلعلها بخير، قال: نعم، هي بخير، ولكن ضيفاً من أقربائنا نزل بنا أمس فلم أر بداً من أن أكل إليها أمره والعناية به فتركتهما وذهبت لشأني، وإن كنت اعلم أن ماجدولين ليس في استطاعتها الصبر عن النزول إلى الحديقة، ولا يقنعها من الشمس تلك الخيوط البيضاء التي تتحدر إليها من نافذة غرفتها. ثم ذهبت في الحديث بعد ذلك مذاهب مختلفة، وإنهما لذلك إذ فتح باب المنزل، وإذا ماجدولين وأرشميد مقلان يحدثها فتتهلل وتحديثه فيبتسم، وكأن منظرهما منظر عاشقين يتغازلان لا قريبين يتسامران، فخيّل لاستيفن أن هذا المشهد الذي يشهده غير مستحسن ولا مستعذب.

ثم اقتربا منه فصدف عنهما يتلّهي بالنظر إلى بعض الزهرات وودّ لو وجد السبيل إلى الهرب منهما لولا أنهما اعترضتا طريقه فسلّما عليه فردّ رداً فاتراً. ثم تركهما مكانهما وانحدر إلى خميلة من الخماثل، فما خطا فيها بعض خطوات حتّى سمع الفتى يغرب في الضحك، فما شكّ أنهما في شأنه وأنّه قد أصبح موضوع هزئهما وسخريّتهما، وأنهما ما ضحكا إلا للعبث به والزرابة عليه، فأحسّ في قلبه بدبيب البغض لذلك الفتى وودّ يجدع أنفه لو وجد السبيل إلى منازلته في ميدان خصام يضرب فيه ضربة تهشم أنفه وتخضب الذي فيه عيناه ليقنعه أنه ليس سخرية الساخر ولا أضحوكة الضاحك.

ثم عاد إلى نفسه يسألها عن السبب في انقباضه ووحشته، وعن تلك الحال الغريبة التي ألمّت بفؤاده منذ الساعة ويقول: مالي ولهذا الفتى، وبأي حقّ أحمل له بين جنبيّ ما أحمل من الضغينة والموجدة؟ فما أنا بعاشق للفتاة فأغار منه عليها، ولا هو بمزاحم لي على هوى فأبغضه فيه، ولم يزل يسأل نفسه أمثال

هذه الأسئلة فلا تجيبه، ويراجع عقله فلا يهديه، حتى عرف أنه لا يسمع خارج الخميلة صوتاً فبرز من مكمنه فلم ير أمامه أحداً فخرج من الحديقة هائماً على وجهه بين الغابات والأحراش حتى أدبر النهار فعاد إلى المنزل وصعد إلى غرفته، وإنه ليمرّ أمام باب ماجدولين إذ سمع صوت حديث فذكر ما كان قد نسيه، وعلم أنها تسمر مع قريبها أرشميد، وأنه لا بدّ أن يكون سعيداً بهذا الحديث وهذه الخلوة، فنفس عليه ذلك، ولا ينفس الإنسان على صاحبه شيئاً يكون في نظره حقيراً، فتريث في مشيته قليلاً حتى علم أنه إن دنا من باب الغرفة لا يشعران بموقعه، فدنا منهما وأنشأ يتسمع حديثهما فلم يفهم كلمة ممّا يقولان، ثم انقطعاً عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغني غناءً شجياً قد يكون عذباً في نفس استيفن لولا أنّ أذننا أخرى غير أذنه تتراحمه على سماعه، ثم انقطع الغناء أيضاً فسمع خفق نعال تتقدم نحو الباب. فابتعد عن مكانه حتى خرج الفتى وخرجت ماجدولين وراءه تشيعه في غلالة رقيقة بيضاء لا تلبسها الفتاة إلا بين يدي عشيقها أو من لا تحتشمه من ذوي قرباها، فرأى في وجهها صورة جديدة غير التي كان يراها من قبل، وأحسّ في نفسه بشيء غير الذي كان يحسّ به عند رؤيتها، ثم عادت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها فعاد إلى موقفه الأول، ومازال راكعاً أمام بابها حتى مشت جذوة النهار في فحمة الليل، فصعد إلى غرفته، وقد علم أن الذي قام بنفسه منذ اليوم ليس الهذيان ولا الجنون ولا الوسواس ولا حرارة الحمى كما كان يظنّ وإنما هو الحبّ.

مساعدة إعرابية:

- إنَّ منظر الطبيعة في هذه الساعة جميل لا يكرّره عليّ إلاّ تلك الرعدة.
إنّ: حرف مشبه بالفعل.

منظر: اسم إنّ منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف.
الطبيعة: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.
في: حرف جرّ.

هذه: الها للتببيه، ذه: اسم إشارة مبني في محل جرّ بحرف الجر والجار والمجرور متعلقان بالخبر الآتي.

الساعة: بدل من اسم الإشارة مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة.
جميل: خبر إنّ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
لا يكرّره: لا: نافية، يكرّره فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة
والهاء ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به.
عليّ: جار ومجرور متعلقان بـ يكرّره.
إلاّ: أداة حصر.

تلك: تي اسم إشارة مبني في محل رفع فاعل، واللام للبعد والكاف للخطاب.
الرعدة: بدل من اسم الإشارة مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.
جملة (لا يكرّره) في محل رفع خبر ثانٍ لـ إنّ.

- ثمّ انقطعا عن الحديث وأنشأت ماجدولين تغني
ثمّ: حرف عطف.

انقطعا: فعل ماضٍ مبني على الفتح، والألف ضمير متصل مبني في محل
رفع فاعل.

عن الحديث: جار ومجرور متعلقان بـ انقطعا.
وأنشأت: الواو عاطفة، أنشأ: فعل ماض ناقص (من أفعال الشروع) والتاء
تاء التانيث الساكنة.

ماجدولين: اسم أنشأ موضعه رفع.
تغني: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة والفاعل ضمير
مستتر تقديره هي.

جملة (أنشأت) معطوفة على (انقطعا)
جملة (تغني) في محل نصب خبر أنشأ.

مرّ معنا في كلام المنفلوطي بعض العبارات مثل: ما أجمل شمس هذا
اليوم. وما أصفى سماءه، ما أمرّ مذاق الشيخوخة وما أثقل مؤونتها، وغير ذلك
مما يسمّى عند العرب بأسلوب التعجب.
اعلم أنّ لهذا الأسلوب صيغاً كثيرة، القياسي منها اثنان:
(ما أفعله) و(أفعل به)

* ما أفعله: صيغة مركبة من ما + أفعله، و(ما) نكرة تامة بمعنى شيء في
محل رفع مبتدأ، وجاز الابتداء بها لتضمّنها معنى التعجب وما بعدها خبر
موضعه الرفع.

و(أفعل) فعل ماض جامد مبني على الفتح، وما بعده مفعول به .
مثل: ما أكرمه، ما أكرم زيدا، ما أحلى ساعات العلم .

الإعراب:

ما أحلى: ما نكرة تامة تعجّبية بمعنى شيء، أحلى فعل ماض مبني على
الفتح المقدر على الألف للتعدّر.

ساعات: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وهو مضاف.

العلم: مضاف إليه مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة.

جملة (أحلى ساعات العلم) في محل رفع خبر للمبتدأ ما.

* **افعل به:** (أفعل): فعل ماض جامد أتى على صورة الأمر مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره السكون العارض لمجيئه على صورة الأمر، (به) الباء حرف جر زائد، الهاء فاعل ووضعت ضمير الجر موضع ضمير الرفع لوجود حرف الجر الزائد، مثل: أكرم بخالد.

الإعراب:

أكرم: فعل ماض جامد أتى على صورة الأمر مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره السكون العارض لمجيئه على صورة الأمر. بخالد: الباء حرف زائد وجوباً، خالد فاعل مرفوع بضمّة مقدرة على الآخر منع من ظهورها حركة حرف الجر الزائد، أو اسم مجرور لفظاً بالحرف الزائد مرفوع محلاً على أنه فاعل.

واعلم أنّ الصيغتين المشار إليهما يؤتى بهما من الفعل الثلاثي التام المتصرف المبني للمعلوم المثبت القابل للتفاوت ليس الصفة منه على وزن أفعل الذي مؤنثه فعلاء.

وإذا اختل أحد الشروط المسبقة المذكورة يؤتى للتعجب بمصدر الفعل بعد فعل مساعد مثل (أعظم أشدّ أكبر أجمل)، فإذا أردت التعجب من احترام الناس للعالم، وفعل احترام كما ترى خماسي، قلت: ما أشدّ احترام الناس للعالم.

نصان أدبيان للتدريب

أدب العلم⁽¹⁾

شرف العلم وفضله:

اعلم أنّ العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجدّ فيه الطالب، وأنفع ما كسب واقتناه الكاسب، لأنّ شرفه يثمر على صاحبه، وفضله ينمي عند طالبه قال تعالى ((قل هل يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون)) فمَنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خُصّ به العالم من فضيلة العلم، وقال تعالى ((وما يعقلها إلّا العالمون)) فنفي أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إنّي عليم أحبّ كلّ عليم، وروى أبو أمامة قال: سئل رسول الله عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد. فقال (ص): فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم... وقال مصعب بن الزبير لابنه: تعلّم العلم فإن يكن لك مال كان لك جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنيّ تعلموا العلم فإن كنتم سادة ففُتّم وإن كنتم وسطاً سُدتم وإن كنتم سوقة عشتّم، وقال بعض الحكماء: العلم شرف من لا قدر له، والأدب مال لا خوف عليه، وقال بعض البلغاء: تعلّم العلم فإنّه يَقومُك ويسدّدك صغيراً، ويقدّمك ويسودّك كبيراً ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك، ويقوم عوجك وميلك...

¹ - من كتاب أدب الدنيا والدين ص 41.

وليس يجهل فضل العالم إلا أهل الجهل، لأن فضل العلم إنما يُعرف بالعلم، وهذا أبلغ في فضله، لأن فضله لا يُعلم إلا به، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا أهله... وقال ابن المعتز: العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالماً...

وقيل لبزجمهر: العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم، قيل: فما بالناس نرى العلماء على أبواب الأغنياء، ولا نكاد نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم...

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرءاً لم يحي بالعلم ميتاً فليس له حتى النشور نشور

... وقال بعض العلماء: المتعمق في العلم كالسباح في البحر ليس يرى أرضاً ولا يعرف طويلاً ولا عرضاً...
نفرة الجهال من العلم وأهله:

وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة أهله وحرمان أصحابه فإن رأى محبرة تطير منها، وإن وجد كتاباً أعرض عنه، قال أحدهم: الجهل في القلب كالنر في الأرض يفسد ما حوله... ومن اعتقد أن العلم شين وأن تركه زين وأن للجهل إقبالاً مجدياً وللعلم إدباراً مكدياً كان ضلاله مستحكماً ورشاده مستبعداً وكان هو الخامس الهالك الذي قال فيه علي (رض): اغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبباً ولا تكن الخامس فتهلك...

السعادة بالعلم والعقل:

على أَنَّ العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قلَّ معهما المال وضائقتهما الحال، والجهل والحمق حرمان وإدبار وإن كثر معهما المال واتسعت معهما الحال، لأنَّ السعادة ليست بكثرة المال، فكم من مكثّر شقيّ ومقلّ سعيد، وكيف يكون الجاهل الغنيّ سعيداً والجهل يضعه؟ أم كيف يكون العالم الفقير شقيّاً والعلم يرفعه، وكم من ذليل أعزّه علمه ومن عزيز أذلّه جهله..

وقد قالوا: نعمة الجاهل كروضة على مزيلة، وكلّما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحاً، وقال بعض العلماء لبنية: يا بنيّ تعلّموا العلم فإن لم تتالوا به من الدنيا حظاً فلأنّ يُدَمَّ الزمان لكم أحبّ إليّ أن يُدَمَّ الزمان بكم. نستعيذ بالله من خُدع الجهل المُذلة وبوادر الحمق المُضلة، ونسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من ذلّ، وعلم نافع يستهدي به من ضلّ، فقد روي عن النبيّ (ص) أنّه قال: إذا استرذّل الله عبداً حظر عليه العلم.

مرّ في النص:

وربّما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصوّر في نفسه حرفة زمانه، (ذا) هنا مفعول به مقدم منصوب وعلامة نصبه الألف لأنّه من الأسماء الخمسة. فما الأسماء الخمسة؟

الأسماء الخمسة في لغة العرب هي (أب- أخ- حم- فو- ذو التي بمعنى صاحب).

ويشترط فيها أن تكون مفردة (لا مثني ولا جمعاً) ومضافةً إلى غير ياء المتكلم مثل (أخوك وفاه وذى الفضل).

فليس من الأسماء الخمسة مثلاً (أبي وأبوان وآباء).
وعلاوة رفعها الواو:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
وعلاوة نصبها الألف، قال تعالى (يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف).
وعلاوة جرّها الياء، فمن أقوال العرب: من فيك أدينك.

مساعدة إعرابية:

وليس يجهل فضل العلم إلا أهل الجهل، لأنّ فضل العلم إنّما يعرف بالعلم، وهذا أبلغ في فضله.

وليس: الواو استئنافية، ليس حرف نفي.

يجهل: فعل مضارع مرفوع وعلاوة رفعه الضمة الظاهرة.

فضل: مفعول به منصوب وعلاوة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف.

العالم: مضاف إليه مجرور، وعلاوة جرّه الكسرة الظاهرة.

إلا: أداة حصر.

أهل: فاعل (يجهل) مرفوع وعلاوة رفعه الضمة الظاهرة، وهو مضاف.

الجهل: مضاف إليه مجرور وعلاوة جرّه الكسرة الظاهرة.

لأنّ: اللام حرف جر، أنّ حرف مشبّه بالفعل، والمصدر المؤول في محل

جر بحرف الجر متعلقان بـ (يجهل).

فضل: اسم أنّ منصوب وعلاوة نصبه الفتحة الظاهرة، وهو مضاف.

العلم: مضاف إليه مجرور وعلاوة جرّه الكسرة الظاهرة.

إنّما: كافة ومكفوفة.

يُعرف: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة،
ونائب الفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره هو يعود على (فضل).

بالعلم: جار ومجرور متعلقان بـ (يعرف).

وهذا: الواو استئنافية، والها للتنبيه، وذا: اسم إشارة مبني على السكون في
محل رفع مبتدأ.

أبلغ: خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة.

في فضله: جار ومجرور متعلقان بـ أبلغ، والهاء ضمير متصل مبني على
الكسر في محل جر بالإضافة.

جملة:

(ليس يجهل...) استئنافية لا محل لها من الإعراب.

(فضل العلم إنّما يعرف بالعلم) صلة الموصول الحرفي ليس لها محلّ من
الإعراب.

(إنّما يعرف بالعلم) خبر إنّ في محل رفع.

(هذا أبلغ..) استئنافية لا محل لها من الإعراب.

بعض المشتقات:

أشرف: اسم تفضيل من الثلاثي شرف.

الراغب والطالب والكاسب: كلّ منها اسم فاعل من الثلاثي: رغب طلب
كسب.

عليم: صفة مشبهة على وزن فعيل من الثلاثي علم.

الأغنياء ج غني: صفة مشبهة على وزن فعيل من الثلاثي غني.

مجدياً: اسم فاعل من الرباعي (أجدى).
(مستحكماً): اسم فاعل من السداسي (استحكم).
مزيلة: اسم مكان من الثلاثي زيل.

جذور الكلمات التالية:

عشتم: من عَيش	اقتناه: من قني
مستمع: من سمع	العالمون: من علم
نستعيز: من عَوَظ	فقتم: من فَوَّق
استرذل: من رذل	اغذ: من غَدَو

قضايا بلاغية

مرّ في النصّ مجموعة من القضايا البلاغية نختار لك بعضها للتذكير:

- في قوله عن العلم: (لأنّ شرفه يُثمر على صاحبه) استعارة مكنية فكأنّه شبه شرف العلم بما يُثمر كالأشجار مثلاً تمّ حذف المشبّه به وذكر ما يدلّ عليه وهو (يثمر).

- في قول الشاعر:

وإنّ امرءاً لم يحيَ بالعلم ميّت فليس له حتّى النشور نشور

تشبيه، المشبّه كلمة (امرءاً) والمشبّه به كلمة (ميّت)، والشاعر شبه الجاهل بالميّت لأنّ العلم حياة، وفاقد العلم فاقد حياة، كما أنّ الميّت فاقد حياة.

- وفي قوله: (الجهل في القلب كالنّز في الأرض) تشبيه أيضاً، فكما أنّ النّز في الأرض سبب في هلاكها ونشر الضرر فيها كذلك الجهل في القلب هو سبب هلاكه.

- في قوله: (فمنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل) طباق بين العلم والجهل.

ومن وظائف الطباق استقصاؤه للمعنى من خلال هذا التضاد الواقع بين شيئين.

- في قوله (وهذه الطبقة ممّا لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح) جناس غير تامّ بين (صلاح) و(فلاح)، والجناس جانب بديعي متعلّق بالصوت وجرس الكلمات ألا ترى أن تشابه أكثر الحروف بين تينك الكلمتين حقّق جرساً واحداً في السمع!

في قوله: (فكم من مكثّر شقيّ ومقلّ سعيد) مقابلة، والمقابلة هي طباق متعّدّ أو هي طباق بين صورتين، فالصورة الأولى في المثال: (مكثّر شقيّ) والصورة الثانية هي (مقلّ سعيد).
ولعلّك تلمسها أيضاً في قوله (لأنّ من اعتقد أن العلم زين وأنّ تركه شين وأنّ للجهل إقبالاً مجدياً، وللعلم إدياراً مكدياً).

من الشعر القديم

أبو الطيّب المتنبي

قال أبو الطيّب المتنبي يعاتب سيف الدولة:

- 1- واحر قلباه ممن قلبه شيم
 - 2- مالي أكرم حباً قد برى جسدي
 - 3- إن كان يجمعنا حب لغزته
 - 4- قد زرتُه وسيوف الهند مغمدة
 - 5- فكان أحسن خلق الله كلهم
 - 6- فوت العدو الذي يَمُمته ظفر
 - 7- قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت
 - 8- ألزمت نفسك شيئاً ليس يلزمها
 - 9- أكلما رمت جيشاً فانتنتى هرباً
 - 10- عليك هزمهم في كل معترك
 - 11- أما ترى ظفراً حلواً سوى ظفر
 - 12- يا أعدل الناس إلا في معاملتي
 - 13- أعيذها نظراتٍ منك صادقة
 - 14- وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
 - 15- أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
 - 16- أنام ملء جفوني عن شواردها
 - 17- وجاهل مده في جهله ضحكي
 - 18- إذا رأيت نيوب الليث بارزة
 - 19- ومهجة مهجتي من هم صاحبها
- ومن بجسمي وحالي عنده سقم
وتدعي حب سيف الدولة الأمم
فليت أنا بقدر الحب (نقتسم)
وقد نظرتُ إليه والسيوف دم
وكان أحسن ما في الأحسن الشيم
في طيه أسف في طيه نعم
لك المهابة ما لا تصنع البهم
أن لا يواريههم أرض ولا علم
(تصرفت) بك في آثاره الهمم
وما عليك بهم عار إذا انهزموا
تصافحت فيه بيض الهند واللمم
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إذا استوت عنده الأنوار والظلم
وأسمعت كلماتي من به صمم
ويسهر الخلق جزأها ويختصم
حتى أتته يد فراسة وفم
فلا تظنن أن الليث (يبتسم)
أدركتها بجواد ظهره حرم

- 20- رجلاه في الركض رجل واليدان يد
 21- ومرهف سرت بين الحفطين به
 22- الخيل والليل والبيداء (تعرفني)
 23- صحبت في الفلوات الوحش منفرداً
 24- يا من يعزّ علينا أن نفارقهم
 25- ما كان أخلقتنا منكم بتكرمة
 26- إن كان سرّكم ما قال حاسدنا
 27- وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة
 28- كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
 29- ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
 30- ليت الغمام الذي عندي صواعقه
 31- أرى النوى يقتضيني كلّ مرحلة
 32- لئن تركن ضميراً عن ميامنا
 33- إذا ترخّلت عن قوم وقد قدروا
 34- شرّ البلاد مكان (لا صديق به)
 35- وشرّ ما قنصته راحتي قنص
 36- بأيّ لفظ تقول الشعر زعنفة
 37- هذا عتابك إلاّ أنه مِقَّة
- وفعله ما تريد الكفّ والقدم
 حتّى ضربت وموج الموت يلتطم
 والسيف والرمح والقرطاس والقلم
 حتّى تعجّب منّي القور والأكم
 وجداننا كلّ شيء بعدكم عدم
 لو أن أمرّكم من أمرنا أمم
 فما لجرح إذا أرضاكم ألم
 إنّ المعارف في أهل النّهي ذمم
 ويكره الله ما تأتون والكرم
 أنا الثريا وذا الشيب والهرم
 (يزيلهنّ) إلى من عنده الديم
 لا تستقلّ بها الوخّادة الرسم
 ليحدثنّ لمن ودّعتهنّ ندم
 أن لا تفارقهم فالراحلون هم
 وشرّ ما يكسب الإنسان ما يصم
 شهبّ البزاة سواء فيه والرخم
 تجوز عندك لا غرّب ولا عجم
 قد ضمّن الدّر إلاّ أنّه كلم

المفردات

- 1- شيم: بارد.
 7- البُهم: الأبطال مفردها بُهمة.

- 11- تصافحت: تلاقت بالسيوف، اللمم جمع لمة وهي الشعر.
16- شواردها من قولهم شرد البعير إذا نفر، ومعناها هنا شوارد الشعر
وبديعه.

- 17- اليد الفراسة القوية، من الفرس وهو دقّ العنق.
20- الوصف هنا للجواد.
21- المرهف: السيف الرقيق الشفرتين، والجحفلان: الجيشان العظيمان.
23- الفلوات: الصحارى، القور جمع قارة وهي الأكمة.
30- الغمام: السحاب، والديم ج ديمة وهي مطر يدوم مع سكون.
31- النوى: البعد، الوخد والرسم: ضربان من السير.
34- يصم: يعيب، والوصم هو العيب.
35- شهب البزاة: النصور القويّة، الرخم: طائر وضع دنيء.
36- زعنفة مفرد زعانف وهم اللئام الساقطون من الناس.
37- المقة: المحبة والودّ.

أسئلة:

- 1- استخرج المشتقات من النصّ السابق، واذكر أنواعها وأفعالها.
2- استخرج جملة وقعت صلة للموصول.
جملة وقعت في محل جرّ بالإضافة.
جملة وقعت في محل نصب حال.
3- استخرج أسلوب استفهام وبين المعنى الذي أداه.
4- استخرج استعارة مكنية. وشرحها.
5- استخرج تشبيهاً بليغاً وشرحه.

- 6- استخرج ثلاثة من أساليب النداء وبين المعنى الذي أدته.
- 7- ما جذور الكلمات التالية (زرتة- اصطنعت- يواريهم- تصرفت- انتفاع- الوخادة).
- 8- أعرب ما تحته خط من المفردات وما بين قوسين من الجمل.

%%%%%%%%%

نصوص من الأجناس الأدبية
روافد لما عرفتَه فيما سبق



أدب الرحلة عند العرب

كان أدب الرحلة عند العرب نوعاً من الكشف الجغرافي والتاريخي والاجتماعي، مع اختلاف الروفق الأدبي الذي عُرِضت فيه الرحلات المتعددة. وقد اختلفت اتجاهات الرحالة العرب الأقدمين ومناحيهم في كتابة رحلاتهم وتدوينها، فغلبت الروح الموضوعية أحياناً كما في رحلة ابن بطوطة، وسيطرت الرغبة في الحديث عن حياة صاحب الرحلة وأساتذته والعلماء الذين لقيهم في رحلته كما في رحلة ابن خلدون.

وأشهر الأدباء الذين أسهموا في أدب الرحلة في القرن العشرين هم:

1- الكاتب الكبير محمود تيمور: وله رحلات إلى بعض الدول الأوروبية تدونها في كتابيه (أبو الهول يطير) و (شمس وليل).

2- الدكتور طه حسين: وقد أخرج رحلاته في كتاب (رحلة الربيع والصيف)، يذكر فيه زيارته إلى بعض المدن الأوربية، وما رآه هناك.

3- الدكتور حسين فوزي: وله كتابان في الرحلات هما: (سندباد عصري) و (سندباد إلى الغرب)، وصف فيهما رحلاته إلى بعض المدن الأوروبية والإفريقية.

4- الدكتور محمد حسين هيكل: دَوّن رحلته في كتاب (منزل الوحي)، وقد وصف في هذه الرحلة مدن الحجاز، و لا سيما مكة المكرمة.

وللدكتور هيكل كتاب آخر في الرحلات اسمه (ولدي)، وهو كتاب تذكاري لابنه المتوفى سنة 1925م، وفيه يصف رحلات قام بها مع زوجته إلى أوروبا في محاولة للسلوى والعزاء عن ابنه المتوفى.

5- الكاتب عبد القادر المازني: وله كتاب بعنوان (رحلة الحجاز)، يحدثنا فيه عن رحلته إلى الحجاز.

6- أمين الريحاني: وقد سما بهذا الفن إلى أوج الازدهار والغنى الأدبي والفني. حيث قضى حياته في سفر مستمر ورحلة دائمة بين الشرق والغرب، وقد دَوّن رحلاته في كتب عدّة:

1- ملوك العرب (جزءان): وهو كتاب رحلات في قلبه ومادته، ولكن المؤلف ترجم فيه لسبعة من أمراء العرب.

2- قلب العراق: وقد وصف فيه معالم الحياة العراقية وصفاً دقيقاً.

3- المغرب الأقصى: وصف فيه بلاد المغرب الأقصى من النواحي الجغرافية والسياسية والتاريخية والاجتماعية وصفاً دقيقاً.

4- نور الأندلس: ضمّن الريحاني كتابه (المغرب الأقصى) رحلته إلى الأندلس، وتحدّث عن هذه الرحلة في فصولٍ عدّة.

5- قلب لبنان: وهو من أجمل كتب الرحلات عند الريحاني، وفي الكتاب تسعة فصول تروي تسع رحلات قام بها الريحاني في لبنان.

وقد اخترنا من كتابه (قلب لبنان) وصفه لرحلة قام بها في وادي الجماجم بلبنان.

وادي الجماجم

كانت شمس ذلك النهار من أيلول - هناك في مطلع مجدها الأرضي المسمّى في القاموس الضحى، تغمر الأودية والجبال، والقرى والكروم، ببريق نورها وحرارته، عندما وقفت أودّع مضيقيّ الكريمين، فارتفع صوت الحكيم وصوت زوجته بالنفس الواحد، واللهجة الواحدة، أن لا يجوز ذلك ولا يليق: فيجب أن أقيم عندهم يومين أو ثلاثة أيام. فشكرتهما وأصررت على الوداع، فقال الحكيم: إن اجتيازي وادي الجماجم وحدي مغامرة لا تخلو من خطر. فما عدلت عن قصدي. وقالت سيدة البيت: إن المسافة بعيدة، وقد لا أصل إلى بسكنتنا حتى الغروب، وإني قبل أن أبلغ حرج الصنوبر في الجبل المقابل لبتغرين أحسّ بالجوع. قالت هذا واستمهلتي. ثم عادت تحمل رزمة صغيرة ملفوفة في جريدة، مربوطة بخيط من المصيص، وهي تقول: لا تؤاخذنا. غض النظر.

حملت الرزمة الصغيرة في حُجّة عصاي على كتفي، والرزمة الأخرى الكبيرة، - رزمة اللطف والكرم- في قلبي، ومشيت أقصد بسكنتنا وأنا أتأمل في هذه الفطرة الطيبة في اللبناني، وأقول لنفسي: إن بيتاً واحداً في كل قرية من قرى لبنان، مثل هذا البيت الكريم، يكفي ليمحو ذنوب أهل الجبل جميعاً.

وما إن خرجت من بتغرين حتى أطللت على الوادي العميق الهائل، وادي الجماجم الذي ذكره القاموس فقال: إنه سمّي بهذا الاسم ((لحرب وقعت فيه، فتراكمت جماجم القتلى حتى سدّت طريق النهر الجاري هناك)).

وهذا هو الطريق إلى النهر، يدور منحرفاً في نَعْف الجبل، ثم يدور فيدور، فلا ترى غير اليسير منه البادي أمامك. أما في النَعْف الآخر السحيق، المقابل لجبل بتغرين، فالطريق يبدو لناظريك بكامله، وهو ينساب كالحية الرقشاء بين الأدغال الخضراء الصفراء، والصخور الدكناء السحماء، صاعداً متلويّاً، من ضفة النهر إلى الحرج المظلل السند الأعلى من الجبل.

إن وادي الجماجم لأشد أودية لبنان وحشة وهولاً. فلا عجب إذا رَوَّع مجردُ اسمه الأخ حنا، ففضل سلامة الجسد على سلامة السمعة.

بيد أن المشاهد الطبيعية، على هو لها ووحشتها، حافلة بأنواع المحاسن المغرية الفتانة، شكلاً ولوناً ومعنى. فبعد قليل من السير في الطريق المنحدر المتلوي، نجتاز بساتين التوت والكروم، فنبلغ الوعر الملتفة فيها أدغال العفص والملول، الناشرة على حواشيتها أعلام القندول والغُليق، والغار والزمزريق، فتحييك منها الأزاهير الصفراء والبنفسجية، والعناقيد الحمراء والأرجوانية، والروائح الناعمة الندية. تحييكم من أجناب الطريق، وتحييكم من مختبأتها بين الصخور والآكام.

هناك العطار الأعظم يمزج روائح التربة الندية، بروائح الأشجار المخلصة وروائح النباتات العطرية، وما أبقى فصل الجفاف من الأزاهير البرية وإن قلت، المجهولة الأسماء، فينتشر من مجموعها نفحة طيبة مركبة عجيبة يعجز عن تحليلها علماء النبات والكيمياء.

وهناك الفنان الأزلي يمزج اخضرار الأرض بازرقاق السماء، وذهب الشمس، وفضة السُحُب الشفافة، فيبلغ في فن التلوين حد الإعجاز الذي يتوق إليه وعبثاً يحاول إدراكه الفنانون الفنانون.

وفي شتى أنحاء الوادي ترى آثار المثل الأكبر، وقد نحت من الصخور التماثيل العجيبة في معانيها، الغريبة في ألغازها، المدهشة المروعة في أشكالها، وقد جمع بعضها فناً إلى فن، وجمالاً إلى جمال، وروعة تتساق إليها الروائع. فهناك جدار عالٍ قائم تحت جفن الجبل، اجتمعت فيه المحاسن الهندسية والنباتية، فغدا كواجهة معبد من معابد الهند. وهاك صخرة ملساء، منحوتة في ساعة جذل وإلهام فبدت كأبي الهول وبين مخالبه القندول، يفوح زهره طيباً في الربيع، فيتغلغل في صميم الغاب، وتتطلق من فمه في الفصول جميعاً نباتات الصعتر الزكية تحيي العابرين.

حيّاك الله، يا أبا الهول، الناطق بالصعتر والفرقفان. حيّاك الله يا قرقفان، للنسور وحدها ذراك. وحيّا زهورك الشوكية البنفسجية، المنقطعة النظير، بين الأزاهير.

وادي الجماجم! غفر الله لمن أسماه، فما عثرت فيه على جمجمة أو عظم من جمجمة، ولا رأيت فيه حيواناً من الحيوانات الضارية، فلم أرَ ذئباً ولا ضبعاً ولا شبه ضبع أو ذئب في الطريق أو في مادون الطريق. وادي الجماجم في الزمن الغابر - وادي الروائع في هذا الزمان. هاكه في بحر من النور، فوق بحر من السكون، فوق بحر من السلامة والاطمئنان. تنزل فيه الجنادب تراتيل الظهر والمساء، ويؤذن فيه الوروار ودويك الجبل، وتغزّد فيه الحساسين، وإنك لتسمع أيضاً من حين إلى حين وقع حوافر الدواب، وهي تنزل أو تصعد في مدارجه، فيردّدصداها بين الصخور.

والمعلقات من الصخور، والهاويات تحتها! هاويات سحيقات، تسكن فيها أجنحة العقبان، هي هابطة سابعة جامدة، كأنها من جلد أو ورق، ثم تنزو فيها الحياة فتصفّق، فتخلّق إلى ما فوق الأسناد. مشيت ساعة مشية من لايعرف هماً من هموم الدنيا، مشية المنتزه المسحور، بل المتعبّد المحبور، فنسيت المسافات والوعور، ونسيت المهوي والصخور المعلقة. أجل، لقد سُحرت بما شاهدت من روائع التكوين، وبما استنشقت من أريج الأزاهير والرياحين، وبما سمعت من ألحان السكينة، الموشاة بذهب الشمس.

وما أدركت أني مسحور إلا عندما انهارت الأرض تحت قدمي، فرحت متزحلقاً ثم سابحاً على ظهري بضعة أمتار، فأنفذتني شجيرة من الأس تشبّثت بها، وعدت أدبُ إلى الطريق سالماً والحمد لله.

ذكرتني هذه الزحقة بما ينهار أحياناً من الجبال نفسها، إبان الزلازل، فتتفلّت صخرة من بين أخواتها، أو ينفصل جزء من الجبل عن أصله، ويروح سابحاً أو متدحرجاً إلى أعماق الوادي. وقد قرأت في تاريخ الأمير حيدر الشهابي ما أنقله بالحرف الواحد:

((زلزل سفح جبل نهر الصفا الذي هو تحت قرية كفر نبرخ وانسلخ عن أصله ومال إلى الجهة الثانية التي تحت قرية مجد المعوش حتى التصق بها وردم مجرى النهر الذي كان في الوادي بين الجانبين واندثر تحت ذلك الردم عدة عقارات. وكان في الوادي قرية صغيرة فهلك جميع أهلها تحت الردم. وقيل إنه كان رجل حاملاً كوران نحل وسائراً في ذلك السفح فلما زلزل ومال سار مع تلك الأرض المائلة. وقد دخله الاندهاش والارتعاش من سير الأرض به ولم يشعر إلا وهو في الجانب الثاني الذي تحت قرية مجد المعوش المذكورة وبقي سالماً. إلا أنه زال عقله مما صادفه من انتقال الأرض به من جهة إلى جهة. وهذه الخسفة كانت في الثامن عشر من كانون الأول سنة 1767م (1181هـ)).

وفي ذلك اليوم من أيلول من سنة 1905، ما ((زلزل)) عقلي أنا مما حدث في وادي الجماجم، بل كدت أنتقل الانتقال المطلق، وأنا واقف فوق الهاوية، مسحوراً بها، ثم مترحلقاً على ظهري إليها، وهي فاعرة فاها لتضمنني إلى سكينتها الأبدية!

ولقد أوقف الخوف فيّ حس التلذذ بجمال الطبيعة ومحاسنها. فسددت خطواتي بشيء من الإسراع، وعيناى كنوري السيارة لا تحيدان عن الطريق أمامي، إلى أن بلغت قعر الوادي، فجلست على صخرة، في ظل دُفلةٍ هناك، أتأمل مدارج الجبل الذي هبطت منه، وأحمد الله على السلامة.

وقد شعرت وأنا في قعر الوادي الضيق بين الجبلين بشيء من الانقباض. وسرعان ما ذهب محاسن الطبيعة التي ملأت صدري في سوية من الزمن جذلاً وحبوراً. ذهب من أفق إحساسي، لا من الوادي، وهي منتشرة في كل مكان منه، فصوت جري الماء بين الصخور أعذب من صوت الجنادب، وشذا النباتات والأزهار أشد في مضائق الجبال منه في مسارحها. والسكينة في قعر الوادي أبلغ معنى منها في أعاليه. ما تغيرت المحسوسات، وما ذهب شيء من جمالها وبهجتها. إنما تغير الإحساس الإنساني الذي يسجل فيه وجودها.

والذي غير الإحساس هو الخوف. فلو لقيت قاطع الطريق في تلك الساعة
لنسييت أن أقول له: لست أحمل ذهباً أو فضة، ولرفعت يديّ مستسلماً. ولو لقيت ذنباً
لما خطر لي أن أذكره بمعاهدة الذئاب وقديسي الأطهر فرنسيس الأسيسي رضي الله
عنه.

وما سبب الخوف يارجل؟ وقد نجتك يد الله، من الهلاك بفضل شجرة الآس،
أفلا ينبغي أن تكون شاكراً مسروراً؟ إني شاكر مسرور، ولكن أثر الخوف لا يزال
عالقاً بنفسي، ومخيماً عليها ورُب أثر أشد من الحدث المسبب له. فقد سرى من القلب
إلى المخيلة، فحُيل لي أن وادي الجماجم جمجمة عظيمة هائلة، مشقوقة الرأس، وإني
أنا حشرة في قعرها.

فاننفضت إذ ذاك ورفعت صوتي بالغناء، فعصيني، على قباحتته، وردّني إلى
نفسي، فعاودني التصور السقيم، حشرة في قعر جمجمة!! حشرة في قعر جمجمة! ثم
بغثة وعيت وسقت فكري على مخيلتي فحرها، ووبخ الصوت الذي سخر مني، وقد
شئته غناءً فكان مكاءً. تيقنت إذ ذاك أن الخوف الذي غشيني كالكابوس اضمحل أو
كاد، وعادت الحشرة في الجمجمة بشراً مفكراً حكيماً، ثم نهض ذلك البشر يحمل زاده
في حُجّة عصاه، ويصعد في الجبل.

ساعة- ساعتين. والطريق الذي تراءى لي من الجبل المقابل كالحية يتعرج
صاعداً أمامي، ولا ينتهي. وشمس أيلول في رائعة النهار تبعث الذكرى بأيامها في
تموز. وأنا في التصعيد أسدّد الخطوات ولا ألوي على شيء.
لقد أسرعت في البدء فأخطأت، إذ ما عثمت أن ثقلت رجلاي، وثقل النفس في
صدري، وثقلت حتى العصا في يدي.

ثم عراني العطش.. والجوع! فجلست في فيء صخرة أستريح، وأنظر بعين
(كاسرة) إلى الزاد بين يدي. ما الحيلة؟ هل يغني الخبز عن الماء؟ بالعكس. إذن إلى

الأعالي! استأنفت التصعيد، وفي القلب صوت ينادي غابة الصنوبر: أين أنت، أينها الغابة! ساعة أخرى من التعب والعطش والجوع...

وهاك الغابة تفرش ظلالها الندية لتقيلي الأحمال والتعبين. تبارك الصنوبر، وتباركت ظلاله. لقد أمسكت الرمق مني، وأعادت إلي شيئاً من القوة والأمل. فدخلت الغابة حامداً شاكراً، وانسرحت في ظل أول شجرة منها.

إنني أنبه ها هنا إلى خطأ فيما كان من مسلكي، ما أعدته بعد ذلك فإذا كنت ماشياً في الجبال، أيها القارئ العزيز، وأمامك وادٍ عميق تجتازه من جبل إلى جبل، فلا تشغل نفسك، وأنت هابط، بمحاسن الطبيعة. انزل مسرعاً، ولا تكثرث لشيء حولك أو أمامك. ثم صعد في الأسناد على مهل، واستمتع بكل ما هناك من جمال الطبيعة ومدى هساتها. فكلما عراك شيء من التعب قف هنيهة وسرح النظر والنفس فيما حولك. استنشّق- وأنت في حال الإدراك- الهواء الصافي، والروائح الطيبة تنتعش، واستمع لصرير الجنادب وللعقبان تصفق بأجنحتها تستأنس. ثم خذ بضع ورقات من الغار والقصعين فادلك بها يديك وجبينك تسترح وتستعد النشاط والعافية. إنك إذا فعلت ذلك لا تشعر بشيء من التعب في التصعيد، مهما كان من وعورة الجبل.

بعد ربع ساعة في ظلال الصنوبر استأنفت السير آملاً بقرب الوصول إلى بيت ينقع غلتي.

فما كدت أجتاز الغابة حتى بدا ذلك البيت على حاشية ظلها. هو بيت قديم مربع بسطح من التراب منبسط، حوله بستان تين وكرمة.

وهناك صبي يرعى بقرة في الجوار، ناديته فبادر إليّ. نشدت الماء، فراح مسرعاً إلى البيت، وعاد يحمل الإبريق.

وكنت قد فككت الرزمة التي رَوَدَتِيهَا زوجة الحكيم بتغرين، فإذا فيها البيض المسلوق والبصل، والجبين والزيتون، والخبز الرقيق، ومنه رغيف ملفوف مستقل يحتوي

على كتلة كبيرة من التين المطبوخ بدبس الخرنوب. ففرشت الجريدة على بساطٍ ناعم من ورق الصنوبر اليابس، ووصفت الزاد عليها، ودعوت الصبي ليجلس أمامي ويشاركني. فشكر واعتذر. ثم قال إنه تغدّى. ثم قبل أن يأخذ لقمة من التين المطبوخ. عملت لفافةً منه في نصف رغيف من الخبز، وقدمتها له. فتناولها هاشأً، واتجه مسرعاً إلى البيت.

وبعد قليل عاد، وفي إحدى يديه عنب، وفي الأخرى تين أخضر. والصنفان ينضجان في تلك الأعالي من الجبل بعد أسبوعين أو ثلاثة من نضجهما في الفريكة وجوارها.

وهذا الصبي يحمل إليّ من خير السنة عناقيد عنبرية وتيناً أرجواني اللون. إنه حقاً لبناني كريم من الطراز الأول، من الطراز القديم. ولقد ذكرني، عندما بادر إليّ بـإبريق الماء، بتلك السامرية التي خلّدت في سيرة المسيح. كأنه من سلالتها المباركة. عملت لفافةً أخرى مما تبقى من التين، فأخذها كما أخذ الأولى ولم يأكلها. فسألته السبب في ذلك فقال: ((أنا لا أحب التين المطبوخ، ولكن أختي الصغيرة في البيت تحبه كثيراً)).

اسمه طنوس. وهو في الثانية عشرة من سنه. أزرق العينين، وردي الخدين. في صوته رنة الثقة بالنفس، وفي حركاته يتبارى اللطف والنشاط. وهو يحب المسافرين لأنه سافر مرة ((سفرة طويلة)) وعرف ((الناس الأوام)).

- وإلى أين سافرت، ياطنوس؟

- إلى فاريّا، ومنها نزلنا إلى جونبة - جونبة مدينة كبيرة وفي ذكاكينها كل شيء - ومنها عدنا عن طريق إنطلياس وبكفيا إلى البيت. بقينا غائبين عشرة أيام - كنت أنا والوالد. واشترينا هذه البقرة، وعزّة قبرصية. اشترينا القبرصية في فاريّا، وبعناها في سوق جونبة وربحنا فيها مجيديين¹.

¹ - اسم عملة كانت في العهد التركي العثماني.

وقد أخبرني أن له أخاً أكبر منه، وأن له أختاً غير الصغيرة، التي تحب التين المطبوخ، تزوجت السنة الماضية ((إلى أميركا)) .
أي أن شاباً من القرية عاد من أميركا، فافترن بأخته، ورجع وياها إلى عمله هناك.

وأبو العين الزرقاء، طنوس، التاجر بالبقر والمعزى، عاقد النية على السفر إلى أميركا، حيث أخته وصهره.

وفي أميركا نتاجر ونريح ونصير ((زناكيل)) (أغنياء) إن شاء الله. قبل أن ودعت طنوس، سألته إذا كانت بسكنتا لا تزال بعيدة، فأجاب: ((وصلت إلى أول بيت منها نصيبه من رأس الشير (الصخر) هناك بضربة حجر)) .

**نصوص من أجناس أدبية
مختلفة روافد لما درس**





محمود تيمور¹

كنت أخرج من داري صبيحة كل يوم لأركب الترام إلى مكتبي، وقد تعودت أن أرى عند المحطة فتى مبتور الساقين، بسط أمامه على الأرض، عدداً من علب الثقاب، يبيعهها للمارين، وقد ارتدى ثياباً نظيفة مرقعة.

وكان مرآه يثير شفقتي، فأشتري منه كل يوم علبة بما يزيد على ثمنها. وتوثقت بيننا أواصر المعرفة. وعلمت منه أنه كان عاملاً في أحد المصانع، حيث كانوا يطلقون عليه لقب (السبع) لما كان يتميز به من القوة، والجرأة، والنشاط. فأصابه عارض أفقده ساقيه. فاضطر إلى بيع الثقاب ليعول أسرته.

قصدت يوماً إلى محطة الترام، فلم أجد بائع الثقاب هناك. وكانت هذه أول مرة رأيت فيها مكانه خالياً. وأخذت أتلفت يمنة ويسرة، لعلّي أبصر به في موضع آخر، فما وقعت عيني له على أثر. واستولى عليّ شيء من الأسف والضيق، وأخذت أمشي جيئةً وذهاباً في انتظار الحافلة، وأنا افكر فيما عسى أن يكون سبباً لغيابه. وخطر لي أن أسأل صاحب المطعم المجاور، فمضيت إليه وسألته:

- أما حضر بائع الثقاب؟

- لم أره في مكانه هذا الصباح، وهو لم يتغيب عنه منذ شهور طويلة. وقدم الترام، فركبته.

وفي اليوم التالي، يممت شطر المحطة، يساورني شيء من القلق... وإذا أنا ألمح الفتى في مقره المعهود. فسررتُ لمرآه.

¹ محمود تيمور من أبرز كتاب القصة في مصر. ومن قصته ((الشحاذ)) أخذنا هذا النص.

واقتربت منه، فألفيته مطرقاً برأسه، شارد النظر. فلما وقع عليّ بصره، احمرّ وجهه، وعاد فطأ رأسه من فوره، وظهر عليه الارتباك، فسألته:

- ماقد بك أمس عن المجيء؟

فأجابني مطرقاً:

- كنت مريضاً ياسيدي.

وتبيّنت في صوته المنخفض نبرة حزن ظاهرة.

وأخرجت من جيبِي بعض قطع من النقود وقلت له:

- أعطني بها خمس علب ...

فرنا إليّ بنظرة حائرة، وقد جالت في مآقيه الدموع... ثم قال متلعثماً:

- ولكن .. ياسيدي .. إنّي .. لا

وجاء الترام، فسارعت إليه، وقد وضعت العلب الخمس في جيبِي، والفتى لا

يزال يلجلج بكلامه المبهم...

انقضت ثلاثة أشهر لم أر خلالها البائع في زاويته المعتادة، فعجبت للأمر،

وخشيت أن يكون المرض قد اشتد به، فحال دون مجيئه.

وحاولت أن أعرف محلّ سكنه، عازماً على زيارته، ولكن ما استطاع أحد

إرشادي إلى بيته.

وتوجهت يوماً إلى محطة الترام، وما كان أشد دهشتي حينما أبصرت الشاب

عن بعد في مكانه المعروف .

ولمحتي قادماً نحوه، فكان يرقبني بشغف. فلما بلغت المحطة زحف نحوي،

وصافحني بحرارة وبشاشة.

فـعـجـبـت لأمـره، واسـتـعـرـبـت تـبـدـل حـالـته النـفـسـية بـيـن المـاضـي والحـاضـر . وسـلـمـت
عـلـيـه سـلاماً طـيـباً وقـلـت:

- لـقـد ظـهـرت أخـيراً، أيـها السـبع...
- لـسـت سـبعاً الـآن..
- إن عـاهـتـك لا تـمـنـعـك مـن أن تـكـون سـبعاً...
- هـنـاك شـيء غـير العـاهة !
- مـاذـا تـعـنـي ؟
- سـتـعـرـف عـمـا قـلـيل.
- أـين كـنت طـوال هـذه الأـشـهر؟
- كـنت أبـيـع بـضـاعـتي فـي مـكان آخـر..
- لـعـله أكـثـر رـبـحاً مـن هـنا؟
- بـل أقـل جـداً...
- فـما حـمـلك، إذـاً، عـلى تـرك مـحـلك هـذا؟
- فـصـمت قـلـيلاً، ثم رـفـع عـيـنـيه الـبـراقـتـين، وقـال جـاداً:
- كـنت أهـرب مـنـك يـاسـيـدي !
- تـهـرب مـنـي ؟ لا أفـهـم مـرـادـك !
- سـامـحـني فـقـد أسـأت إلـيـك.
- أسـأت ؟! أـراك الـيـوم تـتـكـلم بـالـألـغاز.
- بـل إنـي أجـرـمت بـحـقـك يـاسـيـدي ... أتـذكـر حـضـورك إلـى هـنا آخـر مـرة، مـنـذ
أشـهر ثـلاثـة؟
- إنـي أحـضـر إلـى هـذا المـكان كـل يـوم، وكـلـما حـضـرت ذكـرتـك، وافـتـقـدتـك، وقـد
حـاولـت الـاهـتـداء إلـى مـسـكـنـك فـلم أفـلـح...
- فـقـال بـصـوت مـتـهـدج:

- يالها لفتة كريمة ... لا أستحقها: إنها تؤلمني.. تلذع ضميري.. كأنها جمرة...
- تؤلمك ؟ تلذعك ؟! عجائب !
- سأسرد لك قصتي معك، فيزول عجبك.
- قصتك معي ؟! أراك تزيد الأمر عجباً.
- كلما حاولت مصارحتك، عقد الخجل لساني ...
- ما أراك أتيت شيئاً نكراً يحدو بك إلى الخجل!
- لو علمت ياسيدي بواقع الأمر لكنت
- يا لسواد وجهي أمامك .. إنني لا أتحمّل نظرة احتقار منك.
- إنك تغرقني في لجة من الغوامض والمعميات..
- وتدعني أتخبط فيها متحيراً...
- وكان الترام الذي أنتظره قد وافى، ولكنني تجاهلت مجيئه. قائلاً:
- لن أبرح مكاني حتى تفهمني ما خفي عليّ ...
- آه ياسيدي، كم أعاني من العذاب منذ أشهر حتى الآن...
- لا بد أن مرضك قد تفاقم ... لقد حدثت نفسي بهذا، حين رأيت غيبتك قد طالت ...
- لم يكن عذابي ناجماً عن مرضي.. ولكنه عذاب من وخذ الضمير ...
- عذاب أليم لا يطاق ..
- هذه أحجية جديدة أيضاً، لم أفهمها...
- وصمت لحظة أفكر فيما أسمع ... ثم أردفت مداعباً:
- ومع ذلك أراني أحمد الله على أنني لست أنا الذي وخزت ضميرك فأوجعته...
- بل أنت ياسيدي ... من حيث لا تدري...
- أنا ؟! أتراني أحمل منخساً؟

- ليت المنخس ينفذ إلى الضمير، ويؤدبه، ولكنه عاجز عن ذلك، مع
الأسف...

- إنك تتكلم اليوم كفيلسوف !

- بل كمذنب عصف بقلبه الندم...

لقد عشت حياتي كلها شريفاً، ناصع الجبين، لم أقترف إثماً برغم ما نزل
بي من عاهة وفاقة ... ولكني كذبت عليك ياسيدي حين ادّعت المرض تعليلاً
لغيابي.

- لعلك كنت في حاجة إلى بعض المال ... لئيك صارحتي بذلك، بدلاً من
ادّعاء المرض...

- إن ادعاء المرض ما كان إلا تغطيةً لسيئة قبله...

- ها نحن أولاء نعود إلى الأحاجي !

- حيائي منك جعلني أنكلم على هذه الشاكلة.. إذ لا أجد في نفسي الشجاعة
لأعترف لك بإساعتي إليك اعترافاً مباشراً.

- على كل حال، عفا الله عما مضى، وقد صفحت عن الإساءة، وإن كنت لا
أدري ما هي ..

- يا قلبك الطيب!.. إنَّ طيبة قلبك تزيدني شعوراً بفداحة إثمي.

وهنا توقف بائع النقاب، ليسخ ريقه، ويمسح عرقه ... ثم تكلم بصوت

مضطرب:

- يوم اشتريت مني علبة النقاب ونقدتني ستة أضعاف ثمنها ... رأيتك تخرج

بعض الأوراق من محفظتك، وقد سقط منها ورقة مالية، ذات خمسة

جنيهاً، حملها الهواء إليّ ... فقبضت عليها بيد مرتجفة، وعينين زائغتين

... وحاولت أن أناديك لأعيدها إليك .. ولكني تذكرت أولادي الجائعين ..

وأسمالهم البالية ... فهرعت إلى البيت وأقبل عليّ أطفال الصغار يقبلونني

... فضممتهم إلى صدري... وقلت لهم بحرارة:

- سوف تكتسبون غداً ملابس جديدة!

فنظروا إليّ بعجب وارتياح .. كأنهم غير مصدقين ما يسمعون ... إذ لم يروا في بيتهم ثوباً جديداً منذ زمن بعيد ... وهبوا فرحين يتراكمون، ويتصايحون:

- سوف نلبس غداً ملابس جديدة ... جديدة!

وأردفت قائلاً لهم :

- وستملؤون بطونكم بأشهى الأطعمة.

وابتهجوا لهذا الخبر المثير ابتهاجاً عظيماً، وأخذوا يرقصون طرباً بما سمعوا .. فقد كان أكثر طعامهم خبزاً قفاراً، وقد يتاح لهم اداً من البصل أحياناً ... وأقبلوا عليّ يستأنفون تقبيلي ... وكنت أقبّلهم والدموع تغمر وجهي .. مسروراً بسرورهم، ولكنه سرور ينغصه الحزن والخجل، لأن المال الذي أتيتهم به لم يكن من عرق جبيني ... وفي اليوم التالي اكتسى أولادي الملابس الجديدة، وأكلوا الأطعمة الشهية ... لقد كانت خمسة الجنيهاً ثروة كبيرة بالنسبة إليّ ...

وفي اليوم الثالث قصدت إلى مكاني هذا وقابلتك، فلما سألتني عن سبب غيبيتي أخبرتك كذباً أنني كنت مريضاً، فاشتريت مني خمس علب، ونقدتني أضعاف ثمنها ... فأحسست أن النقود في كفيّ تلدعني، كأنها عقرب هائجة ...

وعدت من فوري إلى داري وأنا محموم، ومرضت في هذه المرة مرضاً حقيقياً، طرحني في الفراش أياماً ... كنت تتمثل لي خلالها أتياً لشراء خمس علب، لم تكن محتاجاً إليها، وإنما أردت بها أن تساعدني على مرضي المزعوم، وقد أبت نفسك الكريمة إلا أن تلبس الإحسان ثوب الشراء حرصاً منك ألا تجرح شعوري! .. وأنا ... كيف قابلت نبلك وإحسانك؟! .. يالللذالة .. ليت الأرض تتشقّ فتبتلعني ... لقد تمثّلت لي نفسي ذنباً .. بعد أن كنت سبعاً ... نعم، أمسيت ذنباً ... ولكن على من ؟ .. عليك أنت بالذات .. أنت الذي طالما أحسنت إليّ ... يالللجريمة المضاعفة! ..

منذ ذلك الحين لم يهدأ لي بال .. كانت لدغة دراهمك تؤلمني .. وكنت أرى لهب جهنم يندلع من أثواب أطفالي .. إذ متعتهم بمال أتى من غير حلّ ...

ولم أجد مخلصاً من جحيمي الخانق إلا بالبحث عن وسيلة أعيد بها مالك إليك، وما كان جميع ذلك المبلغ يسيراً عليّ، ولكنني صممت على تجميعه...
فهربت إلى مكان قصي، أبيع فيه بضاعتي الرخيصة، وجاهدت في الاقتصاد ما استطعت، وأخلفت وعودي لأولادي، وأغضبت زوجتي، بيد أنني كنت راضياً عن نفسي. وبدأت أذوق طعم الهناءة. وأضحت ملابس أولادي الجديدة لا تخيفني، إذ كنت أجمع ثمنها حلالاً لأردّه إليك..

وأخرج من جيبه صرة معقودة، فقدمها إليّ قائلاً:
- خذ مالك ياسيدي ! خذه وأرحني منه، أراك الله!
وكننت مأخوذاً بما سمعت، أنظر بذهول تارةً إلى الرجل، وطوراً إلى صرة النقود، ولا أعرف ماذا أصنع. فنبهني الرجل بقوله:
- سيدي! إذا لم تأخذ نقودك، فسوف أرميها في البئر..
فمددت يدي، وتناولت الصرة في صمت، ودسستها في جيبني ثم شددت على يده، وأنا أغغم:

- أنت رجل كبير النفس أيها السبع! بل أنت أعظم من السبع!
- أنى يكون فاقد الساقين أعظم من السبع؟
- إنما تقدّر قيمة الإنسان بمزايا خلقه، لا بقوة أعضائه؛ وأنت امرؤ كرمت عليك نفسك... وأنه ليسزني أن نبقى صديقين، أيها الأخ الصالح!
وأقبل الترام إلى محطته، فهرعت إليه... ولما استأنف مسيره، التفت جهة ((السبع)) فوجدته يتبعني بنظره... فتبسّمت له، وحيّيته ملوحاً بيدي... فلوّح بيده، ودموع الحياء والفرح تترقق في عينيه.



الطبري¹

وقف عبد الله بن قيس الحارثي على إحدى السفن يرقب أصحابه الأشداء وهم ينشرون القلوع فتتلاحق سفنهم بين يديه إلى هدفها البعيد، وقد احتشد فوقها الفتية المغامرون، فحمد الله لأن الحلم الذي راود خياله قد تحقق.

وشعر بالغبطة إذ ولّاه معاوية قيادة أول أسطول عربي يلج بحر الروم ليقتم على العدو بلاده، ويباغته من حيث لا يتوقع المباغته.

وتوالت هجمات الأسطول العربي على بلاد الروم بقيادة أمير البحر عبد الله، وغدا الفتية المغامرون مقاتلين أشداء حنكتهم التجارب، وصقلتهم المخاطر، فعرفوا أسرار البحر، وكشفوا خفاياه، وكبدوا العدو خسائر لا يحصيها عدّ، ولا يقدرها مقدر. واشتهر عبد الله بكثرة حملاته البحرية حتى بلغ عدد غاراته على شواطئ الروم خمسين غارة عاد منها سالماً مظفراً بعد كل ما واجهه من أخطار، واستولى فيها على جزر عديدة ذات أهمية بحرية بالغة، منها جزيرة قبرص.

وقد بلغ من جرأته أنه كان في المهمات الخطيرة يذهب متخفياً فيستطلع بنفسه سواحل العدو، ويعدّ العدة لمفاجأتهم، بعد أن يدرس الطرق الكفيلة بالنصر عليهم. ولم يكن العدو يراه إلاّ وهو يغير بمن معه من الفتية المغامرين على الشواطئ الرومية فيبيث الذعر والهلع، وينشر الفوضى والاضطراب ثم يعود غانماً منصوراً.

على أن هذه الجرأة العجيبة ما كانت لتؤدي إلاّ إلى نتيجة واحدة معلومة هي الموت. ولم يكن يخفى على عبد الله أنه سيدفع حياته يوماً ثمناً لهذه المغامرات الأسطورية التي يقوم بها على شواطئ العدو فكان يدعو ربه دائماً بقوله: ((اللهم

¹ من كتابه (تاريخ الأمم والملوك).

نصرك وتأييدك .. اللهم ارزقني العافية في صحي، ولا تبتلني بمصاب أحد منهم،
واجعلني لهم فداءً لأنال الشهادة في سبيلك..))

وقد استجيب لعبد الله دعاؤه فاستشهد في إحدى غاراته العجيبة، إذ خرج في
أحد قوارب الاستطلاع لدراسة أحوال ميناء من مواني الروم. وكان قد تخفى في زي
تاجر من التجار فنزل على الميناء دون أن يتنبه إليه أحد.

وأخذ عبد الله يتجول بحذر وهو يستطلع مواقع العدو ويستجلي نقاط ضعفه مع
اثنين من فتيانه الأشداء، وتفرق الثلاثة وكل منهم يجيل نظره الفاحص فيما يهيم من
أمر تلك البلاد حتى حدثت مصادفة لم تكن في الحسبان كشفت شخصية عبد الله
للعدو وأنهت مغامراته البحرية التي كانت أشبه بالأساطير.

فقد حدث أن كان على الميناء بعض الشحاذين فتقدمت امرأة منهم نحو عبد
الله تسأله شيئاً يتصدق عليها به، ولم يكن معه إلا قطع ذهبية فمنحها قطعة منها
فتارت في نفسها الرّيب وقويت الشكوك، وكانت قصص عبد الله العجيبة ترعب سكان
الموانئ الرومية، فأسرعت المرأة إلى حرس الميناء وأخبرتهم أنّ شخصاً غريباً قد
يكون عبد الله بن قيس يجول في الميناء مستطلعاً، فهرع الحرس إليه وهاجموه من كل
جانب.

ووقف عبد الله يدافع عن نفسه بسكين كانت معه فاستطاع أن يقتل بخفة
عجيبة ثلاثة من الحرس ويجرح اثنين آخرين إلا أنه جرح أثناء ذلك جراحاً بالغة وكان
صاحبه قد أسرعا إليه يدفعان عنه فتك الحرس الرومي ويساعدانه في مقاومتهم.

وكان سفيان بن عوف الأزدي خليفة عبد الله على المركب العربي المغامر
فجهد في مناوشة جند الروم ليشغلهم عن صاحبه الذي استطاع بعد لأي أن يصل
إلى زورقه مع صاحبيه فسار بهم الزورق إلى مركب الاستطلاع العربي والروم

يقذفونهم بما يقع تحت أيديهم والفتية العرب في المركب يشغلونهم عن أميرهم
وصاحبيه حتى بلغوا مأمنهم وعاد المركب العربي يمخر عباب اليم.

واستجيب دعوة عبد الله أمير البحر المغامر فاستشهد متأثراً بجراحه، وفدى
أصحابه بنفسه التي كان يعرضها للمهالك في مغامراته العجيبة.





عيد ميلاد¹

الزمن، أواسط نيسان، الأولاد يستعدون للامتحانات، الميسورون منهم يأخذون دروساً خصوصية في الرياضيات واللغات الأجنبية بخاصة. طلاب شهادتي الإعدادية والثانوية بدؤوا يسهرون على الشرفات، إذا أمنوا لذع البرد، حتى الساعات الأولى من الصباح. في الحقائق العامة والشوارع الجانبية، ترى يافعين وشباناً، الكتب في أيديهم يروحون ويجيئون وأعينهم غائصة في الأسطر. وقد يرفعون أعينهم إذا مرّت فتاة ثوبها له شقة عن الجانب، ويزلقون نظرة خاصة ثم يزجرون أنفسهم ويعودون إلى القراءة والمشورة.

وأما هو فقد كان يحلم أن يكون له، هذه السنة، عيد ميلاد مطمئن. الأعياد الماضية كانت متواضعة. وأما هذا العيد فيجب أن يختلف: إنه في السادسة عشرة شاب مشورب. ومع معونة ماكينة حلقة أبيه ذات الحد الواحد لن يلبث أن يصبح ملتحمياً أيضاً. وسيدعو أحمد وحسام، وعلى رأس القائمة سوزي، خفيفة الدم، التي تدخن مثله. أحمد وحسام لهما، هما أيضاً، رفيقتان. فإذا وافق عصام ورفيقته سامية على الحضور كانت الحفلة فخمة. ينبغي إحضار عدد من الأشرطة، موسيقى راقصة. وقد يوافق الأب فيمنح بعض المال فيشتري بضع قناني من البيرة. وتحضر له أمه قالبين عرمرمين من الغاتو اللذيذ، تصنعه على طريقتها الفذة وتقبسه منها نسوة الحارة جميعهن: ثمانى بيضات للقلب الواحد مع طحين وكاكاو ومبشور قشر الليمون وجوز هند ولوز ومربى المشمش وزبدة... كلها موزونة بالغرام.

الأم، على الرغم من أنه يُريها كل يوم نجوم الظهر من أين تطلع، سهّل تطبيقها. إنها تقور مثل الحليب حتى تطف. وتأخذ عليه أنه عفش، مهمل، كسول، ينام حتى الظهر، ويسهر على التلفزيون حتى النشيد العربي السوري والعلم. ولكن،

¹ قصة للأديب (حبيب كيالي)

يكفي أن يدس أنفه في عنقها ويشمّها وإذا هي مشرقة مثل عروس في أول حمل لها،
تقول له في تمنع راض:

- رح من وجهي. لا تحك معي.
- قبلة أخرى تفرط كل شيء وتبدد حتى التمتع التمثيلي ولا يبقى غير الرضى.
- يأمي ، يأمي أنت تعذبني ياماما.
- أنا؟ إن شاء الله أموت وألحق عمي إذا كنت أعذبك.
- يوه، بعيد الشر! تقبرني بيدك الاثنتين إن شاء الله. إياك أن تعود إلى مثل هذا الكلام. أنا أزعل منك هاه.
- ماما.
- روح قلب الماما؟
- المشكلة في الأب .. هذا، قبل عيد الميلاد بشهرين أجري له سَبْر.
- بابا.
- الأب في لهج جافة:
- نعم؟
- أنا عيد ميلادي 16 حزيران. أما زلت تتذكر (ضحكة) أم أنك نسيت؟
- أتذكر ولكن أيش يعني؟
- يعني أن هذه السنة سيكون عيد ميلاد حقيقاً لا كالأعياد السابقة، مافيهها غير عمتي أم عمار وبنت عمي سلام وأمي وأنت.
- الأب، باللهجة الناشفة ذاتها:
- الاحتفال بأعياد الميلاد بدعة جاءتنا من الغرب. هل رأيتني في عمرك كله أحتفل بعيد ميلادي، أنا ؟

- بابا، أنت مجهول يوم الميلاد. أما قلت لي، أنت ذاتك، أن السرايا في بلدنكم قد أحرقت في أثناء مبارزة بالمدفعية بين الفرنسيين والثوار، وكان بين ما احترق أوراق السجل المدني؟

- بلى، قلت.

- أما قلت لي أيضاً أنك بقيت مكتوماً حتى صرت على أبواب سن المدرسة، عندئذ قال لك المرحوم جدي: رح عند عمك أبي عبد الكافي، مأمور النفوس، وقل له أن يسجلك في خانة الأسرة؟

- بلى، قلت.

- ألسن تعيد هذه الحادثة كلما زارتنا بنت حلوة وتقول إنك، مثل كل الأطفال الذين يحبون أن يكبروا أنفسهم، كبرت نفسك سنتين أو ثلاثاً؟

هذه الفقرة الأخيرة لم يكن الأب يزعمها لما كان يمشي في الأرض مرحاً ويحرق الأرض طولاً وعرضاً كأنه المهر الأصيل البطر ابن ثلاث السنوات. إنه ما اخترعها إلا بعد أن غزا الشيب فوديه، وصارت الصبايا يصحن له: ((عمو)) ! وظل يردها حتى صدقها من كل عقله قال:

- بلى، وإن كنت أنت تزيد في نقل أقوالي وتقلقلها وتبهرها.

رف الولد. عيناه وطفوان، ظريفتان حينما ترفان. تجاهل الملاحظة التي أبداها الأب. قال:

- وأما أنا فقد ولدت في دار التوليد، على يدي الدكتور إبراهيم حقي، الساعة الحادية عشرة من يوم السادس عشر من حزيران لعام 1962. وبالعلامة كنت سنتها بطالاً: مسرّحاً بطالاً: مسرّحاً من وظيفتك.

- هذا صحيح.

- ومع ذلك استندت لكي تعمل لأمي ولادة مطمئنة، فاستأجرت لها غرفة خصوصية مع حمام ورحت فقعدت في قهوة الهافانا تنتظر هاتفاً من ستي أمّ أمني وعمتي أم عمار...
- إلى أين تريد أن تصل من هذه الثروة كلها؟
- حلمك عليّ. ولما رأيت النور، أنا بكرك، جاعك إلى القهوة صوتاً ستي وعمتي يزلغطان: عجل شرف ولي العهد.
- كدت أنفلق. ألا تستطيع أن تقول لي ماتريده بكلمتين ورد غطاهما؟
- برحمة عمي اتركني أكمل.
- أكمل.
- وتركت القهوة وركضت إلى دار التوليد. أليس هذا ماجري؟
- - بلى.
- قامت أمني، التي كانت ولادتها طبيعية مئة بالمئة ، ما أن رأتك تدخل عليها الغرفة حتى تظاهرت بالإغماء، وراحت تئن وتغن.
- الأب تغلبه الابتسامة.
- حصل.
- قامت حتى ستي، أمها، قالت لها في شبه ملامة وشبه رضى: ((أي تضربي، الآن ما كان فيك شي!)) والتفتت إليك وهي تقول على طريققتها في الردح: ((هذا دلال يامو)).
- اخنفت وانتهى أمري. لو أنك تحفظ درس التاريخ وكتاب الفيزياء ومسائل الجبر بمثل هذه الدقة أما كان خيراً لي وأبقى؟
- ولكنه كان يدركه تحنن يجاهد كي يكبحه، لأن تلك التي كانت ((هذا دلال يامو)). تخلت عنه، وظل مدة طويلة لا يعرف له أمّاً غير هذه التي ربه مذهبو شحيم ولحيم ولا ترى الدنيا إلا سخاماً لولاه.
- واستمرت مطرقةً الولد:

- أما قلت لي يا بابا أيضاً أن سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول: لاتقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم ولدوا لزمان غير زمانكم؟
- مازلنا في المقدمات... الحقني بالنتائج يدي في زنارك.
- النتائج أنكم لم تعتادوا أنتم أن يقام لكم احتفالات بأعياد ميلادكم وأما جيلنا نحن ، الذي لم تحترق أوراق نفوسه في أية ثورة، فقد اعتاد.
- كله؟!
- كله. ألم يدعني حسام إلى عيد ميلاده الشهر الماضي؟
- حسام يستحق. حسام ينهض كل صباح قبل الساعة الخامسة ويطبُّ نفسه، يهاالك يمالك، على الكتاب. وأما أنت فتنام حتى الظهر.
- لأنني أسهر حتى طلوع الضوء.
- في التدخين، وكتابة موضوعات سخيفة عن الحب والليل، واللقاء والفرق، واليأس والأمل، وما لست أدري من ترهات.
- بابا، انا أكتب ترهات؟
- طبعي، مادمت تخربط حتى الآن بين الفاعل والمفعول به، وتعرب ((يسقي)) على أنه فعل مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم وعلامة رفعه اشتغال المحل بالحركة المناسبة للياء.. مع أنني قلت ألف مرة إن اشتغال المحل لا يكون إلا في الاسم الذي تتصل به ياء المتكلم مثل كتابي. وأما ياء ((يسقي)) فأصلية، لأنه فعل معتل الآخر بالياء.
- بابا، والله بطلت.
- وأنت في الجغرافيا ضعيف.
- أنا بابا؟
- طبعي: قل لي أين تقع الأرجنتين هذه التي ستقام فيها بطولة كأس العالم لكرة القدم وتشارك فيها دولة عربية واحدة هي تونس.
- بابا، هذه ما أخذناها بعد.

- طيب، هل في السعودية أنهار.
- فيها.
- لا يوجد فيها أنهار من أجل خاطرك بل واحات ومسيلات وينابيع. طيب، محمد علي متى ذبح المماليك في قلعة صلاح الدين في القاهرة؟
- ؟
- العام 1811 يافهم، ولم ينج من نحو: أربعمئة مملوك إلا واحد هرب على صهوة حصانه وسمي لذلك ((المملوك الشارد)).. ولما تزوج الملك فاروق من فريدة، وجد ((مؤرخون)) جرائديون أن فريدة من أحفاد المملوك الشارد، على طريقة روميو وجولييت
- بابا، بابا، ما علاقة هذا كله بعيد ميلادي؟
- العلاقة ذاتها بين جهلك ما ينفعك علمه في الفحص، وتبحرك في دنيس دوسس ودليلا ويوب آرت.
- دليدا ويوب عزام، بابا.
- هه، أرايت؟ هذا أهم من الأنهار في السعودية، أليس كذلك.
- والله يا بابا سادرس. وسأنجح في الشهادة الإعدادية، وسترى.
- إذن هات الشهادة الإعدادية وخذ عيد ميلاد يشتبهه ابن ملك على عرشه.
- ولكن عيد ميلادي يصادف قبل ظهور نتائج الفحص.
- تؤجل العيد.
- أسمعت في عمرك عيداً يؤجل؟
- وبقيت المشكلة معلقة. استطاع الأب أن يصمد حتى النهاية أمام الولد الملحاح الذي لا يكل من المماحكة، بل يحبها مهما تكن فارغة ويؤثرها على جد الأمور وعزمها.

طوال المدة الفاصلة بين هذا الحوار وفحص الشهادة الإعدادية، كان الولد يحاول أن يُضفي على تحركاته جميع مظاهر الطالب المجتهد، الذي يقبض الدراسة جدياً، ويتحرّق شوقاً، مثل المهر الأصيل، إلى خوض المعمان ومنازلة الأقران. ولكن تضيّعه في النوم، وإدمانه على التلفزيون ولصوقه به منذ النشيد السوري إلى النشيد السوري وأعقاب السيكرات على الشرفة، اهتمامه الأبدي بالنافل، هوسه بالمناكدة والنقار مع أمه، تدلّعه وعدم مسؤوليته، إهماله وتبديله القمصان كل يوم عدة مرات من غير أن يجشّم نفسه عناء الاستحمام... كل أولئك أسلم الأب إلى إحدى الراحيتين: لا نصائح مادامت غير مجدية، لا اهتمام، لا غضب، لا عصبية... الكلب الذي تريد أن تسوقه إلى الصيد سوقاً بئس منه وبئس من صيده. المثل العامي على هذا. إن عبد السلام، زميل الأب في العمل، له ولد في الرابعة عشرة من عمره نجح إلى الصف التاسع. قارئ مذل، لا تكفيه مكتبة البيت، ولكنه يروح يستأجر كتباً، بالخرجية التي يعطيه إياها أبوه، من المكتبات التي تؤجره، يلتهمها. وكلما تقدم إلى فحص كان الأول. وليس أبوه متبحراً في النحو أو العلوم. وأمه ليست فاضية له لأن لديها تسعة أولاد غيره. وأما هذا المدلل، الوحيد، ففي عمره لم يقرأ كتاباً من الدقة. هو الآن في السادسة عشرة وما يزال يقرأ ((أسامة)) قل ((أسامة)) عظيمة ولكنه يقرأ ميكى، وتان تان، للنكاية...

العام الماضي ظن الأب أن هوى ابنه إلى الصناعة فوضعه عند خراط إفرنجي. اشترى له آفارولّين اثنين. ظلت الأم تغسل كلّ يوم، لأن الولد كان يأتي وكأنك غمسته في برمّل قطران. من اليوم الأول أعلن على الملأ أنه خطأ خطوات شاسعة في الصناعة، وأن على الأب أن يتدبر - حتى ولو استدان - حركة عشرين، ثلاثين ألف ليرة لشراء مخرطة بلغارية. إنه -أي الأب- إن فعل أصاب عصفورين بحجر واحد: أولاً، لأن الخراطين يربحون بالمئات يومياً ولا يعطون للأجراء غير العظام المعروفة. ثانياً، يستطيع من يملك مخرطة أن يظفر باستقلاله، ولهذا ماله من الأثر في شخصيته (دخلنا في علم النفس!).

اعترض الأب: ((والمحل ؟ المحلات هذه الأيام أندر من الكبريت الأحمر، فإذا وجدت، وجب عليك أن تدفع مئات الألوف في شقفة كان قربة قد قن الدجاج)) .
لم يثن هذا الاعتراض الولد عن مشاريعه. كانت له دفع كثيرة ليس أقلها أن يبيع البيت ونسكن بيتاً بالأجرة لأنه حرام أن تُجمد حق البيت ولا نستفيد منه فنجعله رأس مال سائل يدر علينا أضعافه شهرياً لا سنوياً !

بلا طول سيرة، لم يدم ((التدريب)) أكثر من أسبوع.

قال المعلم للأب:

- خذ ابنك من عندي بريحة طيبة أحسن لي ولك..
 - ليش حضرة الأخ؟
 - إذا استمر ((تدريبه)) أسبوعين آخرين خرجت لا من المحل وحسب، ولكن من ديني، والعياذ بالله، أيضاً!
- وقال الأب في نفسه:

((أنت نفسك كذلك لما كنت في عمره. لم تكن لامعاً في شي إلا في النحو، وليس كل اللعان، إذا أردت الإنصاف، وهذا لم يكن لك فيه يد، لأن مجلس أبيك - وقد كان مفتي البلد - مجلس نحو وفقه وأدب بجماعة. كنت، طوال سني يفاعتك وفتوتك، كالمصاب بمرض السير في النوم أصلاً، وأنت طفل ((كنت تسير في نومك حقاً)). وشهيرة هي تلك الليلة لما قمت من فرشتك (لم يكن للأولاد تلك الأيام تخوت) واجتزت جداراً تخاف حتى القطط أن تسير عليه، إلى سطح القاعة الشرقية، وقطعت سفحها، ونزلت من الدرج إلى صحن الدار فالقبو - بيت المونة - حيث وجدت صباحاً مستغرقاً في النوم بين أكياس الرز والبصل وتحت قلايدات الفليفة الحارة الحمراء والبامية واللوبياء والباذنجان المبيسة. منذ ذلك اليوم، صاروا يقفلون عليك باب غرفة نومك بالمفتاح.

نحن الآن في مساء السادس عشر من حزيران.

الولد قدّم فحص الكفاءة، ولكن النتيجة لما تظهر. إذن ما من احتفال كما قرر الأب متحرّقاً لقتال ومتحيزاً إلى فئة ! الأم كان لديها شواغل كثيرة، ومع ذلك طبخت قالب غاتو واحداً.

تعمد الأب أن يعود إلى البيت متأخراً مساء.

سأل الأم عن الولد قالت :

- في غرفة الضيوف.

- وحده؟

- لا، معه أحمد وبسام.

- في بنات؟

- لا.

خلع ثيابه. أخذ كتاباً. تمدد على القاطع في الصوفه، تحت رأسه وسادتان. لا موسيقى. لاضجة تنبعث من غرفة الضيوف. أحس أن شيئاً كالكماشة يلز قلبه.

كان الولد يخرج من غرفة الضيوف ويغلق الباب خلفه ثم يعود فيدخل ويغلق خلفه.

عاد لا يفهم ما يقرأ. ازداد ضيقه وكأبته.

في إحدى المرات دنا الولد من أبيه:

- بابا.

أجاب متصنعاً الجفاف:

- نعم؟

- أحمد وحسام يريدان أن يرياك.

- أخاف أن أحجز حريتكما.

- على العكس. هما يحبانك كثيراً، ويقرآن كل ما تكتب. إنهما معجبان بك.

- أي طيب، أنا آت. ولكن اسمح لي أن أستبدل بالجلابية قميصاً وبنطالاً.

وقال في نفسه: ((إنه لن ينجح، وماذا في هذا؟ هل تسقط السماء على الأرض؟ أنت، حضرتك، كم كان عمرك لما ظفرت بالشهادة الإعدادية؟
قال الآخر: ((أيا منا كان في الابتدائي رفاق متزوجون وعندهم أولاد، ولا تنس الماريا و...)).

قال الولد:

- مافيه لزوم بابا، تعال مثلما أنت.

كانت المائدة منضدة الوسط، وكل ما عليها صحن فيه قالب الغاتو اليتيم. وقزازه بييرة الشرق غير مفتوحة. لا شموع، لا بالونات، لا شرائط، ولا موسيقى إلا نغمة واطنة، تشبه أن تكون راقصة، تتبعث من المسجلة.

حاصر الأب ضيق خانق وجثمت على صدره كآبة ثقيلة، حتى في السنوات السابقة كانت تستخدم المائدة الرئيسية التي في الصوفة، ويطبخ قالب غاتو أو ثلاثة، ويشترى معمولاً وبرازق ويدعى أولاد العمة والعم وبعض اللدات من الجيران. وكان هو، الأب، يشتري قنينة ويسكي احتفالاً بالمناسبة. أنت تعلم: ابنه الوحيد، ومع ذلك كان ابنه يزقزق ويلعب بنجاح دور المحتفى به ورب البيت الداعي، فهو مثل المكوك بين المطبخ وغرفة الضيوف، لماذا؟ لجلب صحن سيكارة أو بقايا خيار من البراد! وتكلم الأب لكي يقول شيئاً. قال موجهاً الخطاب إلى أحمد، ضخم على صغرسنه، شديد السمرة طويل:

- أهلاً، ألسنت أنت أحمد؟

- بلى عم.

- أنت تأتينا قليلاً، وأما حسام فقد درس كثيراً مع ابني محمد، كيف أنت يا حسام؟

حسام، على عكس أحمد، نحيف، خجول صموت. أيام الدراسة كان يوقظ محمداً كل صباح نحو الخامسة صباحاً، فلا يستيقظ هذا إلا بالعسر وقد لا يستيقظ،

حتى إنَّ الأب قال في نفسه: ((مالي حظ، حسام وأحمد سينجحان في الشهادة وأما محمد فسيرسب قولاً واحداً)):

قال حسام ما يشبه أن يكون:

- شكراً لكم.

صمت، كسره أحمد:

- عم، ما رأيك في نجيب محفوظ؟

الرجل لم يكن يحب مثل هذه الأسئلة، أن يتحدث عن كاتب مثل نجيب

محفوظ، عن كون. ما عساك أن تقول عن همنغوي أو عن تشيخوف؟ ما عسى

أن تقول عن ورق الورد؟

قال في إثارة خفيفة من التهكم:

- مليح.

- ولكنه لا يسير في الخط الاشتراكي.

- ماهو الخط الاشتراكي في الأدب برأيك؟

- لم يهتم لقضية فلسطين مثلاً.

هذا قول بديع، شكبير ذاته لا اعتبره شكبيراً لو لم يكتب ((تاجر البندقية)).

لا يغتفر بعدما حصل خلال الثلاثين السنة الماضية، أن يقف أحد على الحياد.

الحياد في هذه القضية يعني الانحياز إلى صف الأعداء، إلى المجازر وطرده الناس

من ديارهم أو هدمها على رؤوسهم.

ما عساه أن يقول؟ صمت ملياً، عاد يتأمل ((المائدة)) في حزن، وطاف بعينه

على المدعويين الاثنين ثم على صاحب الدعوة. كل شيء حزين، كل شيء يغرق في

كآبة لا قرار لها. قال أخيراً:

- قل لي يا أحمد، من أين أنت في فلسطين؟

- أنا من طبريا عم.

- حدثني عنها قليلاً.

- طبريا أجمل مدينة في العالم، تنخفض عن سطح البحر 216 متراً دافئة معظم أيام السنة. مياه الحمة قريبة منها. بحيرتها هادئة دائماً، ولذلك كان الإنكليز يعتبرونها مشتى. أول طائرة برمائية في العالم هبطت فيها: الناظر إليها من الجولان يراها عند قدمي جبل ضخم. المنطقة مشهورة بأنها أجمل منطقة جبلية في الدنيا. أهاليها يصيدون السمك. على طول الشط تنتشر المقاهي. على مياه البحيرة مشى المسيح وأطعم السماكين. عند المساء يجتمع كل أهل البلد على الكورنيش ويسمونهم ((الليدو)) في البلد حصن قديم، مثل قلعة المضيق هنا في سورية، بيتنا فيه. سنة 48 قرر اليهود نسف الحصن، لأنه يسيطر على منطقة مهمة عسكرياً، وأرسلوا رجالهم لوضع متفجرات ناسفة تحت البرج الأكبر، لأن القناصية من مجاهدين العرب كانوا فيه، قامت امرأة يهودية عربية تسلّلت إلى الحصن وأخبرتنا بنية الصهاينة، قمنا أخليناه من الأطفال والنساء والشيوخ. هناك أيضاً حمام اسمه النبي يعقوب، من يستحم فيه لا تؤذيه الحيات أو العقارب. كان همُّ اليهود أخذ بلدنا لأن فيه جالية لا بأس بعددها منهم، ولما بدأت الحرب شنوا علينا هجمات نفسية، أشاعوا أن كل امرأة تخرج من طبريا ومعها إسورة ذهب أو طوق ذهب سيقطعون يديها أو رقبتها ويأخذون الذهب.

((كل الناس عندنا يسبحون حتى البنات. أهل البلد يحبون البسط والسمك والجمال)).

حسام الخجول، كان يصغي وعيناه تلتمعان. سأله الأب خفياً:

- وأنت يا حسام. من أين؟

فجأة، فارقه خجله، واندفع يقول في حرارة:

- أنا من الطيرة، أجمل بلد في فلسطين.

- أين تقع؟

- على بعد سبع كيلو مترات جنوب مدينة حيفا، عدد سكانها ثلاثة عشر ألفاً.

سكانها جميعهم عرب. موقعها على سفح جبل الكرمل. تبعد عن شاطئ البحر ستة

كيلو مترات، مما جعلها تتحلى بمزيتي المدينة الساحلية والمدينة الداخلية في أن معاً. اشتهرت بالزيتون، وهي ثالث مدينة في فلسطين بثرواتها ولا سيما الزيتون، لأن كرومه تمتد مباشرة غرب البلدة بعرض ثلاث كيلو مترات وأطول من عشرة إلى خمسة عشر كيلو متراً من حيفا إلى عثليت.

((غالبية سكانها مزارعون، وهي مدينة قديمة جداً، وما تزال فيها بعض الأديرة وبوابة قديمة اسمها ((بوابة الدير)). أيام الانتداب البريطاني اكتسبنا خبرة في الصناعات الميكانيكية والتجارة. في الطيرة ثلاث معاصر زيت أوتوماتيكية، ماعدا المعاصر القديمة اليدوية. مناخ بلدنا أجمل مناخ، وأرضها تصلح لزراعة كل شيء. وفيها أشجار جميلة. غير المثمرة بأنواعها كالبطم والخروب، وفيها العنب والتين. الخروب يثمر ثمراً يشبه البزاليا يصنع منه مربى طيب جداً)).

- هل بقي عرب فيها بعد الاحتلال الصهيوني؟

- ولا واحد. بعد سقوط اللد والرملة بثلاثة أيام بدأ هجوم الصهاينة على الطيرة. ومنذ سقوط حيفا تقرر مصير الطيرة، لأنها فقدت سوقها الطبيعية، وقدرتها على الدفاع. ذلك بأن اليهود كانوا يحاصرونها من الكرمل الذي ملكهم إياه الإنكليز على اعتباره ((أملاك دولة)).

- التعليم؟

- ابتدائي في البداية، وثانوي فيما بعد، كان فيها مدرسة اسمها ((مدرسة سنبل)). خاصة، تدريس الإنكليز فيها قوي. المدارس تبنى على حساب البلد. والأرض تمنحها البلدية، وكل شيء حتى رواتب المعلمين. ومن ينجح فائزاً بالدرجة الأولى، في الصف الأخير، يرسل إلى حيفا مجاناً. في حيفا لا يوجد مدارس حكومية، والتدريس حتى الثاني الثانوي، ومن بعد يجب الانتقال إلى القدس. والدراسة الثانوية تكلف جنيهاً في اليوم، يعني أن الفقراء محرومون من الدراسة، هذه كانت خطة المحتل البريطاني.

لما احتلها اليهود أحرقوا ستة وعشرين عاجزاً ومريضاً في البيادر.

البلدة كلها لا تتجاوز أسرها الثلاثين، أسرتنا نحن، يعود تاريخها إلى
الظاهر عمر وما يزال في المنطقة تل يحمل اسم أسرتنا.
فيها أيضاً كهوف حجرية قديمة، وبناء في قلب البلدة قديم جداً. وحجارته
ضخمة، يظهر عليها القدم واسمه المنزول.
((اشتهر فيها موضع يسمى كم الحديد ((أي كمب)) كان يحوي ثلاثة عشر
معسكراً ومستودعات لجميع قوات الشرق الأوسط البريطانية فلما كان العام 1948
انتزعت ملكيته وسلم كله لليهود)).
ساد وجوم. لم يمدّ أحد يده إلى قالب الغاتو أو قزازة البيرة فيفتحها. تهامس
الأولاد ثمانية خاطفة ففقت ضحكة خجول مظلمة كأنها شهقة انتحاب.
نهض الأب وانصرف، وهو يغتصب ابتسامة تشبه أن تكون تكشيرة وتحية
وداع!

ملحمة السراش

(بيت ياسين. ياسين وابنته رباب)

ياسين : (يعزف ويدندن)

يا أسمر السمر .. آه..

رباب : (تردّد وكأنها تشجعه) آه..

ياسين : يا أسمر السمر ياما عيروني فيك.

رباب : فيك ..

ياسين : وكلّ ما عيروني فيك زدت رغبة فيك.

رباب : فيك..

ياسين : إنت الورد بالسّحر وأنا النّدى بسقيك.

رباب : بسقيك..

ياسين : إنت الثريا وأنا الميزان برعى فيك.

رباب : (تصفّق) طيّب الله هذا الصوت.

ياسين : ما أحلى وجودك قربي ! لولاك لما استطعت البقاء يوماً واحداً في هذا

البيت.

رباب : وولداك!

ياسين : إنّي أحبّهما، ويتقطّع قلبي حين أتخيّل أنّهما يكدحان في المدينة، كي

يؤمنّا مصاريف الدراسة والحياة. ولكن أشعر أنّ أحداً في هذا البيت، لا

يفهمني، أو يتعاطف معي سواك..

رياب : لا يا أبي.. الجميع يحبونك، ويحفظون لك حقك من الاحترام.
ياسين : أعرف كم تتمنين إصلاح الأمور، وأن تسود المحبة هذا البيت. لكن ماذا أقول لك! هناك فساد قديم لا يمكن إصلاحه يارباب.

رياب : أهى علاقتك بأبي؟
ياسين : دعيك من هذا. هناك أمور لاتقال. ولا تظني أنني لا أدرك جانبي من المسؤولية، وأدرك أيضاً أن لهم الحق في لومي. ماذا أفعل! لم يورثني أبي إلا كرم التين المليء بالصخور، ولم يعلمني إلا ارتجال المواويل والغناء على الرّيابة. في الأيام الخوالي كانت العائلات تتخاطفني، وكانت القرى تتسابق لدعوتي، وبلغ صيتي قرى نائية لا تخطر على البال، في تلك الأيام كانت الفلوس تجري في يدي، وكنت أنفق على البيت دون حساب. عمري ما احترمت الفلوس. وما تعلمت كيف أخبىء قرشي الأبيض ليومي الأسود. ثم بدأ الزمن يغدر بالشاعر، ويأتي محملاً بهذه الآلات العجيبة. جاء الراديو ثم آلات التسجيل، ثم التلفزيون.. و يوماً بعد يوم كان يتوارى ذكر الشاعر، وينساه الناس. قلت الدعوات، ثم ندرت، ثم لم يعد الشاعر يسافر إلا لأنه يحب السفر ويغذي أشعاره بالترحال. نعم.. عندما كبرتم، وازدادت حاجاتكم تضاعل عطاء الأكارم، وشح المال في يدي.

رياب : (عيناها دامعتان) لا تلم نفسك يا أبي.
ياسين : هل تبكين يارباب؟ كل ما عانيته لا يساوي دمة واحدة من عينيك. ولديّ خبر مفرح لم أقله لك بعد .. بدأ الحظ ينقلب، ويفتح أمامي الأبواب. هذا سرّ بيننا. إن عبود الغاوي مسحور بموايلي وغنائي. ألم تلاحظي! حين يسهر في القرية، لا يستطيع أن يستغني عن وجودي. بل وطلب مني أن أجهز نفسي، كي أذهب معه إلى العاصمة. يريد أن يسجل كل موايلي على أشرطة وأسطوانات. قال لي: إن الجالية في المهجر متعطشة لهذا

اللون من الفن الشعبي، وإنهم سيتخاطفون الأشرطة والأسطوانات،
وسيكون لي دخلٌ وفيرٌ ومستمرٌ.

رياب : هل أنت مطمئنٌ يا أبي؟

ياسين : في البداية، لم أكن أطيق ذكره. وحين فاتحتني أمك، طار الصواب من رأسي.. أنت تعرفين ما جرى بعد ذلك .. والاعتراف بالحق يا ابنتي فضيلة. تبين أن الرجل حريص على أهل قريته وأنه ما جاء إلا لكي يساعدهم، ويوفر لهم البحبوحة والازدهار. خذي حالتي مثلاً .. كان يمكن أن أموت، وأن يموت معي كل ما جاءت به قريحتي. لكن الرجل بدا مرهفاً وكرماً. قدر فني، وأخذ بيدي. أنا لم أطلب شيئاً.. بل هو الذي اقترح أن يسجل مواويلي كي يحفظ ذكرى، ويساعدني على رزقي. لا.. إن الرجل شهم، وإني مطمئنٌ إلى شهامته.

رياب : هناك من يتوجس من مجيئه، والمشروع الذي بينيه. وفي الضيعة تدور أقاويل وتخمينات كثيرة.

ياسين : هذا مايرع به أهل ضيعتنا .. النمام والقل والقال. بعض الناس لا يرحمون، ولا يتركون رحمة الله تصيبهم. اطمئني يا ابنتي، من كثرة ما صاحبت وعاشت، صار أبوك يعرف كيف يزن الرجال، ويميز سجايهم. (يضع الزبابه في كيس مخملي ويتأهب للخروج). سأذهب الآن. (يتوقف ويلتفت) أين أمك؟

رياب : ذهبت كي تقطف كرم اللين.

ياسين : (وهو يخرج) قل لي لها إنني سهران عند الغاوي.

(يخرج)

رياب : إذا لم يكن ابن الغاوي جاداً، فستقضي الخيبة عليه. يارب .. لا تخيب مسعاه، ولا تحبط أمله. (يتغير وجهها) وماذا لو كان ما يفعله ابن الغاوي خطّة لاصطيادي! أيمن أن تمرّ على أبي هذه الألاعيب! أف.. منذ

جاء لم نعد نعرف الهدوء والسكينة.

(يدخل بسّام الرّاضي، فيرى رباب تخفي وجهها بيديها).

بسّام : رأيت أباك يخرج، فانتهزت الفرصة.

رباب : ستأتي أمي عما قليل.

بسّام : أتطلبين أن أخرج؟

رباب : لا.. لم أعن ذلك .. تفضّل واجلس.

بسّام : جئت لأقول لك.. سأفتح أهلك بالموضوع غداً أو بعد غد.

رباب : أفضل أن تؤجل ذلك..

بسّام : أخبرت أبي، وسيأتي معي، فلماذا التأجيل؟

رباب : لا أدري.. لست مستعدة الآن.

بسّام : وماذا يمنعك؟ منذ فترة كنت راضية، أو هذا ما بدا لي.

رباب : أجل.. أحببت كلامك عن المساواة بين الرجل والمرأة. والعمل المشترك

ضدّ الأفكار البالية، والتقاليد المتخلفة. أعجبتني نقّشك وحديثك عن عشّ

زوجي مفروش بالبسط البدويّ والطرايح، وموقدة الحطب، ولكن ..

لأدري.. بعد فترة، اكتشفت أنّ هذا وحده لا يكفي.

بسّام : ولماذا لا يكفي! قللي بصراحة، أتحبّيني أم لا؟

رباب : آه.. الحب! مازلت صغيرة يا بسّام، ومشاعري تموج متغيّرة كتقلّبات

الريّح. إنّ لديّ أحلاماً كثيرة، وأحياناً أحسّ أنّ الدنيا أضيق من أن تتسع

لطموحي وإمكانياتي.

بسّام : هذه بداية الداء. البريق يجذب، والثروة تغوي. ولعلّك تنتظرين زيارة ابن

الغاوي وأخته.

رباب : أهذا رأيك فيّ؟

بسّام : آسف. أردّد الشائعات، لأنّ ما تقولينه يبدو كالمراوغة أو الهروب.

رباب : (بعنف) لست الفتاة التي تقبل أن تباع، وليس هناك ما أهرب منه، ما

قلته لك هو الصدق. أحس أن مشاعري تموج، وتتغير، وأحلامي
الغامضة والمثقلة بالوعود، ليس للزواج مكان فيها.

بسّام : (بلهجة واخزة) وبماذا تحلم الآنسة يا رباب؟

رباب : (تغمض عينيها، وفي لهجتها شيطنة) آه.. مثلاً أحلم أن أسافر وأبي.
لأنحمل شيئاً إلا ربابته وأغانيه. نتوه في الدروب متقلّين من بلدٍ إلى بلدٍ،
وأينما حللنا ننشر حولنا فرحاً وموالاً .. آه.. من الصعب أن تفهم ما أحلم
به. (تتنصت بانتباه) أعتقد أن أمي جاءت. أرجوك أن تخرج ولا تخرجني
معه.

بسّام : سأخرج.. ولكن أرجوك أن تفكري جيداً، ولا تدعي النزوات تضيع فرصة
عمرنا.

رباب : (وهي تدفعه) طيب سأفكر.. أعدك أن أفكر.
(يخرج.. وتتلاشى الإضاءة).



مشهد 4

(مصطبة أمام بيت المختار يغطيها حصير من القش، وبضعة مساند، المختار ، ضرغام، أبو راغب).

- ضرغام : ما النصيحة يا مختار؟
- المختار : (حاذ الصوت) كم مرة يجب أن أقول، وأعيد، هذا موضوع أتمنى أن يقدره كل واحد بنفسه، أو مع قرابته.
- ضرغام : وزنتها كثيراً ولم أصل إلى قرار. هذا الرجل قلب حياتنا عاليها سافلها. أحس بالاختناق إن وافقت، وأحس بالاختناق إن رفضت.
- أبو راغب : والله هذه حالنا جميعاً. وفوق ذلك يأتينا إلحاح الولد. فجأة تدير المصاري رأسه، فيبدو كالسكران، يريد أن يبني، وأن يتزوج، وأن يعرف الدنيا ولذتها.
- ضرغام : ولك ياعمي، الولد، والمرأة والبنت.. ولك أنا نفسي. ألا يحق لنا أن نرتاح من ثقل الديون، وأن نعرف بحبوبة العيش، ولو فترة قصيرة من العمر؟
- أبو راغب : وهناك من يقول.. من باع أرضه هان عليه عرضه. وتعال دبرها، ما عاد المرء يعرف من يسمع، ومن يطيع.
- المختار : يا جماعة الخير.. المسألة لا تحتاج إلى هذه الحيرة كلها. إذا كان المرء محتاجاً، ولا يحل ضائقته إلاً مبلغ كبير، فعليه ألا يتردد. والحقيقة أن الرجل يفت مبالغ تفوق الأرض قيمة، ولا تترك في النفس باباً للندم.
- ضرغام : ما تتفضل به يا مختار على الرأس والعين.. حين أتصور أنني

بلا أرض أشعر ((حاشا الحضرة)) كأنني أمشي بين الناس بلا لباس، أو أنني تركت الضيعة وصرت غريباً لا مقام لي إلا مع وحوش البرية.

أبو راغب : حلفتك بالله يامختار.. هل ستبيع جزءاً من أراضيك أم لا؟
المختار : (متضايقاً) ما كان يجب أن تحلفني. قلت وأعدت.. لا أريد أن أؤثر على أحد في قراره.

ضرغام : أنت مختارنا وتعرف الأمور خيراً منا
(ينضم الشيخ عباس إليهم ويتبادلون التحية).

المختار : شرفت ياشيخ، تفضل.
الشيخ عباس : لا.. لدينا شغل. جئت كي أصطحبك معي في مشوار ضروري.
ضرغام : من حقنا على المختار، أن يرشدنا إلى الصواب قبل أن يمضي.
الشيخ عباس : وما هي المسألة؟

أبو راغب : سأله إن كان سيبيع جزءاً من أراضيه!
الشيخ عباس : وأنا أقول لكم المختار سيبيع.
المختار : لا ياشيخ.. في هذا الموضوع، دع كل واحد يخرج مؤاله من رأسه.

الشيخ عباس : لن نخفي عنهم شيئاً، والنصيحة واجبة. المختار سيبيع، وأنا سأبيع، ومجنون من لا يبيع.

ضرغام : الأرض غالية ياشيخ.
الشيخ عباس : وابن الغاوي يبذل ترابكم تبراً.. أي ذهباً. الأرض غالية، لكنها ليست أعلى من الثروات التي يبادلكم بها.

أبو راغب : أما كان أجدادنا يقولون من باع أرضه هان عليه عرضه؟
الشيخ عباس : إذا دخلتم في الأمثال والسوالف ضعتم. ولو عرضت على أجدادنا هذه الأسعار المجزية، لما ورثتم أرضاً ولا أمثالاً. اهتدوا

بالله، وبيعوا الفقر والتّعتير . يا الله يا مختار ..

المختار : (وهو ينهض) أنا لم أقل شيئاً .

الشيخ عباس : ضعوها في رقبتني، ووزرّها عليّ .

ضرغام : اللهم اهدنا إلى ما فيه الخير .

أبو راغب : آمين ..

(يخرج الجميع .. وتتلأشى الأضواء).





مجد القلم¹ إلى الأدباء الناشئين

تأتيني من حين إلى حين رسائل من أدباء ناشئين يطلبون إلي فيها أن أرشدهم إلى السبل الكفيلة بأن تجعل منهم كتاباً وشعراء ذوي مكانة في دولة الأدب. وباليته كان في مستوصفي أو مستوصف سواي ((روشته)) إذا استعملها الراغب في الأدب أصبح أديباً. إذن لكنا ((نصنع)) الأدباء بمثل السهولة التي بها نصنع الزبيب من العنب والخبز من القمح. إلا أن الأدباء يُخْلَقُونَ ولا يُصْنَعُونَ. والفرق بين الأديب المخلوق والأديب المصنوع كالفرق بين العَيْن الطبيعية والعين من الزجاج.

من كان مُعدّاً للأدب كان في غنى عمن يدلّه على طريقه. ففي داخله ومن خارجه حوافر لا تتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقَلْبِه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس. وهو عن وعي وعن غير وعي، لا ينفك يلتهم التهاماً كل ما يتصل به من آثار أدبية. ثم لا ينفك يُسَوِّد الأوراق بما يتولد في نفسه من أحاسيس وأفكار وانطباعات. إن أغمض عينيه في الليل فعلى كاتب أو مقال. وإن فتحهما في الصباح فعلى شاعر أو قصيدة. فكان كل مافيه وكل ما حواليه يدفع به دائماً أبداً إلى تحقيق حلمه بأن يدرك اليوم الذي فيه ينطبع اسمه على شفاة كثيرة وتغدو مؤلفاته نُجُعة لجيش من القراء والأقلام.

لكلّ ذي مهنة أو حرفة عُدّة. وعُدّة الأديب لغةً وفكرٌ وخيالٌ وذوقٌ ووُجْدان وإرادة. وهذه كلها قابلة للتنمية وللصقل. وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هواستها

¹ - كتاب (في مهب الريح) لميخائيل نعيمة.

المستمر بما سبقها وما عاصرها من نوعها ثم توجيهها التوجيه المستقل في الطريق الذي تفرضه على الكاتب حياته الباطنية والخارجية.

لذلك كان لا بد من المطالعة، ومن فكر سريع الالتقاط، وخيال مُسَبِّل الجناح، وذوق مُرْفَعَ الحَدِّين، ووجدان صادق الميزان، وإرادة صُلْبَة العود، وكان لا بُدَّ لكم، فوق ذلك كله، من مَعْدَة أدبية تهضم ما تلتقطونه هُنا وَهُنَاكَ. فتحوّله غِذاء طَيِّباً لَكُمْ وللذين يقرؤون ما تكتبون وإلا كنتم كالإسفنجة إذا غمستموها في وسائل من الوسائل التي عصرتموها ردت إليكم ما امتصته عيناً بعين ودون زيادة أو نقصان. وكنت إذ ذاك أصداء فارغة لا أصواتاً حية.

وإن تسألوني ماذا يحسن بكم أن تطالعوا أجبكم: إن ذلك يتوقف إلى حد بعيد على ميولكم وأذواقكم وعلى مقدار جُوعكم إلى المعرفة التي بدونها لا قيام لأي أدب. فقد يكفي الواحد منكم بمطالعة بعض الآثار الأدبية المشهورة. وقد يتعدها الآخر إلى النجوم والحيوان والنبات وطبقات الأرض والفنون والأديان والتاريخ والفلسفة بأنواعها، حتى إلى الروايات البوليسية والمقالات التافهة التي تحفل بها حُقُول الصَّحَافَةِ الرخيصة. فالأمر الذي لا شك فيه هو أنكم كلما اتسع اطلاعكم على مجاري الحياة البشرية، قديمها وحديثها، بعيدها وقريبها، جليلها وحقيبرها، اتسع مجالكم للتأمل والتفكير وللعرض والتصوير. فما انسدت في وجوهكم الطرق إلى مواضيع جديدة تعالجونها بأساليب جديدة.

تحاشوا اللَفَّ والدَّوران، فليس أكره من جثة فيل أو حوت تحيا بقلب ضب أو بقلب ضفدع. وتحاشوا النَّوْحَ والبكاء، والتشكّي من الدهر، واستجداء رحمة القارئ وشفقته. فهذه كلها من دلائل الهزيمة. والهزيمة عار وأي عار على الذين سلّحتهم الحياة بالفكر والحس والخيال والإرادة. ومن ثم فالناس يحبُّون السير في ركاب الظافرين ويكرهون ممشاة المنهزمين.

أما العار الأكبر والأفطع فهو تقليدكم الأعمى للغير أو سرقة بضاعة الغير .
فالتقليد هو الشهادة بإفلاس المقلد . وسارق أدب الأحياء والأموات كمن يأكل لحم أخيه
نيئاً، أو كمن ينهش جيفة في قبر .

أما الشهرة فإياكم أن تبتغوها في ذاتها . فما هي غير ظل قامتكم الأدبية . إن
امتدت تلك القامة امتدَّ . وإن تقلصت تقلص . فظلُّ السُّرَّة السامقة غير ظلِّ العليقة
اللاصقة بالتراب . وأما الغرور فاقتلعوا جذوره من صدوركم . فهو أشدَّ فتكاً بكم من
السوس بالخشب .

والغرور هو غير الإيمان بالنفس . ذلك بالوعة وقاذورة . وهذا ميناء ومرساة . وما
لم يكن لكم من إيمانكم بأنفسكم ميناء ومرساة كنتم حيرة في حيرة وكان أدبكم رغبة في
رغبة .

قبل أن تهتموا بما يقوله الناس فيكم اهتموا بما يقوله وجدانكم لوجدانكم . أخلصوا
لأنفسكم ولأدبكم أولاً وإذ ذاك فصُدُّوركم لن تضيق بدم ولن تنتفخ بمذح . فإن كنتم أكبر
من ناقدٍكم فما همُّكم أُمُومكم أم مَحُومكم؟ وإن كنتم في مُستواهم فيجمل بكم أن
تُصَّغُوا إلى ما يقولونه فيكم . وإن كُنْتُمْ دونهم فجدير بكم أن تتعلَّمُوا منهم .

تنافسُوا ولا تتحاسدُوا . وإياكم أن تتشائموا . فعداوة الكار إن هي اغتفرت لإسكاف
أونجار أو غيرهما من صانعي السِّلَع وبائعِيها فهي لا تغتفر للعاملين على السمو
بالإنسان في معارج الفهم والحرية .

مادمتُم واثقين من أنَّ لكم رسالةً تؤدونها فلا تَقْنَطُوا من تَأْدِيَتِها وإن أُغْلِقَتْ في
جُوهكم أبوابُ الصُّحف ودُور النشر . ثابروا على العمل وأنا كفيل بأنكم ستَشْفُونَ
لرسالتكم طريقاً في النهاية . فالناس في جُوع وعطش دائمين إلى القول الحق والقول
الجميل . ولا تنسُوا أنَّ الذين تبصرونهم اليوم في القِمة كانوا بالأمس من الأغوار وفي
السُّفوح .

خذوا مواضيعكم من أنفسكم ومن الناس والأكوان حواليكُم . ولا تَمَسَّحُوا أقلامكم
منها إلا من بعد أن تبدؤا لكم صريحة المعالم مُشرعة الأبواب كي يسهلَ تناولها حتى

على الذين دونكم مقدرة ومهارة في الغوص إلى الأعماق، وليكن أجركم الأول والأعظم تلك البهجة التي يَشيعُها في الروح شعورك بأنكم قد خَلَقْتُم مخلوقاً جديداً وجميلاً، أكان ذلك المخلوق مقالاً أم قصيدة، أقصة، أم رواية، أم كلاماً لا ينساق إلى التَّبويب ولكنه يترك فيكم وفي القارئ نشوةً وعبرة.

الكتابة عمل مُزهق كسائر الأعمال البِئَاءة. إلا أنه عمل لذته لا تفوقها لذة. وهي لذة قلما يتدوَّقها الكسالى وفاترو الهمة. فإن شئتم بلوغ القمم الأدبية حيث ((الخالدون)) فعليكم أن لا تُشركوا في محبتكم للقلم محبة أي سلطان سواه، وأن تتبدؤوا الكثير من ملذات العالم وأمجاده. وأنتم متى أدركتم أي مجدهو مجدُ القلم هانت لديكم من أجله كلُّ أمجاد الأرض، وصننتم أقلامكم عن التملُّق والتسفل والتبذل. فما سخرتموها لمالٍ أو لسلطان، ولا لأية منفعة عابرة مهما يكن نوعها. وما دامت أقلامكم عزيزة فأنتم أعزاء.

القدس

((ها أنذا))

أكتب إليك من القدس.

لم أشأ الكتابة إليك مباشرة قبل أن أمكث فيها ليلة أو ليلتين، تعرف جيداً أنني عبأت روعي لمثل هذه الزيارة، وقرأت عن القدس الكثير، والتهمت معظم تاريخها خلال أشهر، ولم أترك، قدر استطاعتي خبراً، أو حادثة، أو موقفاً، أو علماً، أو مكاناً، إلا وجالسته كي أعرف هذه المدينة أكثر وإن كان من خلال قراءاتي. لم أدع كتاباً من كتب الرحلات المقدسية القديمة والحديثة إلا أتيت عليه كي أعرف سرانية المدينة، ودهشة النفوس، وحيرة العقول، وبهجة الخواطر التي رأت المدينة وعرفتها أو عاشت فيها أياماً أو شهوراً أو سنوات.

تعرف جيداً أنني مفتون بالقدس مكاناً، وتاريخاً، ومعتقداً، ومعنى، لهذا، وقبل أن أهم بزيارتها مغادراً سان بطرسبورغ .. ذهبت إليك، وأنت المؤرخ، والسياسي، ورجل الفكر، وصاحب الرحلات الشهيرة وأستاذي في اللغة العربية.. كي أتزود بوصاياك لزائر مثلي يزور القدس للمرة الأولى.

أذكر أنك قلت لي، ستدهش، وتصاب بسحر المكان ومغناطيسيته حالما تصل إليه، وهذا ما حدث فعلاً، فأني مكان خرافي هذا الذي أراه، فالبيوت هنا أشبه بالدوالي عناقاً وتعريشاً وتأخياً وهمساً وجمالاً، وهي على الرغم من تطاولها. دانية مثل العناقيد، وطرية كالثمار، وذات رائحة تشبه رائحة الحناء والزعفران، عتبات البيوت متشابهة مثل أولاد أسرة واحدة، والشبابيك الوسيعة طولاً وعرضاً مملوءة بندايات الترحيب.. لأول مرة أشعر هنا بأن شبابيك البيوت تشبه المرايا الصقيلة، تشبه وجوه

ساكنيها.. يالطلات النساء المقدسيات من الشبابيك الحانية، ويالنباتات التي تزينها
كبساتين الدروب..

هنا، وفي منفح رحب تتلاقى فيه الدروب.. تلاقيك شجرة خروب مذهلة في
انتاعها، وامتدادها، واصطفاف أوراقها وأغصانها، وزقزقة طيورها، وكثرة قرونها السود
لذيذة المذاق.. لكانها قرون السكر التي حدثتنا عنها الأساطير؛ تلك القرون التي كان
يتهاداها العشاق في الأمسيات الرخية.. أتذكر ما قالته الأسطورة عن بنات القدس،
من أن رضابهن الحلو.. حلّو لأن أمهاتهن أكلن الكثير من قرون الخروب، هنا، وفي
الظلال الطويلة لهذه الشجرة تفتش النساء البلاطات الحجرية وهن يبعن العطور،
والثياب، والحناء، والزعتر، والزعفران، والعنبر، والقرفة، وجوزة الطيب، وأعواد القرنفل،
والبخور، والسمسم، وحبّة البركة، والرمّان، والتين، والكعك، والمكاحل، والأصبغة،
وأعواد الند والصندل، والأساور، والخرز، والخواتيم، والأقراط، والريش، والقهوة، والسكر
الفضي، والقمردين، والجوز، واللوز، والبندق، والزنجبيل.. وإلى جوارهن نساء أخريات
يخبزن أقراص الزعتر، والسبانخ، والحميضة، والهندباء، والكشك، والفليفلة الحمراء،
والجبنة، والقريش.

سألت عنهن فقل لي تنذر المرأة المقدسية نذراً لله، تقول: يارب إن رزقتني
ولداً، أو بنتاً أو فككت أسر زوجي المسجون، أو عدت لي بغائب، أو شفيت لي
مريض، فإنني سأقوم بالخبز يوماً كاملاً أمام بيت المقدس، وأوزعه أنا وأولادي على
المارة هبة وشكراً، لك يارب.. فإن استجاب الله لها، توفي بنذرها.. فتأتي إلى هنا أمام
بيت المقدس مع أولادها وطحينها، وصاجها، وزعترها، وجبنها، وقريشها.. فتخبز طول
النهار، وأولادها يوزعون ماتخبزه على المارين هبة ونذوراً.. وإلى الجوار حاملو قُرب
الماء يوزعون أكواب الماء المبرد مناولَةً، وقرب زوايا البيوت عازفون يسيلون من
آلاتهم الموسيقية أنغاماً أسرة، وبقرهم صناديق خشبية وضعت عليها أجماط الورد..
راح المارون بالشوارع يستلون الورد وردةً وردةً، وثمة عازف ناي ينفخ في نايه فتلفه
الأبصار وهو يمشي رهواً كالخيول.

هنا، لا تدري، وفي أي وقت تتعالى التكبيرات، ودقات النواقيس، كما لا تدري من أي الجهات تأتي الروائح الطيبة، ومن أين يتوافد الناس، وال دراويش، وأصحاب العربات، والسلال، وكيف تجري الأسواق والحارات نحو بعضها بعضاً وتتلاقى مثل السواقي، هنا تسلم روحك للشوارع.. فتماشيك الظلال، والأنسام، وتباريك الوجوه التي تشبه أرغفة الخبز، ويدور بك التلفُّ والانتباه والصحو كي تلفك غواية المكان، وكي تظل على مبعدة كفٍّ من غيبوبة الافتتان.

أصارحك بأنني مدهوش، ومسحور، أجلس، وأمشي، وأنا في خدر مشتهى أتمنى أن يطول، أشعر كأنني أرى ولا أرى، وأحسُّ بأن ضباباً أبيض فضياً أو يكاد يغطي المدينة .. فتستدير الهالات هنا وهناك وتتعالى في مرجحة كأنها مشدودة إلى حبال خفية تحجبها الغيوم.

هنا، لا تدري من بلَّل يديكَ ووجهك بالرزاذ النثيث، ومن منح هذه الوجوه الطالعة من كل الأمكنة نثار الضوء، ومن حباها بالبهجة الحاملة.. ومن أطلق طيور الحمام المتقلّبة من أقفاص الهواء.. مثل الفلاحات لتمنح الدروب، والبيوت، والساحات، والحقول، والأشجار، والمفارق، والشبابيك.. نعمة النشور.

هنا، نشعر بأنك كائن أثيري، تمشي وراء حواسك مندفعاً.. تماماً مثلما تمشي الأنهار في مجاريها هبوطاً نحو مصباتها الدانية..

هنا، لا شيء يفسد المكان، أو الهواء أو الصفاء سوى هذه البغال السمان التي يعتليها الجنود السمان الثقال.. وقد اعتلتهم خوذ الحديد الشاحبة، يهزون أيديهم بهرواتهم الغليظة، وقد أغلقت وجوههم.. لا شيء حولهم، أو قريبهم سوى الكلاب، وسيارات الجيش، وحواجز الحديد ولا شيء يلفهم سوى النظرات الكارهة.. يبدون مثل كتابة بالفحم آيتها السواد.. تمرُّ بلوحة زاهية الألوان. لا شيء يضيق إيقاع الخطأ، والشوارع، والحارات الحانية، والأشجار، ووداعة الطيور.. سوى نخر البغال السمان، ونهر من اعتلوها.

بلى، يبدون، في هذا المشهد الرائق.. مثل نقطة سوداء حائرة.

ملحوظة:

أعذّرني، أظلت عليك، وربما أحزنتك.. فسامحني، أنتظر رسالتك باللهفة
الكاملة.



الرحلة

غزوات الأنريين - أمين الريحاني¹

للمنزل الذي كنت مقيماً فيه صحراً فسيحاً مفروشاً بالبلاط الأبيض، يرحب حتى بالسيارات. وفي ذات يوم، ساعة الفجر، سمعت صوت بوقٍ صخاب، فإذا بسيارتين في ذلك الصحن، وقد كسيهما غبار الصحراء، الواحدة عادية، تظهر في مؤخرها لوحة بلدية دمشقية، والثانية كبيرة فخمة، تحمل لوحة حمراء مطبوعاً عليها اسم مدينة من المدن الكبرى في الولايات المتحدة. فسارع إلى استقبال الركب مدير المنزل الكلداني، يحييهم بالانكليزية، وتبعه الخدم لنقل ما أثقلت به السيارتان.

ثلاثة رجال في معاطف من الجلد، وهم حليقون، بيض البشرة زرق العيون، وسيدتان شقراوان جميلتان، كل واحدة منهما في معطف من الفرو ينذر مثله - وينذر مثلهما - في بغداد. قلت: سياح من أغنياء الأميركيين. وقلت: سفير من السفراء. فكنا قد سمعنا أن السفير الأميركي المعين لطهران سيمر في ذلك الأسبوع ببغداد في طريقه إلى مركزه الجديد.

بادر الخدم إلى السيارتين ينقلون ما حملتاه من حاجات الأسفار ونواقلها. وما أكثرها عدداً وشكلاً - حقائب وصناديق كبيرة وصغيرة، وأكياس من الجلد ومن القماش، وأحزمة ومعاطف وشالات، وعلب لبرانيط النساء والرجال - المسافرين ولا غرو سفير أو ثري.

ثم جاء ما ينبئ بغير ذلك. وما أكثر ما استخرج من داخل السيارتين. كأنما الخدم من السحار وكأنما السيارة قبعة سحر يخرجون لك منها حتى بالة من القطن. وهذه قُرْب من القماش وجزم طويلة من المطاط، ومعاطف من جلد الغنم، وصناديق

¹ - أمين الريحاني من أبرز أدباء المهجر، ومن كتبه (قلب العراق) أخذنا هذا النص.

من الصودا والمياه المعدنية، والآلات الكاتبة، وآلات للتصوير، والمساحة، وصندوق من اللحم المقدد، وعلبة كبيرة فيها علب صغيرة، فيها سحق لقتل البرغش! ليس القادم سفيراً أمريكياً، ولا هؤلاء بسياح أغنياء. انما هم الطليعة لبعثة أثرية اميركية. أجل فقد تغيرت الاشكال بعد الحرب العظمى، كما تغيرت الاخلاق. فصرنا نرى العالم فنظنه سفيراً، والسفير فنظنه تاجراً أو متجولاً، والمتجول السائح فنظنه من أهل الورع والتقشف.

أما ذلك العالم محدودب الظهر، كث اللحية، اللابس ثوباً بالياً قنطارات مصدأة، المتأبط كتابه، الحامل حقيبته بيده، فقد أمسى أثراً من الآثار، وجاء عالم اليوم رجلاً بهي الطلعة، حليقاً نشيطاً، وردى الخد، متقد الباصرة، انيقاً كيساً، تظنه في حركاته سفيراً. وان ما يتقاضاه ثمن علمه وعمله لأكثر مما يتقاضاه السفير، فيغدو وبامكانه أن يصطحب امرأته أو حبيبته أو رفيقته الى مكان عمله. وقد تكون السيدة المرافقة عضواً من البعثة، قد تكون من الغزاة. ذلك لان علم الآثار بعد الحرب، أضحى من العلوم المثمرة - مادياً - فتهاقت عليه من أهل العلم الرجال والنساء. فلا تعجبين إذا كانت تلك الحسناء الملتفة بمعطف من الفرو الغالي، المخبئة سهام لحظها وراء نظارات زرق، الحاملة حقيبة تحتوي على أسباب التبرج كلها - من المكحلة إلى الاصبع القرمزي - لا تعجبين اذا كانت أخصائية في العلوم والآثار الاشورية.

إنها لأهل في كل حال لمشاركة زوجها، مسرات الاسفار، وحفر الآثار. أجل، هي أهل لان تتمتع وياها بملذات الحياة في حفر قبور الاقدمين، وخصوصاً في البلاد الشرقية، الغنية في روحها، وفي ما تحت أرضها.

وإذا كانت القبور لا تستهوي هذه المرأة الغازية، فهناك في موضع التنقيب دار فسيحة جميلة تقيم فيها، وهي السيدة الأمرة الناهية، كأنها ملكة أور، أو أميرة من أميرات آشور.

وبكلمة أخرى هي ربة بيت البعثة، المفروش بأحدث أنواع الأثاث وأفخرها،
المجهز بالأنوار الكهربائية وبالحمامات، الحافل بالكتب والصور والرسوم. قلت بيت
البعثة فأخطأت. إن لكل بعثة من البعثات الكبيرة بيوتاً عديدة، فهذا بيت الإدارة، وذاك
للرسم والتصوير، والثالثة للأعمال الكيماوية والميكانيكية، وهذا مخزن البعثة، وذاك
بيت خدامها، والآخر بيت لسياراتها، فضلاً عن بيوت الحيوانات الداجنة.

والجامعات الأميركية الكبرى تعين هذه البعثات أو تتفق في سبيلها النفقات
الطائلة من أموال يهبها المحسنون، أو من وقفيات يقفها الممولون على العلم والثقافة.
فهل تستحق الأعمال الأثرية - والأثريون والأثريات - كل ما ينفق منها في هذا
السبيل؟ إن لهذا السؤال جوابين، جواباً يتعلق بما يحرز من العلم، والآخر بما يحرز
من نفائس الآثار ونوادرها. وللقارئ. أن يجيب على السؤال من ناحيته، بعد أن يقرأ
بياناً عن الغزوات الأثرية في العراق.

لا أظن أن في العالم بلاداً تعددت فيها البعثات الأثرية تعددها اليوم في العراق.
ولكن العلم بتاريخ البلاد القديم كان يقصر، منذ سنوات، على المملكتين البابلية
والأشورية، وعاصمتيهما بابل ونيوى. أما بعد ذلك، أي منذ سنة 1922، عندما
باشرت البعثة الانكليزية الأميركية التنقيب في أور، فقد فتح كنز من كنوز العلم جديد،
وكنز آخر من الآثار العجيبة، والتحف الثمينة، التي زادت بغنى المتاحف الانكليزية
والاميركية، وكانت الباكورة في تأسيس متحف صغير ببغداد.

إذن لقد عمق علمنا بتاريخ بلاد الرافدين. وما بابل ونيوى في القدم إلى جانب
ما تقدمهما من المدن والدول؟ اني لأتخيل علماء أشور يحدثون في زمانهم، كما
نحدث نحن في زماننا، عن ثقافة الحوريين، وفتوحات العيلاميين، ومجد السومريين
الاقدمين.

وفي وصولنا إلى أعماق أور ونوزي قد لا نكون أدركنا الأوليات. فقد يجوز لنا أن نسأل: وبعد أور ماذا؟ أو من هم أجداد السومريين؟ ومن أين استمد أهل أور نورهم - من أين استقوا معارفهم؟ إن الأثريين مستمرون في الحفر والتنقيب، في أعماق الأرض، وفي القبور، طالبين العلم والنور. فهم يخترقون طبقة بعد طبقة من الأرض، ويعثرون في كل مكان من بلاد الرافدين الصغيرة، على مدن مدفونة تحت المقابر، وعلى تلال متهمة تحت أساس الهياكل والقصور. لقد كسفت أور الكلدانيين بابل ونيوى. وهناك غير أور من المدن القديمة المكتشفة، التي كانت مدفونة بعضها تحت بعض، منها أروك (الوركاء) ولرسا ولا كاش وإشنونا وكيش ونوزي وسلوقية. فلا عجب إذا اجتذب العراق الأثريين.

إن في البلاد اليوم ثلاث عشرة بعثة أثرية أجنبية. ففي الشمال ينقب الانكليز في نينوى، والاميريكيون في خورسباد، وفي تل بلا وتبه غورا، وفي نوزي وكركوك. وفي وسط العراق، في اشنونا وخفاجي وسلوقية، بعثات أميركية أخرى. وهناك بعثة مشتركة اميركية.

ألمانية، في تيسفون، وأخرى اميركية انكليزية، في كيش. أما في الجنوب فالألمان ينقبون في أورك، والفرنسيون في كيش، والاميريكيون والبريطانيون في أور. ثم جاء أخيراً الأثريون الطليان فأعطوا امتيازاً للتنقيب في مكان يدعى ككسو على ضفة نهر الزاب الكبير. وقد اكتشفت هذه البعثة الطليانية مقبرة من عهد البرثيين المعروفين في التاريخ العربي باسم اشكان، ومدينة أقدم منها من عهد سنحاريب.

ولكن أهم البعثات التي تنقب في الشمال هي البعثة الاميركية في دور شرقين التي تدعى اليوم خورسباد. فقد حفروا إلى قلب التل الذي بنيت عليه بيوت البعثة، وهم من إيوان بيتهم الجديد المنار بالكهرباء يطلون على غرفة العرش في قصر سرجون الثاني تحتهم. وقد اهتموا إلى سور المدينة، مدينة خورسباد، التي بناها، على ما يظن، الأسرى الاسرائيليون الذين كانوا قد أجلوا في ذلك العهد عن فلسطين. واكتشفوا

شيئاً كثيراً من التماثيل الآشورية الضخمة السليمة والمحطمة، المصنوعة من أنواع الرخام التي نشاهدها اليوم في ابنية الموصل.

ولكن قيمة الآثار لدى ناشد العلم ليست بحجمها ولا بزخرفها. وقد تكون ظاهراً قطعة صغيرة من الفخار أو المعدن، نبشها معول أحد العمال أو برزت من تحت محراث أحد الفلاحين. مثال ذلك صفحة من الآجر بقدر حجم اليد، عُثر عليها في المكتبة بقصر سرجون، وعلى وجهيها كتابة مسمارية. هذه هي إذاً أهميتها. فإن في تلك الكتابة وجد عالم اخصائي جدولاً بأسماء خمسة وتسعين ملكاً من ملوك آشور، وما كان يُعلم من قبل غير نصف هذا العدد منهم. إذاً، سنح تاريخ آشور. فإن أول ملوكها هو غير الذي حكم في القرن التاسع قبل المسيح. أول ملوكها، حسب السجل المسماري الصغير، جلس على العرش قبل ذلك الزمان بألف وخمسمائة سنة، أي في منتصف الألف الثالثة قبل المسيح.

ويظهر أن البعثة الأميركية الأخرى التي تقوم بأعمالها في نوزي، المكان الذي يدعى اليوم ترقلان، نشبت ما تقدم. فقد اكتشفت عدداً من المخطوطات التي تبعث النور في تاريخ شعب كان مجهولاً، هو الشعب الحوري. قرأ الاخصائيون تلك المخطوطات فاذا فيها عن شؤون الحوريين، وصلاتهم بالشعوب الاخرى المعاصرة لهم، ما هو ذو قيمة اقتصادية وتاريخية وجغرافية. والقيمة الجغرافية أعظمها، لأنها أول أثر لهذا العلم عند أولئك الأقدمين.

أجل، قد اكتشف الاثريون في نوزي أقدم خارطة عرفها العالم. وقد رُسمت على طابوقة من الطابوق المشوي، وظهر فيها نهرا العراق الكبيران، وقسم من جباله، وعدد من مواقع المدن الشمالية القديمة.

وقد استنتجوا من بعض تلك المخطوطات، ومن شكل الهياكل، أن الحوريين كانوا يدينون بدين الآشوريين، وزعوا أن آثارهم تساعد في درس تطور المدينة الآشورية. وقد تدحض هذا الزعم، وتفسد ذاك الاستنتاج، بعثة اخرى اميركية، هي التي تنقب في أطلال بعشيفة والفاضلية في تل بلاوتبه غورا. فقد أدركوا في الحفر طبقة ما

قبل التاريخ، واكتشفوا دفائن يرجع عهدها الى 5000 سنة قبل المسيح، وزعموا أن الإنسان سكن هناك في العصر الحجري. وقد قال مدير البعثة في خطبة ألقاها في بغداد أن الأهمية في ما اكتشفه هي أنمدينة السومريين في دولة أور الأولى (3100 ق.م.) كانت منتشرة في بلاد الآشوريين. ولكن آشور، بحسب الجدول المسماري الذي تقدم ذكره، لم تكن موجودة في ذلك الزمان! أثري يبلبل أثرياً، وطالب العلم يلجأ متورعاً إلى - الله اعلم.

وهناك في بقعة واحدة تزامنت البعثات وتباينت الأغراض. فبينما كانت البعثة الألمانية كادّة في إصلاح غلطها وفي المدائن وفي نقل سلوقية من ضفة النهر اليمنى إلى ضفة اليسرى، كانت بعثة جامعة ميشيغان الاميركية تحفر الطبقة بعد الطبقة من الأرض لتكشف مدينة سومرية اسمها أكشاك.

وقد ظفرت كل بعثة بمبتغاها، وبالادلة على إثبات افتراضها. فتلك التلال الصغيرة المتعددة ، في ذلك السهل الفسيح، هي ما تبقى من المدينة الاغريقية الشرقية سلوقية. وتحت تلك التلال المدينة السومرية أكشاك.

والدليل على كون تلك الكروم من التراب والحجارة هي ما تبقى من سلوقية هور في ما وجدوه من الحفريات. ومنها تماثيل من الخزف صغيرة، اغريقية الصنع والمغزى، وأختام مختومة في الحمّر، ومكتوب عليها ((الدائرة السلوقية لضريبة الملح))، ونقود تحمل اسماء بعض ملوك سلوقية. اذن هذه سلوقية ولا ريب فيها.

أما أكشاك فقد وجدوها في الطبقة الرابعة مدفونة تحت سلوقية. الدليل على ذلك بلاطتان من الحجر لصوص الباب منقوش في إحدهما كلمات سومرية واسم ملك أكشاك.

أكشاك وسلوقية - سومر والاغريق ! اجل، قد وجدوا في بعض ما تبقى من حياط البيوت آثار هندسة مختلطة تجمع بين اساليب شرقية ويونانية. وبعضها انتقل بعدئذ إلى الفرس الساسانيين والعرب المسلمين. ولا تزال أمثلة منها قائمة في إيوان القصر في تيسفون وفي خرائب الحضرة. إنه لعلم جليل.

على أَنَّ البعثات الثرية لا تعمل للعلم فقط. فهناك المتاحف والجامعات التي انتدبتها، وهناك تراحم بينها وتفاخر، وهناك نفقات لا بد مما يقابلها في الأقل من التحف والآثار. لذلك لا تكتفي البعثة بكشف قبر واحد أو عشرة قبور، لا سيما إذا كان فيها آثار نفيسة، وإن تشابهت. فقد كشفوا في سلوقية مائتي قبر، وعثروا فيها على مئتين وخمسة وسبعين شكلاً من الأواني، وعلى خمسين شكلاً من القناديل البرثية (الأشكانية)، فضلاً عن التحف والحلى.

وما هذا بشيء إذا قوبل بما اكتشف في الجهة الجنوبية من المقبرة العراقية العظمى، أي في بلاد السومريين. هنالك البعثة الكبرى، وهنالك الكنوز الأثرية. ينبغي أن أقول كانت هنالك، وهي اليوم في المتحف البريطاني في لندن، وفي متحف جامعة بنسلفانيا بفيلادلفيا في الولايات المتحدة. أما ماتراه، أيها القارئ العزيز، في المتحف العراقي، فهو جزء صغير، صغير منها.

وما أعجب ما تراه حتى في قسمة بلادك الضئلي، إن كان من الحلى والجواهر، أو من الأواني الخزفية والتماثيل، أو من الأختام والتحف والمواعين. فهناك مكحلة سيدتي السومرية ودبابيس شعرها. وهناك اكليل الملكة شباد، وأوراقه الشبيهة بورق الورد مصنوعة من الذهب، وهناك قلادتها، وفيها مئة حجر كبيرة وصغيرة من الياقوت واللازورد. وقد وُجد في قبر هذه الملكة السومرية، مع ملاها وجواهرها، قارب من الفضة، هو ذكرى نزهاتها، ولا ريب، في نهر دجلة.

وماذا كان مدفوناً مع صاحب الجلالة العظمى ملك الأرض وبطلها الكبير، موس كلام دوغ؟ فإن الخوذة التي كان يلبسها للحرب لمن الذهب الابريز، وكذلك سنان الرماح والفؤوس سلاحه. وهناك خنجراً من الذهب نصابه من اللازورد، وقرابه من الذهب المسلسل الدقيق الصنع. وهاكم، ياغواة الموسيقى، قيثارة الملك المرصع صندوقها بالذهب وحجارة اللازورد والياقوت. و إنَّ انفس واثمن ما اكتشف في مقابر الملوك بأور الكلدانيين كبش من الذهب الخالص، صوفه من المعدن والجارة الكريمة، وهو واقف عند جذع شجرة، ذات أغصان مثمرة صيغت كلها من الذهب. الذهب !

لقد كان في ذلك الزمان، على ما يظهر، ابخس من الحديد، فصنعوا منه حتى الخناجر وسانان الرماح!

أما الحلى المتنوعة، صيغة وشكلاً، فإن في المتحف العراقي جزءاً صغيراً منها، لتمتع به سيدتي البغدادية نظرها. ولتعلم سيدتي أن اختها السومرية، التي كانت تسرح شعرها، أو تجلس للماشطة، في هذه الشمس شمسنا، وعلى ضفة هذا الفرات فراتنا، منذ خمسة آلاف سنة، كانت تنام على سرير، وتجلس على كرسي، وتمد خوانها على مائدة، وتفرش بيتها بالطنافس.

وذلك الذي بنى بيتها، ذلك المعماري السومري، هو الذي اخترع القنطرة والعقد في البناء. وهو أول من استوحى شجرة النخل فأوحت بالعمود إليه، فظهر العمود لأول مرة في قصور أور وهياكلها.

ومما هو جدير بالذكر أن شرائع السومريين وصناعاتهم كانت مصابيح علم وهدى لمن جاؤوا بعدهم. فعندما اكتشف الاثريون نينوى، منذ نحو خمسين سنة، قالوا ان شرائع موسى مأخوذة من شرائع حمورابي. واليوم يقول لنا الاستاذ ليردولي مدير بعثة أور أن شرائع حمورابي مستمدة من شرائع سومر، ولم يكن في موضع مدينة نينوى أثر للبناء يوم كان السومريون قد وصلوا (3100 ق.م) . إلى درجة من العمران.

ولك أن تسأل: إلى أي عمق حفر الاثريون ليدركوا هذا العلم كله؟ عندما وصلوا إلى مدافن دولة أور الثالثة، أي الأخيرة، استمروا في الحفر فاخترقوا خمس طبقات من الأرض، كل طبقة منها تمثل دوراً من أدوار التمدن بما اكتشف فيها الآثار التي تختلف عما اكتشف في الطبقة دونها. وقد حفروا حتى تحت الطبقة الخامسة فوصلوا إلى التراب البكر، أي الطين الرايب على ضفتي النهر.

أما اكتشافهم ها هنا فهو أهم من كل ماتقدم ذكره. ان لسكة الحديد اليوم محطة في أور، بين البصرة وبغداد، هي على مئة وعشرين ميلاً من البصرة. والبصرة هي على ثلاثين ميلاً من خليج فارس. ولكن أمواج هذا الخليج كانت تتلاطم في ذلك

الزمان تحت أسوار أور الكلدانيين، فتكون مياه الخليج قد عادت القهقري مئة وخمسين ميلاً في خلال خمسة آلاف سنة ويزيد، أي ثلاثة أميال كل مائة سنة. ولكن الحلزونة تجتاز الثلاثة الأميال - إذا تركها الإنسان وشأنها - بشهر واحد في الأكثر. أن حركة البحار، وهي تتقدم في البر أو تتراجع عنه لأبطأ حركة في العلم.

قلت إن أور كانت على البحر. والأصح أن يقال إن البحر كان عند أور. فكيف عرف الأثريون ذلك وتحققوه؟ عرفوه بالمطالعة، وتحققوه بالمعول والمسحاة. فلو لم يقرأوا في كتب اختصاصهم أن في عهد الاحتلال البابلي لأور ((كان في المدينة هيكلا لنبو خذ نصر ونابو نيدوس يدعيان بهيكلي الميناء)) لما عدوا حدودهم الأثرية إلى ما دونها - إلى ما يختص بعلماء الجيولوجيا - واستمروا يحفرون حتى اركوا طبقة سمكها ثلاثة أمتار من رمال شاطئ الخليج!

وها هنا اكتشفوا الاكتشاف العجيب الذي جاء ذكره في ملحمة كلكميش. وما ملحمة كلكميش بذاتها أعجب من رمال شاطئ الخليج. إنما هي أعجب في النبوءة التي تحتويها.

جاء في تلك الملحمة:

((إن الآلهة لغاضبون غضبة شديدة. وسيمحقون الجنس الإنساني، سيغرقونه إغراقاً في البحر.))

ولكن إنكي أحد الآلهة حمل السر إلى أوتا نابشتيم، ذلك الرجل الصالح، الساكن في قرية شوروباك على الفرات، وأوصى إليه بطريقة النجاة، فبادر نابشتيم إلى بناء سفينة مثل فلك نوح.

ثم يقول نابشتيم في ملحمة كالكميش:

((وحملت في السفينة مالي -

كل حصاد الحياة جمعت في السفينة -

أسرتي وأقاربي،

والحيوانات في الدور والمواشي في الحقول، والصناع والخدم. أدخلتهم

السفينة جمعياً واقفلت الباب.

وعصفت الرياح، وهاجت البحا،

ستة أيام وست ليالي،

طغت الأعاصير والمياه، فغلبت الأرض وغمرتها.

ولما انبلج فجر اليوم السابع خفت صوت العاصفة،

وتقهقر البحر الذي كان يحارب كالجيش الفاتح،

وسكن وجه اليم، وسكنت الرياح، فتوقف الطوفان .

ونظرت إلى البحر فإذا هو هادئ كالنور،

ونظرت إلى البشر فإذا هم كلهم كالوحد.

وبعد ذلك أطلق نابشليم طيراً من الحمام، وترك سفينه على رأس الجبل، وقدم

ذبيحة للآلهة.

هذه هي قصة الطوفان السومرية. وإن رمال الخليج دليل على ما جاء في

ملحمة كلكامش، كما يقول الأستاذ وولي. وهناك دليل آخر في الخزف المدهون الذي

وجدوه تحت أكوام الرمال وفوقها.



فضل الشعر¹

ترتاح النفوس لسماع الشعر، أكثر مما تترتاح لسماع النثر المساوي له في مرتبة البلاغة، ذلك أن الشعر يمتاز بالوزن والقافية، ولورود الألفاظ في جمل موزونة ومنتهية بقافية، وقع تلهذه النفس، زائد على ما تلهذه من موقع الفصاحة والبراعة. ثم إن الشاعر يطلق لخياله العنان، فيؤلف من المعاني التي يقع عليها الخيال صوراً شائقة ليس من عادة البلغاء إيراد أمثالها في منثور الكلام.

ويضاف إلى هذا أن للبلغاء أساليب في الشعر غير أساليب الكلام المنثور، أساليب يستدعيها رعاية الوزن والقافية، أو يستدعيها إرسال الخيال في أودية لا يحوم بها خيال الكاتب أو الخطيب.

وهذا الذي امتاز به الشعر من الوزن والقافية، والأساليب الغريبة وصور المعاني الطريفة، جعله يفعل في النفوس ما لا يفعله المنثور من القول، وجعله يخرج النفوس من الهمود إلى انتباه، ومن الانقباض إلى ارتياح، ومن النفور إلى إقبال، بل زعم بعضهم أن من الشعر البليغ ما ينسي الوطن والأهل. أورد أبو علي القالي قصيدة، وحكى أن بعض أهل العلم سمعها وهو في دار غربة، فقال: أنستني أهلي، وهان علي طول الغربة، ومن أبيات هذه القصيدة:

فان تكن الأيامُ فينا تبدلتُ	ببؤسٍ ونعمى والحوادثُ تفعلُ
فما ليئتُ مني قنأةً صليبةً	ولا ذللتنا للذي ليس يجملُ
ولكن رحلناها نفوساً كريمة	نُحملُ ما لا يستطاعُ فتحملُ

¹ - مستوحى من كتاب (الخيال في الشعر العربي) لعماد الخضر حسين.

ترتاح النفوس للشعر على حسب موافقته لأهوائها، أو طبائعها، أو جهات سيرها في الحياة، فالكاتب مثلاً - يرتاح لقول الشاعر:

ولي قلم في أنملي إن هزرتَه فما ضرني أن لا أهر المهندا

أكثر مما يرتاح له البطل الذي لا يعرف الكتابة، وإنما يعرف كيف يضرب بالمهند في ميادين الحروب، والبطل الهمام يهتز لمثل قول ابن عمار:

السيفُ أصدقُ من زيادِ خطبةٍ في الحرب إن كانت يمينك منبرا
بأشد مما يهتز له الخطيب الذي لم تقع يده على رمح أو حسام.

ويغلب في الظن أن عبد الله بن عبد العزيز العمري لم يكن حريصاً على رفاهية العيش حرص من يتقطع قلبه لفواتها، ذلك لأنه أعجب بشعر يمجّد القناعة، ويجعل الرفاهية في جانبها أمراً لا يؤسف لفقده، حيث قال: أشعر الناس أبو العتاهية يقول:

ماضِرٌّ من جعل الترابَ مهادةً أن لا ينامَ على الحريرِ إذا قنع
ولو أنشد منشد قول دعبل:

ولست بذِي وجهين فيمن عرفته ولا البخلُ فاعلم من سمائي ولا أرضي

لم يطرب له أشد الطرب إلا شخص لا يمسك يده عن الإنفاق في سبيل الخير، ولا يعرف للنفاق عيناً ولا أثراً.

قد يبتهج الرجل للشعر من جهة أنه يحمل مدحاً وإطراء له أو لبعض من يحبهم ويحبونه، وأوضح ما يدلك على أن ارتياح الرجل للشعر إنما نشأ من براعة الشعر

نفسه، أن ترى الرجل معجباً بشعر مدح به بعض خصومه، أو معجباً بشعر تضمن إنكار عمل صدر منه.

تقرأ في كتب الأدب أن عضد الدولة قتل أبا طاهر محمد بن بقية صلباً. فرثاه أبو الحسن الأبياري بقصيدته التي يقول في أولها:

علوّ في الحياة وفي المماتٍ لحقّ تلك إحدى المعجزات

وكتبها ورمها في شوارع بغداد، ولما وصلت إلى عضد الدولة أعجب بها، وتمنى أن يكون هو المصلوب والمرثي بهذه القصيدة.

ومن دلائل ارتياح الرجل للشعر من حيث إنه جيد الصنعة، أن يسمع شعراً يمدح به غيره ممن لا تربطه به صلة قرابة أو صداقة، فيجيز الشاعر عن شعره هذا بمال كثير، أنشد ابن حفصة في مجلس جعفر البرمكي قصيدته التي رثى بها معن ابن زائدة، فرقّ جعفر لسماعتها، وأمر له بجائزة سنّية، ومما يقول ابن أبي حفصة في هذه القصيدة:

مضى لسبيله معنٌ وأبقى مكارمَ لن تبيدَ ولن تنالا
كأن الشمسَ يومٌ أصيب معنٌ من الإظلام ملبسة جلالا
فان يعلُ البلادَ له خشوعٌ فقد كانت تطول به اختيالا

ومن هذا القبيل أن يشهد الشاعر ببراعة شعر بعض معاصريه، فإن التنافس الذي يقع بين الشعراء، يبلغ أن يصد الشاعر عن أن يشهد لشاعر يعاصره بالإبداع؛ إلا أن يكون الشعر قد أخذ بمجامع قلبه، وكان فيه شيء من خلق الإنصاف، أنشد أبو العتاهية بين يدي المهدي قصيدته التي هنأه فيها بالخلافة، وكان بشار حاضراً، فلما وصل أبو العتاهية إلى قوله:

أنته الخلافةُ منقادةٌ إليه تجرّر أديالها
فلم تكّ تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

تملك بشاراً الطرب، وقال لمن بجانبه: أترى الخليفة لم يطر من فراشه طرباً لما
يأتي به هذا الكوفي!.

وأعجب الشاعر أبو العميّل ببيتين لأبي تمام من قصيدة يمدح بها عبد الله بن
طاهر، وهما:

يقول في قومس قومي وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية القود
أطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا فقلت: كلا ولكن مطلع الجود

حتى إن أبا العميّل لما أراد استعطاف عبد الله بن طاهر على أبي تمام ذكر
له البيتين، فبالغ عبد الله في إكرام أبي تمام.

وسمع الفرزدق أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة في النسيب، فصاح قائلاً: هذا والله
الذي أرادته الشعراء فأخطأته وبكت الديار.

تسيغ النفس الشعر، فتأخذها هزة الارتياح، ولا تتمالك أن تعبر بقول أو تفعل
مايدل على إعجابها به؛ أنشد أبو تمام أبا دلف قصيدته التي رثى بها محمد بن
حميد، فقال أبو دلف: لم يمت من رثي بمثل هذا الشعر، ومن عيون هذه القصيدة:

كان بني نبهان يوم مصابه نجوم سماء خرّ من بينها البدر

وأنشد ابن الأعرابي أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

واصبر على غير الزمان فإنما فرج الشدائد مثل حلّ عقال

ثم قال لجليسه: هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟

وسمع الأصمعي أبيات نصيب التي يقول فيها:

ولا خير في ودّ امرئ متكاره عليك ولا في صاحب لا توافقه

إذا المرء لم يبذل من الود مثلاً بذلت له فاعلم بأني مفارقه

فقال: قاتل الله نصيباً ما أشعره.

واقترح الملك العادل على الشاعر ابن ظافر نظم قصيدة في المجلس، يرسلها جواباً عن قصيدة بعث بها الملك المعظم بالشام، فارتجل ابن ظافر قصيدة قال صاحب نفح الطيب: صفقت لها أيدي الحاضرين إعجاباً ببلاغتها، ومما يقول في هذه القصيدة:

يكفي الأعداء حرُّ بأسك فيهم أضعاف ما يكفي الولي نداكا

و يقول على لسان الملك العادل:

مكثي جهاداً للعدو لأنني أغزوه بالرأي السديد دراكا

وأعجب الرشيد بقول الشاعر في مدح القائد يزيد بن مزيد:

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل
فروى الرشيد البيت ووصل قائله بجائزة، ويزيد بن مزيد لا يشعر بما فعل الرشيد.

ووفد جعفر بن محمد بن شرف على المعتصم بن صمادح، وأنشده قصيدة شكا فيها اعتداء بعض العمال على مزرعة له بأحدى القرى، فلما وصل في إنشاد القصيدة إلى قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الغيد من حور

قال له المعتصم: كم في القرية التي تزرع فيها من بيت؟ قال خمسون بيتاً، قال: أنا أسوئك جميعها لهذا البيت الواحد.

والواقع أن هذا البيت من أبرع ما تصنعه قرائح الشعراء، والخمسون بيتاً قروياً قيمة له غير مبالغ في تقديرها، ولو وصلنا إلى مافي نفوس الشعراء لذلك الحين،

لوجدنا الذين اغتبطوا الشاعر على هذا البيت المصنوع من درر الألفاظ أكثر ممن اغتبطوه على تلك البيوت المصنوعة من الطين والحجارة.

وسمع ابن جني قول المتنبي:

لايسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

فقال: لو لم يقل المتنبي غير هذا البيت، لتقدم به أكثر المحدثين.

وأنشد محمد بن كناسة إسحاق بن إبراهيم بيتين من الشعر، فقال إسحاق: وددت والله لو أن هذين البيتين لي بنصف ما أملك. والبيتان هما:

فِي انقباض و حشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتهما و قلت ما قلت غير محتشم

ودخل جماعة من الشعراء على المنصور، فأنشدوه قصائدهم من وراء حجاب، ودخل الشاعر المعروف بابن هرمة في آخرهم وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

له لحظات في خفايا سريره إذا كرها فيها عقاب ونائل

فقال: يا غلام ارفع الحجاب، وفضله عليهم في الجائزة.

كنت لقيت المرحوم محمد فريد في برلين، فقال لي: إني اشتقت إلى قراءة كتاب عربي، فهل عندك من كتاب تعيرني إياه؟ فبعثت إليه بكتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، ولقيته بعد حين فقال لي: لم أعجب من الكتاب إلا بأبيات للمؤلف وردت في صدر الكتاب، ومن شدة إعجابي بها نقلتها في مذكرة. يريد الأبيات التي يقول فيها صاحب الوساطة:

ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلماً
أأغرسه عزاً وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزماً

ومن مظاهر الإعجاب بالشعر أن يأخذ الرجل عقب سماعه في ترديد البيت أو الشطر الذي كان إعجابه به أشد، سمع دعبل قول أبي تمام:

وأنجذتم من بعد إتهام أرضكم فيا دمع أنجذني على ساكني نجد
فقال أحسن والله، وأخذ يردد قوله ((فيا دمع أنجذني على ساكني نجد)).

ومن الطرق التي يدلون بها على إعجابهم بالشعر أن يذكر لك الأديب شاعراً ويقول لك: وهو الذي يقول كذا، ذكر الجاحظ عتبان بن أصيلة الشيباني في كتاب البيان، وقال: وهو الذي يقول:

ولا صلح ما دامت منابر أرضنا يقوم عليها من ثقيف خطيب
وقد يحتاج الشاعر إلى أن يدل على سمو مكانته في الشعر قوماً يجهلونها، فيقصد إلى أحسن ما يحضره من شعره، ويقول: أنا القائل كذا. دخل أبو محمد جعفر المعروف بعنق الفضة مجلساً فيه ابن خفاجة، فقال له ابن خفاجة: ليت شعري من تكون؟ قال: أنا القائل:

كلما هبَّتْ شمالٌ منهم لعبت بي عن يمين وشمال
فارقت من فكرتي أرواحها فأنت منهن بالسر الحلال

فقال ابن خفاجة: من يكون هذا قوله لا ينبغي أن يجهل.

وقد يبلغ الطرب للشعر أن يخرج صاحبه عن عادة أمثاله، فيقول أو يفعل ما لا يلائم الروية والوقار، سمع العباس بن الأحنف قصيدة ابن الدمينة التي يقول في أولها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجد

فحفظها وجاء بها إلى إبراهيم الموصلي، وبعد أن أنشدتها ترنح ساعة وقال: أنطح العمود برأسي من حسن هذا الشعر!

وأنشد أبو تمام في مجلس الحسن بن رجاء قصيدته اللامية المعروفة ولما وصل إلى قوله:

لا تتكري عطلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حربٌ للمكانِ العاليِ
و تنظري حيث الركاب ينصها محيي القريض إلى مميت المال
قام الحسن على رجليه، وقال لأبي تمام: والله لا أتممتها إلا وأنا قائم.
ونقرأ في كتب الأدب أن مروان بن حفصة دخل على الخليفة المهدي، وأنشده قصيدته التي يقول في أولها:

((طرقتك زائرة فحي خيالها))

فأنصت لها المهدي، ولم يزل يزحف كلما سمع شيئاً حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع.

وسمع أبو السائب المخزومي بيتي جرير:

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا
فاشتد لهما طربه، وحلف أن لا يرد على أحد سلاماً ولا يكلمه إلا بهذين البيتين، حتى يرجع إلى منزله.

وقد يبلغ الرجل من ابتهاجه للشعر أن يمتنع من سماع شعر بعده في تلك الساعة أو في ذلك اليوم، دخل محمد بن العباس بن التيفاشي على عبد المؤمن بن علي، وابتدأ في إنشاد قصيدته اللامية المعروفة، فلما أنشد البيت الأول منها، وهو قوله:

ماهرٌ عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار عبد المؤمن إلى الشاعر أن يقتصر على هذا البيت، وأمر له بألف دينار.

ودخل جماعة من الشعراء على المعتضد بن عباد ليلقوا بين يديه قصائدهم، من بينهم الشاعر المدعو بابن جناخ البطليوسي، فتقدم وأنشد قصيدته التي يقول في أولها:

قطعت يايوم النوى أكبادي ونفيت عن عيني لذيق رقادي

فلما انتهى من إنشادها، قال المعتضد: اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء، ولم يأذن في الكلام لأحد بعده.

ومن شدة إعجاب الرجل بالبيت اتخذه له كمثّل يضربه عند كل مناسبة، كما كان سيف الدولة يكثر من إنشاد قول أبي تمام

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

وأذكر بهذا أن الأبيات التي أعجبت بها أشد الإعجاب، أجدني أذكرها ولو في نفسي عند كل مناسبة، ومن هذا الطرز قول أبي تمام:

من لم يسسّ ويطير في خيشومه رهج الخميس فلن يقود خميسا

إن الشعر البارع يبهج النفوس بجودة تصوير معانيه وحسن صياغة ألفاظه من غير نظر إلى قيمة الغرض الذي يرمي إليه، ومن هنا نرى بعض أهل الجد والورع قد يرتاحون لسماع شعر يعدون معانيه من قبيل اللهو، وهذا أبو عمرو بن العلاء، قد سئل عن أبدع الناس شعراً فقال: الذي يقول:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عني الكرى طيف ألم
روحي عني قليلاً واعلمي أنني ياعبل من لحم ودم

يعني بشار بن برد.

وكان عمر بن عبد العزيز يستجيد قول نصيب:

قفا أخوي إن الدار ليست كما كانت بعهدكما تكون

ولما لقي نصيباً، قال له أنشدني قولك ((قفا أخوي)) فان شيطانك كان لك فيها ناصحاً حين لقنك إياها.

وإذا كانت النفوس تبتهج لحسن صناعة الشعر، فان ابتهاجها يجعلها تقبل على ما يعرضه عليها من حكمة، أو يسديه إليها من نصيحة، والشعر إما أن يعطي الحكمة في صراحة، كالبيت الذي قال فيه الأصمعي: إنه أبرع بيت قالته العرب وهو قول أبي ذؤيب الهذلي:

والنفس رغبة إذا رغبتها وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

والبيت الذي قالوا: إن العرب لم تقل بيتاً أصدق منه وهو قول الحطيئة:

من يفعل الخير لم يعدم جوازيه لا يذهبُ العرفُ بينَ الله والناسِ

والبيت الذي قيل: إنه أحكم بيت قالته العرب وهو قول الآخر:

ولربما ابتسم الكريمُ من الأذى وفؤاده من حرّه يتأوه

وإما أن تستفيد منه الحكمة من طريق غير صريح، كبعض الشعر الذي يقال في نحو المديح أو الحماسة، فمن الشعر الذي يسمو بالنفس إلى فضيلة الشجاعة وحماية المستجير وإن ورد في سياق المديح، قول الشاعر:

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولوووا عمائمهم على الأقمار

إن خوْفوك لقيت كل كريهة أو أمْنوك حللت دار قرار

ومن الشعر الذي يطبع النفوس على التعفف والتجمل وإن جاء في معنى الفخر
أو التحدث بالنعمة قول مهيار الديلمي:

وأرى العدو على الخصاصة شارة تصف الغنى فيخالني متمولا
وإذا امرؤ أفنى الليالي حسرةً وأمانياً أفنيهن توكلًا

للشعر العربي أثر في تهذيب الأخلاق، بما يعطيه من الحكمة صراحة أو
تلويحاً، وهو بعد هذا يثير العواطف الشريفة، فيبعث على نحو العفو والسماحة،
وإخلاص الود والثبات في المواقف المحفوفة بالأخطار، قال معاوية بن أبي سفيان:
اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم فلقد رأيته بصفين أريد الهرب لشدة البلوى،
فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة. يعني التي يقول فيها:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

وإذا كان الشعر العربي معدوداً من وسائل الإصلاح، فمن حق أبنائنا علينا أن
نلقنهم أشعار بلغائنا، وأن نسلك بطائفة منهم طريقة التمرين على النبوغ في الشعر، ثم
نحتفي بهؤلاء النوابع مارفعوا شأن الأدب العربي وأدناو للناس قطوف الحكمة.

دمشق

نظمها وقد زار دمشق فاستقبل فيها بحفاوة وترحاب. فقال ذاكر أمجدها أيام
الأمويين وواصفاً ما شاهد في غوطتها من جنان زاهرة، وشاكراً لأهلها ما لقيه من
حفاوة عندهم، مهيباً بهم أن يشيدوا ما كان لها من ملك غابر ومجد زاهر. وهذا
أهمها:

قم نادِ جَلْقٌ ¹ وانشدُ رسم من بانوا	مشت على الرسم أحداث و أزمان
هذا الأديم كتابٌ لا كِفَاءَ له	رث الصحائف باقٍ منه عنوان ²
بنو أمية للأنباء ما فتحوا	وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم	فهل سألت سرير الغرب ما كانوا ³
عالين كالشمس في أطراف دولتها	في كل ناحية مُلكٌ و سلطانُ
بالأمس قمتُ على الزهراء أندبهم	واليوم دمعي على الفيحاء هتّان ⁴
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله	هل بالمصلى أو المحراب مروان
تغيّر المسجد المحزون و اختلفت	على المنابر أحرارٌ و عبدان
فلا الأذان أذانٌ في منارته	إذا تعالى و لا الأذان أذانُ

¹ - جلق اسم للمشق.

² - الادم وجه الأرض. أي هذه الأرض قد تغيرت فأصبحت ككتاب رث الصحائف لم يبق منه غير العنوان

³ - أي فهل سألت عن ملكهم في الأندلس

⁴ - الزهراء مقر الخليفة عبد الرحمن الأموي قرب قرطبته.

آمنت بالله واستثنيت جنّته
 قال الرفاق وقد هبت خمائلها
 جرى و صفق يلقانا بها بردى
 دخلناها و حواشها زمردة
 والجور في (دُمّر) أو حول (هامتها)
 والطير تصدح من خلف العيون بها
 وقد صفا بردى للريح فابتدرت
 خلّفت (لبنان) جنّات النعيم وما
 حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة
 نزلت فيها بفتيان جاحجة
 يافتيّة الشام شكراً لا انقضاء له
 ما فوق راحتكم يوم السّماح يدّ
 خميلة الله وشتها يداه لكم
 شيدوا لها المُلْك وابنوا ركن دولتها
 المُلْك أن تتلاقوا في هوى وطن

دمشق رُوح وجنّات وريحان
 الأرض دار لها الفيحاء بستان
 كما تلقاك دون الخلد رضوان¹
 والشمس فوق لجين الماء عُقبان²
 حور كواشف عن ساق و ولدان³
 وللعيون كما للطير ألحان
 لدى ستور حواشيهن أفنان
 نُبتت أن طريق الخلد لبنان⁴
 فيها الندى وبها طي وشيبان⁵
 أبأؤهم في شباب الدهر غسان⁶
 لو أن إحسانكم يجزيه شكران
 ولا كأوطانكم في البشر أوطان
 فهل لها قيّم منكم وجنان
 فالملك غرس و تجديد وبنيان
 تفرقت فيه أجناس و أديان

1 - بردي نمر دمشق. رضوان حارس جنة عدن

2 - المحين القضة والعقبان الذهب

3 - وأشجار الحور في ضاحيتها (دمر الهامة) قائم كأنه الحور في الجنان.

4 - أتيت لبنان فإذا هي جنّات النعيم ولكني لما وصلت إلى دمشق عرفت أن لبنان لم يكن إلا الطريق إلى جنة الخلود.

5 - طي وشيبان قبيلتان اشتهرت من الأولى حاتم طي ومن الثانية معن بن زائد وهما المعروفان بالجدود والكرم. يصف أهل دمشق بمجودهم.

6 - غسان كانوا ملوكاً للشام.

نصيحة ملؤها الإخلاص صادقة و النصح خالصه دين وإيمان
والشعر مالم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحيم ونحن في الجرح والآلام اخوان





زحلة

~~

نظم هذه القصيدة ذاكراً مدينة زحلة في لبنان وما استمتع في واديهما من جمال الطبيعة وأنس المعشر وحفاوة الأدباء. وهي من قصائده التي يتغنّى بها أهل الطرب للطف أوصافها وحلاوة معانيها. ننقل منها مايلي:

قال بعد مقدّمة في ذكر أيام الشباب. وهو يتحدث عن زحلة بلسان المحب الذي يتحدث إلى غادة حسناء.

يا جارة الوادي طربتُ و عادني	ما يشبه الأحلام من ذكراكِ
منّلتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى	والذكرياتُ صدى السنين الحاكي
ولقد مررتُ على الرياض بربوة	غنَاءَ كنتُ حِيالها ألقاكِ
ضحكتُ إليّ و جُوْهها و عيُونها	ووجدتُ في أنفاسها رِيّاكِ
فذهبتُ في الأيام أذكر رفرفاً ¹	بين الجداول، والعيون حواكِ ²
أذكرتُ هرولة الصبابة و الهدى	لما خطرت يقبلان خطاكِ
لم أدرِ ما طيبُ العناق على الهوى	حتى ترفق ساعدي فطواكِ
وتأودتُ أعطاف بانك في يدي	واحمرُّ من خَفْريهما خدَاكِ
ودخلتُ في ليلين فرعكِ والدجى	ولثمتُ كالصبح المنوّر فاكِ
ووجدتُ في كنه الجوانح نشوة	من طيب فيكِ ومن سُلّاف لَمّاكِ
وتعطّلتُ لغة الكلام و خاطبتُ	عينيّ في لغة الهوى عيناكِ

1 - الرفوف: بسط حضراء كناية عن الرياض.

2 - جمع حاكية، العيون المواقف التي تتحاكى بالنظرات.

ومحوث كل لبانة من خاطري
لا امسي من عمر الزمان و لاغد
قسماً لو انتمت الجداول و الرئي
تلك الكروم بقيّة من بابل
لم أنس من هبة الزمان عشية
كنت العروس على منصة جناحها
ضمت ذراعيها الطبيعة رقة
و البدر في شبح السماء منور
و النيرات من السماء مطلة
شرفاً عروس الأرز كل فريدة
ركز البيان على ذراك لواءه
إن تكرمي يازحل شعري إنني
أنت الخيال بديعه وغريبه

ونسيت كل تعاتب وتشاكي
جمع الزمان فكان يوم رضاك
لتهلل الفردوس ثم نماك¹
هيهات نسى البابلي جناك²
سلفت بظلك وانقضت بذراك
لبنان في الواشي الكريم جلاك
صنّين والحرمون فاحتضناك³
سالت حلاه على الثرى وحلاك
كالغيد من ستر ومن شباك
تحت السماء من البلاد فداك
ومشى ملوك الشعر في مغناك
أنكرت كل قصيدة إلّاك⁴
الله صاغك والزمان رواك⁵

¹ - أقسم أنه لو انتسبت الجداول والري إلى مكان لقال الفردوس متهللاً انك تتسبين إليه.
² - بابل بالقدم اشتهرت بكرومها. (والبابلي أو البابلية الحمره). أي أن حمره بابل لا تستطيع ان تسبينا طيب حمرتك يازحله.
³ - بتصور الطبيعة كأنها أم تمد ذراعيها (وهما صنين وحرمون) ليحتضنا زحله.
⁴ و ⁵ - يازحل ترخيم يازحله. يقول : ان تكرمي يازحله شعري فاني اراك قصيدة تفوق كل القصائد، قصيدة صاغها الله ورواها الزمان.

رثاء سَعْد زغلول



كان لوفاة الزعيم المصري العظيم سنة 1927 وقع آسى عميق في مصر
وجميع الأقطار العربية وقد رثاه الشعر العربي بأحرّ العواطف الوطنية وأصدقها ومن
ذلك قصيدة لشوقي في 94 بيتاً من عيون الشعر . نثبت منها يلي:

و انحنى الشرقُ عليها فبكاها	شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
فكأنّ الأرض لم تخلع دُجاها	جلّ الصبح سواداً يومها
يحسّرُ الأبصارُ في النعش سناها	خطر النعش على الأرض بها
أم على البعث أفاقت من كراها ¹	ما دَرَتْ مصرٌ بدفنٍ صُبَحَتْ
شُعَب السبل طغت في ملتقاها	وكان الناس لما نسلوا
و (يسعدٍ) رفعوا أمس الجباها	خفضوا في يوم (سعدٍ) هامهم



كلّلت عَدْنُ به هامَ رُباها ²	يارفاتاً مثلَ ريحانِ الضحى
وحياةٍ أترع الأرض حياها ³	وبقايا هيكَلٍ من كرمٍ
وبكتْ أنظمةُ الشورى صواها ⁴	ودَعَ العدلُ بها أعلامه
رايةً كنت من الذلّ فداها	حضنت نعشك و التفتت به
وتلقَى السهم عنها فوقها	ضمت الصدرَ الذي قد ضمّها



من أواسيها و جَفَّتْ من ذُراها ⁵	مِنْبِرُ الوادي ذوتُ أعواده
---	-----------------------------

¹ - أي مادرت مصر هل استيقظت على يوم دفن عادي، أم انها استيقظت على يوم القيامة وقد اجتمع فيه الناس اجمعون .

² - الرفات: بقايا الميت. وعدن أي حنة عدن.

³ - الحيا: المطر أي أن حياته كانت كاللمطر المحيي للأرض.

⁴ - الصوى: معالٍ توضع لهداية المسافرين.

⁵ - أن منبر الخطابة في وادي النيل ذوت أعواده بعد موت الفقيد.

من رمى الفارس عن صهوتها
قدّر بالمُدن أُلوى و الفرى
طاقت الكأس بساقي أمة
عطلت آذانها من وتر
ودهى الفُصحى بما ألجم فاها ؟
ودهى الأجيال منه ما دهما
من رحيق الوطنيات سقاها¹
ساحر رنّ ملياً فشجاها

* * *

تسكبُ الدمع على (سعد) دماً
من ليانٍ هو في ينبوعها
ولّد الثورة (سعد) حرّة
ما تمئى غيرها نسلًا ومن
رقد النائر إلا ثورة
جال فيها قلماً مستهضاً
ورمى بالنفس في بركانها
لست أنسى صفحة ضاحكة
وحديثاً كروايات الهوى
وقناة صعدة لو وهبت
أمة من صخرة الحق بناها
واباء هو في صم صفاها²
بحياتي ماجد حرّ نماها³
يلد الزهراء يزهّد في سواها
في سبيل الحق لم تخدم جذاها
ولساناً كلّمأ أعيت حداها
فتلقى أول الناس لظاها⁴
تأخذ النفس وتجري في هواها
جدّ للصّب حنين فرواها
للسماك الأعزل اختال وتاها⁵

* * *

في نعيم الله نفس أتيت
لا الحجى لما تناهى غرّها
أنعم الدنيا فلم تنس ثقاها
بالمقادير و لا العلم زهاها

¹ - طاقت به كأس للوت وقد كان يسقي الأمة من خر الحياة الوطنية الصافية.

² - أي أنه بنى الأمة من صخرة الحق فجمع فيها الرفق وهو من ينوعها. والأباء هو من طبعته الصخرية الاصيلية.

³ - هذه الأبيات الثلاثة يشير فيها إلى أن سعد لم يعقب ولداً ولكنه ولد الثورة التي كان ينهض بها هم قومه كتابة وخطابة . وقد مات ولكن نار ثورته لم تخدم في النفوس.

⁴ - رمى نفسه في بركان الثورة فكان أول من أصابته نارها (أي أول من اضطهد ونفي وتعذب بسببها).

⁵ - القناة الصعدة: الرمح المستقيم كنى بها عن قوامه الطويل المستقيم. السمك الأعزل اسم نحم.

اللغة العربية تنعي حظها

~~

قصيدة قالها سنة 1903 على لسان اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها وتُهيب بهم ان يكرموها ويحيوها ويرفعوا شأنها فهي أهل لذلك:

رجعتُ لنفسي فاتَّهمتُ حصاتي	وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي ¹
رموني بعقمٍ في الشباب ولينتي	عقمت فلم أجزع لقول عُداتي
وَلَدْتُ ولمَّا لم أجد لعرائسي	رجالاً وأكفاءً وأدْتُ بناتي
وسعتُ كتاب الله لفظاً وغايةً	وما ضقتُ عن آيٍ به وعظمتُ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتتسيق أسماءٍ لمُخترعاتٍ
أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ	فهل سألوا الغواص عن صدقاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني	ومنكم وإن عرَّ الدواءُ أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني	أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً	وكم عزُّ أقوامٍ بعزُّ لغاتٍ
أتوا أهلهم بالمُعجزاتِ تفنُّناً	فيا ليتكم تأتون بالكلماتِ
أُطربكم من جانب الغرب ناعبٌ	ينادي بوادي في ربيع حياتي
ولو تَزجرون الطير يوماً علمتمُ	بما تحته من عثرةٍ وشتاتٍ ²
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً	يعزُّ عليها أن تلين فَناتي ³
حفظن ودادي في البلى و حفظتهُ	لهنَّ بقلبٍ دائم الحسراتِ

¹ - رجعت لنفسي فحسبت اني قاصرة كما يدعون. (والمصاة : العقل) وناديت قومي فلم أجد نصيراً فتزكت حياتي بيد الله.

² - ولو عرفتم الغيب لعرفتم ما نعت قولهم من سقوط لي وانحلال.

³ - الجزيرة أي جزيرة العرب يقصد أهلها قديماً.

وفاخرتُ أهل الغرب والشرق مطرقاً
 أرى كلَّ يومٍ بالجرائد مزلقاً
 وأسمع للكتاب في مصر ضجّةً
 أيهجرنني قومي، عفا الله عنهم،
 سرّت لوثه الإفرنج فيها كما سرى
 فجاءت كثوب ضمّ سبعين رُقعةً
 إلى معشر الكتاب والجمع حافلٌ
 فإمّا حياةً تبعث المَيّت في البلى
 وإمّا مماتٌ لا قيامة بعده
 حياءً بتلك الأعظم النخراتِ
 من القبر يُدنيني بغير أناة¹
 فأعلم ان الصائحين نُعاتي
 إلى لغةٍ لم تتصل برواة²
 لعاب الأفاعي في سبيل فُراتٍ
 مشكّلة الألوان مختلفاتٍ
 بسطتُ رجائي بعد بسط شكاتي
 وتُتَبْتُ من تلك الرّموس رُفاتي
 مماتٌ لعمرى لم يُقَسِّ بمماتٍ

¹ - يشير متقدماً إلى فساد لغة الجرائد في ذلك الوقت.

² - أي أبهجروني إلى لغة فاسدة لم تصلنا بالرواية عن الأقدمين. يقصد بذلك أن الكتاب كانوا يستعملون كلمات غريبة لا أصل لها في كتب اللغة أو في ما يستعمله الفضحاء.

الطين

~ ~

(ديوانه الجداول)

يكني بالطين عن الإنسان، فيخاطب المتكبر المتعجرف الذي نسي أنه جُبِل من تراب كغيره من البشر:

نسيَّ الطينُ ساعةً أنه طينٌ	نَّ حَقِيرٌ فصَالَ تِيهاً وَعَرِيذٌ
وكسا الحَزُّ جسمَهُ فتباهى	وحوى المَالُ كيسَهُ فتمَرَّدُ
يا أخي ! لا تملُ بوجهك عني	ما أنا فحمةٌ ولا أنتَ فرقْدُ
أنتَ لم تصنع الحَرِيرَ الذي تَلُـ	بسُ واللؤلؤَ الذي تَتَقَلَّدُ
أنتَ لا تأكلُ النُّضارَ إذا جَعـ	تَ ولا تَشْرَبُ الجُمانَ المُنْضَدُ ¹
أنتَ في البُرْدَةِ الموشاةِ مثلي	في كسائي الرديمِ تشقى وتسعدُ ²
ولقبي كما لقلبِكَ أحلا	مَ حسانَ فانه غيرَ جَلَمَدُ
أأمانِيَّ كُلُّها من ترابٍ	وامانيك كُلُّها من عَسَجَدُ
أيها المزهدي، إذا مسَكَ السَّقـ	مُ ألا تشتكِي ؟ ألا تنتَهَدُ ؟
فلكَّ واحدٌ يُظَلُّ كلينا	حارَ طرفي به وطرفكَ أَرْمَدُ
قَمَرٌ واحدٌ يَطْلُ علينا	و على الكوخِ والبناءِ الموطَّدُ
إن يكنْ مشرقاً لعينيك إني	لا أراه من كَوَّةِ الكوخِ أَسْوَدُ
أنتَ مثلي من الثرى وإليه	فلماذا يا صاحبي التَّيُّ والصَّدُّ

¹ - النضار - الذهب. الجمان - القضة أو اللؤلؤ.

² - الردم - البالي.

الشاكى ومن حوله الجدار المشيد¹
فوقها والضباب أن يتلبّد
ماء والطير والأزاهر والنّد
شجر الروض أنه يتأوّد
شهد من زهره ولا تتردّد
لم تكن من فراشة الحقل أسعد

من تراب تدوس أو تتوسّد
حيوان مسير مستعبّد
وثوباً حبكه سوف ينقّد
إن قلبي للحب أصبح معبّد
من كساء يبلى ومال ينفذ

ألك القصر دونه الحرس
فامنع الليل أن يمدّ رواقاً
ألك الروضة الجميلة فيها الـ
فازجر الريح أن تهز وتلوي
ألك الحقل؟ هذه النحل تجني الـ
لو ملكت الحقول في الأرض طراً

أيها الطين لست أنقى وأسمى
سدت أو لم تسدّ فما أنت إلا
إن قصراً سمكه سوف يندك
لا يكن للخصام قلبك مأوى
أنا أولى بالحب منك وأحرى

¹ - الحرس الشاكى - أي المسلح.

لبنان

~~

(رواية الفاضل)

من قصيدة يصف فيها وطنه القديم لبنان ويبثه شوقه وحبّه وحنينه إليه:

لبنانُ والأملُ الذي لذويه	إثنانِ أعيَا الدهر أن يُبليهما
ونحبهُ والتلجُ في واديه	نشأتهُ والصيفُ فوق هضابه
بقلائدِ العقيان تستغويه	وإذا تمَدَّ له ذكاءُ جبالها
بالأنجم الزهراء تسترضيه	وإذا تُنْقَطُ السماءُ عشيّةُ
يضحكن ضحكاً لا تكلفُ فيه	وإذا الصبايا في الحقول كزهرها
وسقيني السحر الذي أسقيه	هَنُّ اللواتي قد خلقن لي الهوى
وأبى على الأيام أن تطويه	هذا الذي صان الشباب من البلى

حتى أعودَ إليه، أرضَ التَّيه	وطني ستبقى الأرضُ عندي كُلها
والشعرَ قال بنيتُ عرشي فيه	سألوا الجمالَ فقال: هذا هيكلي
وكنوزهُ والبحرُ يستجديه	الأرضُ تستجدي الخضمَّ مياهه
أقدامه طمعاً بما يحويه	يُمسي ويُصبحُ وهو منطرحٌ على
استجداه ثانيةً سخا ببنيه	أعطاه بعضُ وقاره حتى إذا
أخشى مع الإسراف أن تُفنيه	لبنانُ صنُ كنزِ العزائم واقتصد
ستعانق الأحبابُ في ناديه	يا صاحبي يَهْنِيكَ أنكَ في غدٍ
وتهزك الأنغام من شاديه	وتلذُّ بالأرواح تعبق بالشذا
فاشقتَه لا تنسَ أنكَ فيه	إن حدّثوك عن النعيم فاطنبوا

ابْتَسِمِ ~~

(ديوانه الحمائل)

قال السماء كئيبةً وتجهما قلت ابْتَسِمِ يكفي التجهّم في السما
قال الصبا ولّي فقلت له ابْتَسِمِ لن يرجع الأسف الصبا المتصرّما
قال العدى حولي علت صيحاتهم أأسرّ والأعداء حولي في الحمى
قلت ابْتَسِمِ، لم يطلبوك بذمهم لولم تكن منهم أجلّ وأعظما
أترك تغنم بالتبرّم درهماً أم أنت تخسر بالبشاشة مغنما؟
ياصاح لا خطر على شفقتك أن تتنلّما، والوجه أن يتحطّما
فاضحك فإن الشهب تضحك والدّجى متلاطم، ولذا نحبّ الأنجما
قال البشاشة ليس تُسعد كائناً يأتي إلى الدنيا ويذهب مُرعماً
قلت ابْتَسِمِ ما دام بينك والرّدى شبرٌ فإنّك بعدلن تتبسما

¹ - أي أن الأعداء إذا ذمّوك فابتسم لأنهم انما فعلوا ذلك حسداً لأنك أجلّ وأعظم منهم.

المساء

~ ~

كان الشاعر قد قصد الإسكندرية وهو عليل. وفي ذات مساء عند شاطئ البحر تنثر في نفسه ذكرى حبٍ قديم فيشعر كأنه فريسة علتين: الهوى ، والمرض. فبيث في قصيدة من 40 بيتاً ما كان يشعر به وهو في تلك الحال ويقول:

دَاءٌ أَلَمٌ فَخَلْتُ فِيهِ شِفَائِي	مِنْ صَبَوْتِي فَتَضَاعَفَتْ بُرْجَانِي ¹
يَا لِلضَّعِيفِينَ اسْتَبَدَّ بِي وَمَا	فِي الظُّلْمِ مِثْلُ تَحَكُّمِ الضَّعْفَاءِ
قَلْبٌ أَذَابَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْجَوَى	وَعِلَالَةٌ رَثَّتْ مِنَ الْأَدْوَاءِ ²
وَالرُّوحَ بَيْنَهُمَا نَسِيمٌ تَنْهَدُ	فِي حَالِي التَّصَوُّبِ وَالصُّعْدَاءِ
وَالْعَقْلُ كَالْمَصْبَاحِ يَغْشَى نُورَهُ	كَدَّرَ وَيُضْعِفُهُ نَضُوبُ دِمَائِي

هَذَا الَّذِي أَبْقَيْتَهُ يَا مُنِيَّتِي	مِنْ أَضْلَعِي وَخُشَّاشَتِي وَذَكَائِي
يَا كَوَكِباً مِنْ يَهْتَدِي بِضِيَائِهِ	يَهْدِيهِ طَالِعُ ضِلَّةٍ وَرِيَاءِ
يَا مُورِداً يَسْقِي الْوَرُودَ سِرَائِهِ	ظُمًا إِلَى أَنْ يَهْلِكُوا بِظُمَاءِ

إِنِّي أَقَمْتُ عَلَى التَّعَلُّةِ بِالْمَنَى	فِي غُرْبَةٍ قَالُوا: تَكُونُ دَوَائِي
إِنْ يَشْفِ هَذَا الْجِسْمَ طَيْبُ هَوَائِهَا	أُطْلَفُ النِّيرَانَ طَيْبُ هَوَاءِ ³
عَبْتُ طَوَافِي فِي الْبِلَادِ وَعَلَّةٌ	فِي عَلَّةٍ مَنْفَايَ لَاسْتِشْفَاءِ
مَتَفَرِّدٌ بِصَبَابَتِي ، مَتَفَرِّدٌ	بِكَابَتِي مَتَفَرِّدٌ بِعَنَائِي

¹ - مرض أصابني فخلت أنه ميسغني من جوى الحب الدفين في نفسي

² - كنى بالعلالة عن جسمه المريض.

³ - إن كان طيب هواء الإسكندرية يشفي جسمي فيستطيع أن يلطف النار التي في قلبي.

شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري
ثاو على صخرٍ أصمٍّ وليت لي
ينتابها موجٌ كموجٍ مكارهي
والبحرُ خفاق الجوانب ضائق
تغشى البرية كدرةً وكأنها
فيحيبني برياحه الهوجاء
قلباً كهذي الصخرة الصماء
ويفتها كالسقم في أعضائي
كمداً كصدري ساعة الإساء
صعدت الى عيني من أحشائي¹

يا للغروب وما به من عبرة
أوليس نزعاً للنهار وصرعة
أوليس طمساً لليقين ومبعثاً
أوليس محواً للوجود إلى مدى
حتى يكون النور تجديداً لها
للمستهام و عبرة للرائي
للمشمس بين ماتم الأضواء
لشكٍّ بين غلائل الظلماء
و إبادةً لمعالم الأشياء
ويكون شبه البعث عودُ نكاء²

ولقد ذكرتكَ والنهار مودعٌ
وخواطري تبدو تجاه نواظري
والدمع من جفني يسيل مشعشعاً
الشمسُ في شفقٍ يسيل نضارهُ
مرّت خلال غمامتين تحدراً
فكان آخر دمعةٍ للكون قد
وكانني أنستُ يومي زائلاً
والقلبُ بين مهابةٍ و رجاء
كلّمي كدامية السحاب إزائي
بسنا الشعاع الغارب المترائي
فوق العقيق على ذرى سوداء
وتقطرت كالدمعة الحمراء
مزجت بآخر أدمعي لرثائي
فرأيت في المرأة كيف مسائي³

¹ - كان الغشاوة القائمة التي تغطي الكون قد خرجت من قلبي الكتيب الى عيني.

² - في هذا البيت وما قبله يصف الغروب بأنه صرعة للشمس ومبعث للشك في النفس ومحو مؤقت للوجود ولمعالم الأشياء حتى يعود النور مع النهار التالي فيكون طلوع ذكاء أي الشمس شبه قيامة للوجود.

³ - في هذا البيت والأبيات السابقة له يقول للحبيبة ذكرتكَ عند الغروب وأنا دامي الخواطر داعم العين والشمس قد ذرفت آخر دمعة من سيلها الذهبي بين الغيوم فكانها مزجت وآخر دمعة من عيني وأنا ارثي نفسي، ورأيت في زوال النهار مرآة لزوال حياتي.

رثاء مي

~~

هي الكاتبة النابغة ماري زيادة ، وكانت أديبة وخطيبة في عصرها وقد رثاها الخليل بهذه القصيدة عن شعور صادق واختبار حقيقي عميق.

قد تولى رفاقنا وبقينا	يعلم الله بعدهم ما لقينا
هل من الصاب في كؤوسك سُور	قد سُقينا يا دهر حتى زوينا
أوداعٌ يتلو وداعاً وتأبى	نَّ على الإثر معقبٌ تأبينا
أيها الشاعر الذي كان حياً	يتغنى وكان ينخب حيناً
حطمَ العودَ ان كزَّ الليلي	لم يغادر في العود إلا الأنينا

إيه ياميَّ أسرف اليتم تبريد	حأ بروج كان الوفيَّ الأميّنا
فقدكِ والدينِ حالاً فحالاً	جعل البيض من لياليك جُونا ¹
ورمى أصغريك رامي الكبيزي	من فذاق قبل المنون المنونا ²
أفقر البيت أين ناديك ياميَّ	إليه الوفود يختلفونا ³
صفوة المشرقين نُبلًا وفضلاً	في ذراك الرحيب يعتمرونا ⁴
فتساقُ البحوثُ فيه ضروباً	ويُدار الحديث فيه شجوناً

في مجال الأقلام آل إليك الـ	سبق في المنشئات والمنشئنا
أدبٌ قد جمعت فيه علوماً	يُخطيءُ الظنُّ عدّها ، وفُنونا
وتصرفت فيه نظماً ونثراً	باقترارٍ تصرّف الملهميننا

(1) و (2) يشير إلى ما أصيبت به من فقد والدها مما حملها تباريح الحياة فأثر فيها الموت الذي رمى والدها فأصاب قلبها ولسانها. الجون - السود.

3 - 4 - يشير إلى نادي مي الأسبوع الذي كان يجتمع فيه عندها كل أسبوع نخبة الأدباء والعلماء. وكان الشاعر من أكثر المترددين على هذا النادي

أَيْنَ ذَاكَ الصَوْتُ الَّذِي يَمْلِكُ الْأَسَدَ
فُجِعَ الشَّرْقُ فِي خَطِيبَتِهِ الْفَصْلُ
سَمِعَ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ تَقْفِينَا ؟
حَتَّى وَمَا كَانَ خُطْبَهَا لِيَهُونَا
أَبْلَغُ النَّاطِقَاتِ بِالضَّادِ عَيَّتْ
بَعْدَ أَنْ أَدَّتِ الْبَلَاغُ الْمُبِينَا

ذَاكَ فِي الْعَيْشِ مَا شَغَلَتْ بِهِ وَالِدَ
لَمْ تَرُومِي إِلَّا الْجَلِيلَ وَجَانِبَ
غَيْدُ تَلْهَوِ وَأَنْتِ لَا تَلْهِينَا
بِتِ الْأَبَاطِيلَ وَانْقَبَتِ الْفَتُونَا
وَجَعَلَتْ التَّحْصِيلَ دَأْبًا وَآتَيْتِ
فَعَلَيْكَ السَّلَامُ ، ذَكَرَاكِ تَحِيَا
وَبِرْغَمِ الْبَعَادِ لَا تَبْعِدِينَا

مختارات من شعر الزهاوي

~~

شعر الزهاوي دعوة عاطفية عارمة لأهل وطنه يهيب بهم إلى ترك الماضي وتقاليده والأخذ بالحاضر وما وصل إليه من علم ومعرفة وحضارة. على أن هذه الدعوة ترتدي لوناً قاتماً من حالته النفسية الشاكية لما أصابه من مواطنيه وما كان يراه في وطنه من جهل وفساد، كما ستراه مصغراً في هذه المختارات.

المستنصرية

وهي معهد علمي كان قديماً من المعاهد الزاهرة في بغداد. يقف الشاعر على آثاره فيندب أيامه الماضية ويبيكه في قصيدة تبلغ 53 بيتاً، نختار منها مايلي:

وقفتُ على المستنصرية باكياً	ريوعاً بها للعلم أمست خواليا
وقفتُ بها أبكي قديم حياتها	وأبكي بها الحُسنى وأبكي المعاليا
وقفتُ بها أبكي بشعري بُنائتها	وأنعى سجاياها وأنعى المعاليا
بكيتُ بها المدفونَ في حُجراتها	من العلمِ حتى بَلَّ دمعي رداثيا
وطأطأتُ رأسي في ذراها تواضعاً	وحَيَّيتُ بالتسليم منها المغانيا
وقلتُ لدارِ البحثِ عَظُمَتِ محفلاً	وقلتُ لنادي الدرسِ حَيَّيتُ ناديا
أَكَلِيَّةَ العلمِ الذي كانَ روضه	نضيراً كما شاءَ التقدُّمُ ناميا
لقد كنتَ فيما قد مضى دارَ حكمةٍ	بها يعلم النَّاسُ الحقائقَ ماهيا
فكنتَ بأفق الشرقِ شمساً مضيئةً	تشعِّينَ نوراً للمعارفِ زاهياً
فقلتُ وقاكَ الله لا تسألنني	فما لكَ نفعٌ في السؤالِ ولا ليا
عزَّتْ نكباتُ الدهرِ بغدادَ بعدما	بها رَدَحاً ألقى السلامَ المراسيا

فأذهب ماللعلم من رونق الصِّبا
فكابدت منهنَّ الصُّروفَ نوازلاً
فأهملتُ حتى انهضتُ مني كما ترى
أضاعتُ قرونٌ لي هي اليوم قد خلت
وكنْتُ أرجي أن تعودَ عمارتي
لقد نقض الأيام بالعجم مرَّتي
ورنقٌ² عدوانُ الزمان معيشتي
ومرَّقني الباغونَ كلَّ مُمرِّقٍ
ولاقيتُ منهم كلَّ خسفٍ وجفوةٍ
أغلُّ فلا أسقى من الماءِ شربةً
تتابع أحداثٌ يُشِبِنُ النواصيا
وقاسيتُ منهنَّ الخطوبَ عوادي
مبانٍ لنشرِ العلمِ عزَّتْ مبانيا
فسلَّ إن تشأَ عني القرونُ الخوالي
إذا بعثَ الرحمنُ للعلمِ راعيا
ومرُّ الليالي يتبعنُ الليالي¹
فمن لي أن ألقى الزمان مُصافيا
ولا أحدُّ عن فعلٍ ذلك ناهيا
فماذا عسى من بعد ذا أن الأقيا
ودجلة تجري بالنميرِ أماميا³

خاتام نغفل

قصيدة قومية سياسية نظمها وهو في الآستانة سنة 1898 . فأوصلها بعضهم إلى السلطان فكانت سبباً في سجنه، ثم إبعاده مخفوراً إلى وطنه بغداد. والغريب أن السلطة في الآستانة اكتفت بإبعاده، بل الأغرب أن السلطان أمر أن يقيم في بغداد براتب قدره 15 ليراً عثمانية⁴ ولعله فعل ذلك ليكسبه فيكون من دعاة. وهذا أهم ما ورد فيها:

¹ - المرة- القوة والشدّة، أي أن الزمان ذهب بقوتي.

² - رنق أي كدر.

³ - اغل- اعطش، أي اعطش ولا من يسقيني مع أن نهر الدجلة يجري بقربي ماء عذبا راويا.

⁴ - راجع مقدمة ديوانه الرباعيات تحت ((حيائي)).

ألا فانتبه للأمير حتام تغفل
أغث بلداً فيها نشأت فقد عدت
قد استصرخت أم ربيت بحجرها
رعى الله رعباً كان بالأمس عامراً
بلادي بلادي لا أضن بنصرها
كأنني بالأوطان تندب فتية
إلى قوله:

أما علمتك الحال ما كنت تجهل
عليها عوادٍ للدمار تُعجل
وإنك عنها غافل لست تسأل
بأهليه وهو اليوم قفر معطل
وإن عدلتني في هواهن عدل
عليهم إذا ضام الزمان المعول

وما رابني إلا غرارة فتية
تؤمل إصلاحاً لما فات نافعا
لك الله كم ترجو حياة لدولة
توالت عليها النائبات فكلمها
وما هي إلا دولة مستبددة
وما فئة الإصلاح إلا كبارق
لهم أثر للجور في كل بلدة
إذا نزلوا أرضاً تفاقم خطبها
وتلظمن كفاً الإهانة منهم
إذا سكنت الإنسان فالهم قاتل
لقد عبث بالشعب أطماع ظالم
فتعسا لقوم فوضوا أمر أنفسهم
وذو سلطة لا يرتضي رأي ناصح
أيأمر ((ظل الله)) في أرضه بما

تؤمل إصلاحاً ولا تتأمل
ألا باطل ما ترتجي وتؤمل
تري كل يوم أمرها يتعرقل
ترحل عنها مشكل حل مشكل
تسوس بما يقضي هواها وتعمل
يغرك بالقطر الذي ليس يهطل
يمثل من أطماعهم ما يمثل
كأنهم فيها البلاء المؤكل
فلنثمها من خشية ونقبل
وإن هو لم يسكت فموت معجل
يحمّله من جورهِ ما يحمل³
إلى ملكٍ عن فعله ليس يُسأل
إذا قال قولاً فهو لا يتبدل
نهى الله عنه والكتاب المنزل¹

¹ - البلد في الأصل مذكر وانثاء على معنى بلدة.

² - الغرارة - الجهل أو عدم التجربة.

³ - يحمله أي يحمل الشعب.

فَيُفْقِرُ ذَا مَالٍ وَيَنْفِي مَبْرَأً وَيَسْجُنُ مَظْلُوماً وَيَسْبِي وَيَقْتُلُ
فِيَا مُلْكَاً فِي ظِلْمَةٍ ظَلَّ مُسْرِفاً فَلَا الْأَمْنُ مُوفُورٌ وَلَا هُوَ يَعْدِلُ
تَمَهَّلْ قَلِيلاً لَا تَغْظُ أُمَّةٌ إِذَا تَأَجَّجَ فِيهَا الْغَيْظُ لَا تَتَمَهَّلُ
وَأَيْدِيكَ إِنْ طَالَتْ فَلَا تَغْتَرَّرْ بِهَا فَإِنَّ يَدَ الْأَيَّامِ مِنْهُنَّ أَطْوَلُ



ومن هذا الباب قصيدته...

الظلم يَقتُلُنَا وَالْعَدْلُ يَحْيِينَا

وهي أربعون بيتاً . قالها سنة 1907 وهو في بغداد وكأنه يرفعها إلى السلطان شكوى من عماله الظالمين وهذه مختارات منها:

خَفَّفْ مِنَ الظُّلْمِ إِبْقَاءً وَتَهْوِينَا فَالظُّلْمُ يَقْتُلُنَا وَالْعَدْلُ يَحْيِينَا
يَا مَالِكَ الْأَمْرِ إِنْ النَّاسَ قَدْ هَجَرُوا عَامِلٌ بِرَفْقٍ رَعَايَاكَ الْمَسَاكِينَا
لَهَوْتَ عَنَّا بِمَا أُوتِيتَ مِنْ دَعَا فَابْيَضْ لَيْلِكَ وَاسْوَدَّتْ لَيَالِينَا²
لَيْسَتْ طَرِيقُكَ مَحْمُوداً مَغْبَتَهَا غَيْرُ إِذَا شُنَّتْ فِي الْأَحْوَالِ تَحْسِينَا
ارْحَمْ قُلُوباً لِأَقْوَامٍ إِذَا عَطَشَتْ لِلْعَدْلِ يَوْمًا سَقَاهَا الظُّلْمُ غِسْلِينَا³
يَارَفَقَ اللَّهُ مِنْكَ الْقَلْبَ مِنْ مَلِكٍ يَجْمَعُ الْمَالَ لَكِنْ مِنْ مَسَاعِينَا
فِي عَهْدِهِ صَارَ يُبْكِي الْحَيْفُ أَعِينَا دَمًا وَيَضْحَكُهُ مَا كَانَ يُبْكِينَا

قَسَتْ قُلُوبُ وَلاَةٍ أَنْتَ مُرْسَلُهُمْ كَأَنَّمَا اللَّهُ لَمْ يَخْلُقْ بِهَا لِينَا
تَرَاهُمْ أَغْيَاءَ عِنْدَ مَصْلَحَةٍ وَفِي الْمَفَاسِدِ تَلْقَاهُمْ شَيْطَانِينَا

¹ - ظل الله يعني السلطان الخليفة. الكتاب المنزل أي القرآن.

² - يقول للسلطان ماهوت عنا إلا من لطفك وتواضعك.

³ - الغسلينا هو ما سال من غوم ودماء أهل النار في الجحيم.

مابين إغماضٍ مَرشِيٍّ ورَاشِينا¹
 عَمَّا لَكَ الْمَسْتَبَدُّونَ السَّاكِينَا
 يَا عَدْلُ إِنَّ ابْتِسَاماً مِنْكَ يَكْفِينَا
 وَلَا نَسِيمَ الصَّبَا إِنْ هَبَّ يُسْلِينَا
 تَذَكَّرُوا أَنَّنَا طَالَتْ لِيَالِينَا
 وَأَثْمَرَ الْعِلْمُ إِلَّا فِي نَوَاحِينَا
 مَا عَمَّنَا الظُّلَمُ إِلَّا مِنْ تَغَاضِينَا
 كَفَّ الْإِسَارَ بِأَيْدِينَا بِأَيْدِينَا

وضاع في الملكِ عدلٌ يُسْتَظَلُّ بِهِ
 إِنَّ الرعيَّةَ أَغْنَامٌ يَحْدُّ لَهَا
 يَاعَدْلُ إِنَّ النِّفَاتَا مِنْكَ يُسْعِدُنَا
 إِنْ غَبَتَ عَنَا فَلَا عَيْشٌ يَطِيبُ لَنَا
 يَامَنْ لِيَالِيَهُمْ بِاللَّهُوِ قَدْ قَصُرَتْ
 قَدْ سَافَرَ الْجَهْلُ إِلَّا عَنْ مَنَازِلِنَا
 مَا جَاعَنَا الشَّرُّ إِلَّا مِنْ تَهَاوُنِنَا
 لَا بَدْءَ مِنْ فَكٍّ مَا قَدْ شَدَّ مِنْ عُقْدٍ

~ ~

أَيُّهَا الْعِلْمُ

يقف الشاعر أمام العلم العراقي في مهرجان ((سوق عكاظ)) في عهد الملك فيصل الأول ، فينشد هذه القصيدة الوطنية العصماء في أكثر من أربعين بيتاً نختار منها مايلي:

فإننا بك بعد الله نعتصمُ
 عِشْ لِلألى في العراق اليوم قد حكموا
 عَيْنُ العنَايةِ مِنْ شَعْبٍ لَهُ ذِمَمُ
 بَأَنْ تَوَيَّدَكَ الْأَحْزَابُ كُلُّهُمْ
 أَفْرَاحَهَا بِكَ فَانْظُرْ، هَذِهِ الْأُمَمُ²
 بَحَرٌ خِصَمٌ بِهِ الْأُمُوجُ تَلْتَطَمُ

عِشْ هَكَذَا فِي عِلْوِ أَيُّهَا الْعِلْمُ
 عِشْ لِلْعُرُوبَةِ عِشْ لِلْهَاتِفِينَ لَهَا
 عِشْ لِلْعِرَاقِ لَوَاءَ الْحُكْمِ تَكْلُوهُ
 عِشْ خَافِقاً فِي الْأَعَالِي لِلْبَقَاءِ وَثْقُ
 جَاءَتْ تَحْيِيكَ هَذَا الْيَوْمُ مُعْلَنَةً
 كَأَنَّمَا النَّاسُ فِي بَغْدَادٍ إِذْ هَتَفُوا

¹ - الأصح مرشو لأنه من رشا يرشو.

² - هذه الأمم فاعل تحييك.

إن احتقرت فإن الشعب محتقر
الشعب أنت وأنت الشعب أجمعه
أو احترمت فإن الشعب محترم
وأنت أنت جلال الشعب والعظم

هذا الهتاف الذي يعلو فتسمعه
قد كان لليأس في أكبادنا ألم
جميعه لك فاسلم أيها العلم
حتى خفقت فلا يأس ولا ألم

أهل العراقين بعد الله قد وثقوا
يا قوم أنتم بنيتم من تضامنكم
على الفراتين حصناً ليس يهدم
يا قوم إن لم تصونوا عز بيضتكم²
بفصيل وهو ذاك الصّارم الخدم¹
تأبى الصغار نفوس لم تكن جبّلت
على الصغار وآناف لها شمم
فأين تلك السجايا الغر والشيم

¹ - الخدم أي القاطع.

² - عز بيضتكم أي عز ساحتكم أو ما في حوزتكم.

الهوى والشباب

الهوى والشباب والأملُ المذ شؤدُ توحى فتبعث الشعر حياً
الهوى والشباب والأملُ المذ شؤدُ ضاعت جميعها من يدٍ
يشرب الكأس ذو الحجا ويبقى لغدٍ في قرارة الكأس شيئاً
لم يكن لي غدٌ فأفرغت كأسى ثم حطمتها على شفتيّ

أيها الخافقُ المعذبُ يا قلـ بى نزحت الدموع من مقلتي
أفحتم عليّ إرسال دمعى كلما لاح برقٌ في محيا
يا حبيبي لأجل عينيك ما ألد قى وما أول الوشاة علياً
أنا العاشقُ الوحيد للقلـ تبعات الهوى على كفتي
اسقني من لملك أشهى من الخم رِ ونم ساعة على راحتى
أنا ماضٍ غداً مع الفجر فاسكب نغمات الحنان في أذني

جَفَنهُ عَلمُ الغَزَلِ

جَفَنهُ عَلمُ الغَزَلِ ومن الحبِّ ما قَتَلُ
فحرقنا نفوسنا في جحيمٍ من القَبْلُ

وَنَشَدْنَا ولم نَزَلْ حُلْمُ الحبِّ والشبابِ
حُلْمُ الرَّهْرِ والنَّدَى حُلْمُ اللّهُو والشرابِ

هَاتِيهَا من يد الرِّضَى جُرْعَةً تَبْعُثُ الجنونَ
كيف يشكو من الظما من له هذه العيونُ

يا حبيبي أَكَلَمَا ضَمَمْنَا للهوى مكانَ
أَشْعَلُوا النار حولنا فغدونا لها دُخانَ

قُلْ لمن لَامَ في الهوى هكذا الحسنُ قد أَمَرَ
إِنْ عَشِقْنَا فَعُذِرْنَا أَنْ في وجهنا نظَرَ

مَنْ رَأَى الشَّاعِرَ تَابَ

كذبَ الواشي وخابَ
من رأى الشاعرَ تابَ
عمُرُه فجر من الحـ
بَّ وليلٌ من شرابٍ

كيف أصحو ؟ خمرتي من شفتيكِ

والمُنَى تضحك لي في ناظريكِ

وأناشيدُ الهوى في أذنيكِ

همساتُ القطر بل رناتُ أيكِ

غنّي يا بليلي واسقني يا جدولي
والشرابُ الليالي الحُمر لي

كذبَ الواشي وخابَ
من رأى الشاعرَ تابَ

رَددي ذكر لقانا الأولِ

وتساقينا كؤوس الغزلِ

وافتراش العشب عند الجدولِ

أنا لا أنسى وقد غنيت لي

عندما الليل احتوانا كيف سالت دمعانا وتلاقت شفتانا

في الضبابِ

كذبَ الواشي وخابَ
من رأى الشاعرَ تابَ

ياليلينا على شطّ الخليج

وملاهينا على مرمى الثلوج

حبّذا لبنانُ من أفق بهيج

فاسفحي الخمرَ على تلك المروج

واسقني الشَّهد المُذاب فاذا ولّى الشباب كلُّ مايبقى ترابٌ

وسرابٌ

كذب الواشي وخابٌ من رأى الشاعر تابٌ

أنا طيفٌ من خَيالاتِ الليالي

من صدى الوادي ومن همس الدوالي

كم على الصحراءِ وشيٍّ من خيالي

وعلى البحر يتيماتِي الغوالي

منهما صُغْتُ حُلاكِ ومُنَى النفسِ رضاكِ أنا والشَّعرُ فذاكِ

والشبابُ

كذب الواشي وخابٌ من رأى الشاعر تابٌ

عمُرُه فجر من الحـبِّ وليلٌ من شرابِ

~~

مُودُوا إِلَى تِلْكَ الْقَرْىِ

من قصيدة ريفيّة اقترحت عليه وقد اشتدّ نزوح اللبنانيين من القرى إلى المدن.
وهي لوحة للحياة القروية في الريف اللبناني قبلًا:

أَبْنِي أَبِينَا طَالَ نَوْمُكُمْ	تَشْقَى النَفُوسُ وَيَنعَمُ الْبَدَنُ
لَا الْحَقْلُ يَبْسُمُ عَنْ مَعَاوِلِكُمْ	فِيهِ وَلَا تَتَرْتَّمُ الْمِهْرُ
دَوَتْ الرِّيَاضُ وَمَاوَكُمْ عُمَمٌ	وَتَعَطَّلَتْ مِنْ حَلِيهَا الْقَنْنُ
وَحَوَتْ زُرَائِبَكُمْ وَكَانَ عَلَى	جَنَبَاتِهَا يَتَدَفَّقُ اللَّبَنُ
مَحَرَّاتُكُمْ صَدِىءَ الْحَدِيدِ بِهِ	وَالْفَأْسُ مَلَأَ عَيُونَهَا الْوَسَنُ
عُودُوا إِلَى تِلْكَ الْقَرْىِ فَلَقَدْ	سَلَخْتَكُمْ عَنْ قَلْبِهَا الْمُذُنُ

الذَكَرِيَّاتُ عَلَى مَقَادِسِهَا	الْأُمُّ وَالْإِخْوَانُ وَالسُّكُنُ ¹
قُبْلَ الطُّفُولَةِ فِي تَرَائِبِهَا	لَيْتَ الْحَيَاةَ لِبَعْضِهَا ثَمَنُ
فَدَتِ الْعَيُونَ النَّجْلُ أَجْمَعُهَا	عَيْنًا تَدَفَّقُ مَاوُهَا الْهَتِنُ ²
تَأْوِي الطُّيُورُ إِلَى أَظْلَتِهَا	وَيُظِلُّ يَلْتَمُ كَفُّهَا الْغُصْنُ
تَرْدُ الصَّبَايَا بِالْجِرَارِ وَقَدْ	عَادَتْ عَلَى أَكْتَافِهَا الْمَرْزُنُ ³

¹ - أي نقّس فيها ذكريات المل والأحبة.

² - فدى عيون الماء المتدفقة في الجبل عيون الحسان في المدن.

³ - تحمل الصبايا جرّاتها إلى العين وترجع للماء على أكثافها.

لبنانُ - لبنان الحبيبُ حوى لا البيت لالبيستان لا العطن¹
خَلَّتْ المرباط من سوابقها وتثاءبت بحبالها الأثن²
عودوا إلى تلك القرى فعلى بساماتها يتمرّقُ الحرُّ
لبنانُ ما فعلَ الزمان بنا ؟ سلّه أما لحروبه هُدنْ
يغدو عليك بأوجه كآحت فمتى ينور وجهك الحسنْ

¹ - أي لم يبق فيها شيء عامراً. العطن - المأوى والمراح.

² - السوابق - الخيول.

كَيْفَ أَنْسَى

كَيْفَ أَنْسَاكَ يَا خَيَالَاتِ أَمْسِي ذَكْرِيَاتِ الصَّبَا وَأَحْلَامِ نَفْسِي
كَيْفَ أَنْسَى الْأَيَّامَ صَفَوًّا وَأَنْسَاً كَيْفَ أَنْسَى !

* * *

مِيْ هَلَّا ذَكَرْتَ تِلْكَ السَّنِينَ بِأَبِي أَنْتِ كَيْفَ لَا تَذَكِّرِينَا
كَمْ نَشْفُقُنَا نَقَى هُنَاكَ وَقُدْسَا كَيْفَ أَنْسَى !

* * *

أَفَلَا تَذَكِّرِينَ ذَاكَ الْغَدِيرَا وَالْأَفَانِينَ حَوْلَهُ وَالزُّهُورَا
وَالسَّنُونُو يُحَدِّثُ الْمَاءَ هَمْسَا كَيْفَ أَنْسَى !

* * *

كَيْفَ أَنْسَى وَقَدْ كَبَرْنَا قَلِيلَا وَذَكَّرْنَا مَا كَانَ ذِكْرًا جَمِيلَا
وَعَرَفْنَا الدُّنْيَا نَعِيمًا وَبُؤْسَا كَيْفَ أَنْسَى !

* * *

لَسْتُ أَنْسَى مَا عَشْتُ يَوْمَ الْفِرَاقِ وَجِرَاحًا حُمْرًا بِتِلْكَ الْمَآقِي
وَبُكَاهَا وَقَوْلَهَا سَوْفَ تَنْسَى كَيْفَ أَنْسَى !

* * *

مَنْ مُعِيدٌ إِلَيَّ ذَاكَ الزَّمَانَا وَمُعِيدٌ سَلَمِي إِلَيَّ الْآنَا
لَتَرَى أَنَّنِي وَإِنْ مِتُّ يَا سَا لَسْتُ أَنْسَى

اللجنة العلمية:

الأستاذ الدكتور خليل موسى

الأستاذ الدكتور رياض عوادة

الأستاذ الدكتور محمد موعد

حقوق الطبع والترجمة والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات